80 سبباً لصلاح القلوب

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤٣٨هـ - ٢٠١٦م

رقم الإيداع

٢٠١٦/٢٦٤٥٦

دار المجد للنشر والتوزيع

ش عمر بن عبد العزيز - خلف مديرية الزراعة - طنطا

ت: ٠٤٠٣٢٧٤٠٢١ - ٠١٠٠٤٩٧٧١٤٢ - ٠١١١٣٥٧٥٩٩٥

E-mail: elmagdbook@yahoo.com

80 سبباً لصلاح القلوب

جمع وترتيب
عبد الرحمن بن محمد المصري

مجد للثقافة والعلوم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي بيده قلوب العباد ونواصيهم والصلاة والسلام على أطهر قلب عرفته البشرية صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أما بعد،،

أخي المسلم تقرأ في هذا الكتاب بفضل الله تعالى وحده عن أهمية القلب وخطورته وأنواع القلوب وعلامات صحة القلب ومرضه وعن صفات القلوب في القرآن الكريم وأسباب صلاح القلب وأسباب موته، فكان على العاقل الذي يريد أن ينجو يوم القيامة، أن يأخذ بهذه الأسباب، حتى يكون من أصحاب القلب السليم الذي لا ينجو غيرهم كما قال تعالى: ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء: ٨٩].

وأسأل الله تعالى بفضله وكرمه ورحمته أن يصلح قلوبنا وقلوب المسلمين إنه ولي ذلك والقادر عليه وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم النبيين والمرسلين.

الفقير إلى عفو ربه

عبد الرحمن بن محمد المصري

الفصل الأول

سؤلات الصحابة للرسول ﷺ عن القلب

سؤال الصحابة للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن القلب وخوف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على قلوبهم

عن سلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَتَاهُ رَجُلٌ يَشْكُو قَسْوَةَ قَلْبِهِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَتُحِبُّ أَنْ يَلِينَ قَلْبُكَ؟**»، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «**فَأَدْنِ الْيَتِيمَ إِلَيْكَ، وَامْسَحْ بِرَأْسِهِ، وَأَطْعِمْهُ مِنْ طَعَامِكَ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُلَيِّنُ قَلْبَكَ، وَتَقْدِرُ عَلَى حَاجَتِكَ**» [صحيح الجامع].

عن أنس بن مالك قال: كَانَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: «**يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**»، فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ آمَنَّا بِكَ وَبِمَا جِئْتَ بِهِ فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا. قَالَ: «**نَعَمْ إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ** عَزَّ وَجَلَّ **يُقَلِّبُهَا**» [الإمام أحمد وابن ماجه].

وعن شَهْرُ بْنُ حَوْشَبٍ قَالَ: قُلْتُ لِأُمِّ سَلَمَةَ يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ مَا كَانَ أَكْثَرَ دُعَاءِ رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا كَانَ عِنْدَكِ قَالَتْ: كَانَ أَكْثَرُ دُعَائِهِ يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ قَالَتْ فَقُلْتُ لَهُ يَا رَسُولَ الله مَا أَكْثَرَ دُعَاءَكَ يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ قَالَ: «**يَا أُمَّ سَلَمَةَ مَا مِنْ آدَمِيٍّ إِلَّا وَقَلْبُهُ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ** عَزَّ وَجَلَّ **مَا شَاءَ أَقَامَ وَمَا شَاءَ أَزَاغَ**» [الإمام أحمد وابن ماجه].

خطورة القلب

أخى المسلم إذا مرض عضو من أعضائك تذهب مسرعًا إلى الطبيب خوفًا أن تموت، وإذا مرض قلبك أو مات لا تسعى فى شفائه، **قال عبد الله بن مسعود:** عجبت من الناس يبكون على من مات جسده ولا يبكون على من مات قلبه، وهو أشد لأن موت الجسد إنقطاع عن الله، فإذا إنقطع القلب عن الله فتظن أن يصله خيراً أبدًا فكم من رجل أو امرأه يمشون على الارض وهم قبور متحركة فى هيئة أجسام ولا حول ولا قوة إلا بالله وتجد رجل مريض ينام على السرير أكثر من عشرين عامًا، ولكن حى القلب لأن الحياة حياة القلوب والموت موت القلوب كما فى حديث أبى موسى الأشعرى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لاَ يَذْكُرُ رَبَّهُ، مَثَلُ الحَيِّ وَالمَيِّتِ**» [صحيح البخاري]، وكما قال القائل:

وفي الجهل قبل المـوت مـوت لأهله وأجسامهم قبل الـقـبـور قبور
وأرواحـهـم في وحشة من جسومهم ولـيـس لهـم حـتى النشور نشور

واعلم أن صلاح العبد بصلاح قلبه، وفساد العبد بفساد قلبه فصلاح الظاهر دليل على صلاح القلب، وفساد الظاهر دليل على فساد القلب كما قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ**» [صحيح البخاري]، فالذي لايصلي، ويفعل الكبائر، وينتهك المحرمات، ويقول قلبي أبيض كذاب لأن لو كان قلبه أبيض كما يقول لأطاع

مولاه، وسيده وهو الله، وقال أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**القلب للأعضاء كالملك المتصرف في الجنود فإذا صلح الملك صلح الجنود، وإذا فسد الملك فسد الجنود**»، والقلب محل نظر الله كما قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ اللّٰهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ**» [صحيح مسلم]، وتأمل لم يقل الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينظر إلى قلوبكم فقط، ولكن ينظر إلى القلوب، والأعمال، فهل يرى الله في قلبك مايحب أم يرى في قلبك مايكره؟ فلما علم الشيطان أهمية القلب صار لايريد إلا قلب العبد حتى يمتلكه.

مثال:

قلب الإنسان كرجل عنده قصر كبير فإن نظفه، وأهتم به عاش فيه في راحة، وهدوء، وإما إذا تركه، ولم يهتم به، ولم ينظفه من الأتربة، والقاذورات، والحشرات، والحيوانات لصار هذا البيت خرب، وهدم في وقت قصير، وإذا أراد صاحبه أن ينظفه، ويرممه لأخذ منه مجهود كبير فكذلك القلب قيل لابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: إن اليهود تزعم أنها لا توسوس في صلاتها فقال: ومايصنع الشيطان بالقلب الخراب؟، فاللص الذي يريد أن يسؤق بيت إذا وجد الأبوب مغلقه، وعلى الأسوار أسلاك شاكه، وأهل البيت في يقظة لايستطيع اللص دخول هذا البيت، ولكن يدخل البيت الذي منافذه مفتحة، وأهله ليسو فيه أو نائمون فكذلك الشيطان مع القلوب.

إنقسام القلب:

اعلم أخي المسلم أن القلوب أنواع فمنها السليم، ومنها المريض، ومنها القلب الميت القاسي كما دلة عليه الشريعة قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [النساء:٣٦]، فذكر الله تعالى في هذه الأيتين أنواع القلوب الثلاثة القلب المريض، والقلب القاسي الميت، والقلب السليم المخبت لله تعالى .

أولاً- القلب السليم:

وأعلم أنه لاينجو يوم القيامة إلا صاحب هذا القلب كما قال تعالى: ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء:٨٩]، وقال تعالى عن سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الصافات:٨٣-٨٤]، فالقلب السليم هو الذي سلم من أن يكون لغير الله فيه شرك بوجه ما بل قد خلصت عبوديته لله تعالى إرادة، ومحبة، وتوكلاً، وإنابة، وإخباتًا، وخشية، ورجاء، وخلص عمله لله فإن أحب أحب في الله، وإن أبغض أبغض في الله، وإن أعطى أعطى لله، وإن منع منع لله، ولا ينقاد، ولا يتحامن إلا لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيعقد قلبه عقدًا محكمًا على الأئتمان، والإقتداء به وحده [إغاثة اللهفان لابن القيم]، قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

[النساء:٦٥]، وقال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ ﴾ [الأحزاب:٢١]، وقال تعالى: ﴿ مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ [النساء:٨٠]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ ﴾ [الأحزاب:٣٦]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ ﴾ [الحشر:٧]، فلا يقدم قول أحد على قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا فعل أحد عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما قال تعالى: ﴿ لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [الحجرات:١].

ثانيًا- القلب الميت :

وهو ضد القلب السليم، وهو القلب الميت الذي لا حياة به فهو لا يعرف ربه، ولا يعبده بأمره، وما يحبه، ويرضاه بل هو واقف مع شهواته، ولذاته، ولو كان فيها سخط الله، وغضبه فهو لا يبالي إذا فاز بشهوته، وحظه، وهل رضى الله أم أسخطه؟ فهو متعبد لغير الله حبًا، وخوفًا، ورجاءً، ورضًا، وسخطًا، وتعظيمًا، وذلاً إن أحب أحب لهواه، وإن أبغض أبغض لهواه، وإن أعطى أعطى لهواه، وإن منع منع لهواه فهواه آثر عنده وأحب إليه من رضا مولاه فالهوى إمامه، والشهوة قائده، والجهل سائقه، والغفلة مركبه فهو بالفكر في تحصيل أغراضه الدنيوية مغمور، وبكرة الهوى وحب العاجلة مخمور ينادي إلى الله، وإلى الدار الآخرة من مكان بعيد فلا يستجيب للناصح، ويتبع كل شيطان مريد الدنيا تسخطه، وترضيه، والهوى يصمه عما سوى الباطل، ويعميه فمخالطة صاحب هذا القلب سقيم، ومعاشرته سم، ومجالسته هلاك [إغاثة اللهفان]، وقال تعالى عن اليهود: ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [البقرة: ٨٨]، وهو جمع أغلف، وهو الداخل في غلافة كالقفل، وهذه

الغشاوة هي الأكنة التي ضربها الله على قلوبهم عقوبة على رد الحق، والتكبر عن قبوله فهي أكنة على القلوب، ووقر في الأسماع، وعمى في الأبصار كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴾ [الإسراء:٤٥-٤٦]، وقال تعالى عن اليهود: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ [البقرة:٧٤]، وتأمل أن الله لم يشبه قلوبهم بالحديد ولكن شبهها بالحجارة لأن الحجارة تهبط من خشية الله كما قال تعالى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر:٢١]، فالحجر القوي يهبط من خشية الله، ولو أنزل عليه القرءان لكان خشعًا متصدعًا من خشية الله، ولكن القلب الضعيف الذي هو قطعة لحم الذي لا يخشع لكلام الله، ولا يخشى الله كان عند الله أشد من الحجارة، وليس فيه خير.

ثالثًا- القلب المريض:

وهو قلب له حياة، وبه علة فله مادتان تمده هذه مرة، وهذه أخرى، وهو لما غلب عليه منهما ففيه من محبة الله تعالى، والإيمان به، والإخلاص له، والتوكل عليه ماهو مادة حياة قلبه، وفيه من محبة الشهوات، وإيثارها، والحرص على تحصيلها، والحسد، والكبر، والعجب، وحب العلو، والفساد في الأرض بالرياسة ما هو مادة هلاكه، وهو ممتحن بين داعيين داعي يدعوه إلى الله، ورسوله ﷺ، وداع يدعوه إلى العاجلة، وهو إنما يجيب أقربهما منه بابًا، وأدناهما إليه جوارًا [إغاثة اللهفان].

علامات مرض القلب:

قد يمرض القلب، ويشتد مرضه، ولا يعرف به صاحبه بل قد يموت، وصاحبه لايعرف بموته، وعلامة مرضه أو موته أن صاحبه لا يتألم بفعل المعاصي ولا وجعه جهله بالحق، وعقائده الباطة فإن القلب إذا كان حًا تألم بورود القبائح عليه، وعلامات مرض القلب أن يهتم بالأغذية الضارة، ويترك الأغذية النافعة، ويهتم بالدواء الضار عن الدواء النافع، وأنفع الأغذية الإمان، وأنفع الأدوية دواء القرءان [تزكية النفوس للدكتور أحمد فريد].

علامات صحة القلب:

١- أنه يرتحل عن الدنيا حتى ينزل بالأخرة:

ويحل فيها حتى يبقى كأنه من أهلها كما قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعبد الله بن عمر: «**كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ، أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ**» [صحيح البخاري]، فكان عبد الله بن عمر يقول: إذا آتى عليك الصباح فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك، وقال على بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**إن الدنيا قد أرتحلت مدبره، وإن الآخرة قد أرتحلت مقبله ولكل منهما بنون فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا فإن اليومعمل ولا حساب وغدًا حساب، ولا عمل**»، وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فحي على جنات عدن فإنها منازلك الأولى وفيها المخيم، ولكنا سبى العدو فهل ترى نعود إلى أوطاننا، ونسلم.

٢- إذا فاته ورد أو طاعة من الطاعات:

وجد لذلك ألمًا أعظم من تألم الحريص بفوات ماله، وفقده.

٣- أن يكون أشح بوقته أن يذهب ضائعًا:

كأشر الناس شحًا بماله.

٤- أن يكون إذا دخل في الصلاة:

ذهب عنه همه، وغمه بالدنيا، ووجد في الصلاة راحته، ونعيمه، وقرة عينه، وسرور قلبه كما قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ**»، وإذا أذن بلال بالصلاة قال: أرحنا بها يابلال، وكان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة، ودبت الآكلة في أحدى قدم عروة بن الزبير فقالوا: أشرب الخمر حتى يذهب عقلك ثم نقطع قدمك حتى لا تشعر بالألم قال: ماكنت أستعين بمعصية الله على العافية، وقال: إذا دخلت في الصلاة، وسجدت فقطعوا قدمي فلما سجد قطعوا قدمه فلم يشعر بقطعها، وكان أحد السلف يصلي فسقط الجدار خلفه فلم يشعر به، وقال الأسود بن سالم: ركعتين أصليهما لله أحب إلي من الجنة بما فيها فقيل له هذا خطأ الجنة رضا نفسي، والركعتان رضا ربي، ورضا ربي أحب إلي من رضا نفسي العارف في الأرض ريحانة من رياحين الجنة إذا شمها المريد أشتاقت نفسه إلى الجنة، وكان زين العابدين إذا توضأ أصفر لونه فسأل عن ذلك فقال: أتدرون أمام من أقف، وسأل أحد السلف عن سبب خشوعه في الصلاة فقال: إذا دخلت في الصلاة فأنا

بين يدي الله، والصراط أمامي، وعن يميني الجنة، وعن شمالي النار، وكان أحد السلف يصلي فوقع حريق في بيته، ولم يلتفت إليهم فبعد إنتهائه من الصلاة قيل له وقع في بيتك حريق، ولم تخرج من الصلاة فقال: أشغلتني عنها نار الآخرة.

٥- أن لا يفتر عن ذكر ربه:

ولا يسأم من خدمته، ولا يأنس بغيره إلا بمن يدله عليه، ويذكره به.

٦- أنه يشتاق إلى الخدمة كما يشتاق الجائع:

إلى الطعام، والشراب.

٧- أن يكون همه واحدًا:

وأن يكون في الله.

٨- أنه يهتم بالأغذية النافعه:

والأدوية الشافيه، وانفع الأغذية غذاء الإيمان، وأنفع الأدوية دواء القرآن.

٩- أنه لا يزال يضرب على صاحبه:

حتى ينيب إلى الله، ويخبت إليه، ويتعلق به تعلق المحب المضطر إلى محبوبه الذي لا حياة له، ولا فلاح، ولا نعيم، ولاسرور إلا برضاه، وقربه، والأنس به فيه يطمأن، وإليه يسكن، وإليه يأوي، وبه يفرح، وعليه يتوكل، وبه يثق، وإياه يرجو، وله يخاف فذكره قوته، وغذاؤه، ومحبته، والشوق إليه حياته، ونعيمه، وسروره، وعدم الالتفات إلى غيره، والتعلق بسواه داؤه، والرجوع إليه دواؤه فإذا حصل له

القرب من ربه سكن إليه، واطمأن به وزال ذلك الاضطراب، والقلق، وانسدت تلك الفاقة فإن في القلب فاقة لا يسدها شئ سوى الله تعالى أبدًا، وفيه شعث لا يلمه غير الإخلاص له، وعبادته وحده، فهو دائمًا يضرب على صاحبه حتي يسكن، ويطمئن إلى إلهه، ومعبوده فحينئذ يباشر روح الحياة، ويذوق طعمها، ويصير له حياة أخرى غير حياة الغافلين المعرضين عن الأمر الذي خلق له الخلق، ولأجله خلقت الجنة، والنار، وله أرسلت الرسل، ونزلت الكتب.

قلب المؤمن مستنير بالإيمان

قلب محشو بالإيمان، قد استنار بنور الإيمان، وانقشعت عنه حُجُب الشهوات، وأقلعت عنه تلك الظلمات، فلنوره في صدره إشراق إيقاد لو دنا منه الوسواس احترق به.

وليست السماء بأعظم حرمة من المؤمن، وحراسة الله تعالى له أتم من حراسة السماء، والسماء متعبد الملائكة ومستقر الوحي، وفيها أنوار الطاعات، وقلب المؤمن مستقر التوحيد والمحبة والمعرفة والإيمان، وفيه أنوارها، فهو حقيق أن يُحْرَسَ ويُحْفَظَ من كيد العدو فلا ينال منه شيئًا إلا خطفه.

وقد مثَّل ذلك بمثال حسن، وهو ثلاثة بيوت:

بيت للملك: فيه كنوزه، وذخائره، وليس جواهر الملك وذخائره.

وبيت خالٍ صفر لا شيء فيه، فجاء اللص يسرق من أحد البيوت فمن أيها يسرق؟ فإن قلت: من البيت الخالي كان محالًا، لأن البيت الخالي ليس فيه شيء يُسرق، ولهذا قيل لابن عباس إن اليهود تزعم أنها لا توسوس في صلاتها، فقال: وما يصنع الشيطان بالقلب الخراب؟! وإن قلت: يسرق من بيت الملك كان ذلك كالمستحيل الممتنع، فإن عليه من الحرس ما لا يستطيع اللص الدنو منه، كيف وحارسه الملك بنفسه؟ وكيف يستطيع اللص الدنو منه وحوله من الحرس والجند ما حوله؟ فلم يبق للص إلا البيت الثالث، فهو الذي يشن عليه الغارات.

فليتأمل اللبيب هذا المثال حق التأمل، ولينزله على القلوب، فإنها على منواله، فقلب خلا من الخير كله وهو قلب الكافر والمنافق، فذلك بيت الشيطان قد أحرزه لنفسه واستوطنه واتخذه سكنًا ومستقرًا، فأي شيء يسرق منه وفيه خزائنه وذخائره وشكوكه وخيالاته ووساوسه، وقلب قد امتلأ من جلال الله وعظمته ومحبته ومراقبته والحياء منه، فأي شيطان يجترىء على هذا القلب؟ وإن أراد سرقة شيء منه فماذا يسرق؟

وغايته أن يظفر في بعض الأحايين منه بخطفة ونهب يحصل له على غرة من العبد وغفلة لابد له منها، إذ هو بشر وأحكام البشرية جارية عليه من الغفلة والسهو والذهول وغلبة الطبع [الوابل الصيب].

حياة القلب وصحته تحصيل إلا بأن يكون مدركًا للحق مريدًا له

لما كان في القلب قوتان: قوة العلم والتمييز وقوة الإرادة والحب كان كماله وصلاحه باستعمال هاتين القوتين فيما ينفعه ويعود عليه بصلاحه باستعمال قوة العلم في إدراك الحق ومعرفته التمييز بينه وبين الباطل، فمن لم يعرف الحق فهو ضال، ومن عرفه وآثر غيره عليه، فهو مغضوب عليه، ومن عرفه واتبعه فهو مُنْعَمٌ عليه.

وقد أمرنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن نسأله في صلاتنا صراط الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، ولهذا كان النصارى أخصَّ بالضلال، لأنهم أمة جهل، واليهود أخصَّ بالغضب، لأنهم أمة عناد، وهذه الأمة هم المنعم عليهم، ولهذا قال سفيان بن عيينة: من فسد من عُبَّادِنا ففيه شبه من النصارى، ومن فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود، لأن النصارى عبدوا بغير علم واليهود عرفوا الحق وعدلوا عنه.

وفي المسند والترمذي من حديث عدي بن حاتم: عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: **«الْيَهُودَ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِمْ، وَالنَّصَارَى ضَالُّونَ»**.

حياة القلب وإشراقه مادة كل خير فيه

أصل كل خير وسعادة للعبد، بل كل حي ناطق كمال حياته ونوره، فالحياة مادة الخير كله.

قال تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، فجمع بين الأصلين: الحياة والنور، فبالحياة تكون قوته وسمعه وبصره وحياؤه وعفته وشجاعته وسائر أخلاقه الفاضله ومحبته للحسن وبغضه للقبيح، فكلما قويت حياته قويت فيه هذه الصفات، وإذا ضعفت حياته ضعفت فيه هذه الصفات، وحياؤه من القبائح هو بحسب حياته في نفسه، فالقلب الصحيح الحي إذا عرضت عليه القبائح نفر منها بطبعه وأبغضها ولم يلتفت إليها، بخلاف القلب الميت فإنه لا يفرق بين الحسن والقبيح.

كما قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هلك من لم يكن له قلب يعرف به المعروف وينكر به المنكر.

وكذلك القلب المريض بالشهوة، فإنه لضعفه يميل إلى ما يعرض له من ذلك بحسب قوة المرض وضعفه.

وكذلك إذا قوي نوره وإشراقه انكشفت له صور المعلومات وحقائقها على ما هي عليه، فاستبان حسن الحسن بنوره وآثر بحياته، وكذلك قبح القبيح، وقد ذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هذين الأصلين في مواضع من كتابه، فقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: ٥٢]، فجمع بين الروح الذي يحصل به الحياة والنور الذي يحصل به الإضاءة والإشراق وأخبر أن كتابه الذي أنزله على رسوله

ﷺ متضمن للأمرين، فهو روح تحيا به القلوب ونور تستضيء وتشرق به كما قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، أي: أوَ مَنْ كان كافرًا، ميت القلب، مغمورًا في الجهل فهديناه لرشده ووفقناه للإيمان وجعلنا قلبه حيا بعد موته مشرقًا مستنيرًا بعد ظلمته؟ فجعل الكافر لانصرافه عن طاعته، وجهله بمعرفته وتوحيده وشرائع دينه وترك الأخذ بنصيبه من رضاه، والعمل بما يؤديه إلى نجاته وسعادته بمنزلة الميت الذي لا ينفع نفسه بنافعه ولا يدفع عنها من مكروه فهديناه للإسلام وأنعشناه به فصار يعرف مضارَّ نفسه ومنافعَها ويعمل في خلاصها من سخط الله تعالى وعقابه فأبصر الحق بعد عماه عنه وعرفه بعد جهله به واتبعه بعد إعراضه عنه وحصل له نور وضياء يستضيء به فيمشي بنوره بين الناس وهم في سدف الظلام كما قيل:

ليلي بوجهك مشرق ... وظلامه في الناس ساري

الناس في سدف الظلام ... ونحن في ضوء النهار

ولهذا يضرب الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ المثلين المائي والناري لوحيه ولعباده، أما الأول فكما قال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

فضرب لوحيه المثل بالماء لما يحصل به من الحياة وبالنار لما يحصل بها من الإضاءة والإشراق وأخبر سبحانه أن الأودية تسيل بقدرها، فوادٍ كبيرٌ يسع ماءً كثيرًا ووادٍ صغيرٌ يسع ماءً قليلًا كذلك القلوب مشبهة بالأودية فقلب كبير يسع علمًا كثيرًا وقلب صغير إنما يسع بقدره، وشبه ما تحمله القلوب من الشبهات والشهوات بسبب مخالطة الوحي لها وإمازته لما فيها من ذلك بما يحتمله السيل من الزبد وشبه بطلان تلك الشبهات باستقرار العلم النافع فيها بذهاب ذلك الزبد وإلقاء الوادي له وإنما يستقر فيه الماء الذي به النفع وكذلك في المثل الذي بعده: يذهب الخبث الذي في ذلك الجوهر ويستقر صفوه وأما ضرب هذين المثلين للعباد، فكما قال تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٧-١٨].

فهذا المثل الناري، ثم قال: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ١٩]. فهذا المثل المائي.

وقد ذكرنا الكلام على أسرار هذين المثلين وبعض ما تضمناه من الحكم في كتاب المعالم وغيره.

والمقصود: أن صلاح القلب وسعادته وفلاحه موقوف على هذين الأصلين؟ قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس: ٦٩-٧٠]، فأخبر أن الإنتفاع بالقرآن والإنذار به إنما يحصل لمن هو حي

القلب كما قال في موضع آخر: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤]، فأخبر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن حياتنا إنما هي باستجابتنا لما يدعونا إليه الله والرسول من العلم والإيمان فعلم أن موت القلب وهلاكه بفقد ذلك.

وشبَّه سبحانه من لا يستجيب لرسوله بأصحاب القبور، وهذا من أحسن التشبيه، فإن أبدانهم قبور لقلوبهم، فقد ماتت قلوبهم، وقُبِرَتْ في أبدانهم، فقال الله تعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ﴾ [فاطر: ٢٢].

ولقد أحسن القائل:

وفي الجهلِ قبل الموتِ موتٌ لأهلِه ... وأجسامُهم قبلَ القبورِ قبورُ

وأرواحُهم في وحشةٍ من جسومِهم ... وليس لهم حتى النشورِ نشورُ

ولهذا جعل سبحانه وحيه الذي يلقيه إلى الأنبياء روحًا، كما قال تعالى: ﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِي ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ [غافر: ١٥]، في موضعين من كتابه، وقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ [الشورى: ٥٢]، لأن حياة الأرواح والقلوب به، وهذه الحياة الطيبة هي التي خصَّ بها سبحانه مَنْ قَبِلَ وحيه وعمل به، فقال: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧]، فخصَّهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالحياة الطيبة في

الدارين، ومثله قوله تعالى: ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾ [هود: ٣]، ومثله قوله تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [النحل: ٣٠].

ومثله قوله تعالى: ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ﴾ [الزمر: ١٠]، فبين سبحانه أنه يسعد المحسن بإحسانه في الدنيا وفي الآخرة، كما أخبر به يشقى المسيء بإساءته في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه: ١٢٤]، وقال تعالى وقد جمع بين النوعين: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، فأهل الهدى والإيمان لهم شرح الصدر واتساعه وانفساحه، وأهل الضلال لهم ضيق الصدر والحرج.

وقال تعالى: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ [الزمر: ٢٢]، فأهل الإيمان في النور وانشراح الصدر، وأهل الضلال وضيق الصدر.

والمقصود: أن حياة وإضاءَتَه مادةُ كلِّ خيرٍ فيه، وموتَه وظلمتَه مادةُ كلِّ أثر فيه.

علامات مرض القلب وصحته

كل عضو من أعضاء البدن خُلِقَ لفعل خاص به، كماله في حصول ذلك لفعل منه، ومرضه أن يتعذر عليه الفعل الذي خُلِقَ له، حتى لا يصدر منه أو يصدر مع نوع من الاضطراب.

فمرض اليد: أن يتعذر عليها البطش، ومرض العين: أن يتعذر عليها النظر والرؤية، ومرض اللسان: أن يتعذر عليه النطق، ومرض البدن: أن يتعذر عليه حركته الطبيعية أو يضعف عنها، ومرض القلب: أن يتعذر عليه ما خُلِقَ له من معرفة الله ومحبته والشوق إلى لقائه والإنابة إليه وإيثار ذلك على كل شهوة، فلو عرف العبد كل شيء ولم يعرف ربه فكأنه لم يعرف شيئًا، ولو نال كل حظ من حظوظ الدنيا ولذاتها وشهواتها ولم يظفر بمحبة الله والشوق إليه والأنس به فكأنه لم يظفر بلذة ولا نعيم ولا قرة عين، بل إذا كان القلب خاليًا عن ذلك عادت تلك الحظوظ واللذات عذابًا له ولابد، فيصير معذبا بنفس ما كان منعمًا به من جهتين: من جهة حسرة فوته وأنه حيل بينه وبينه مع شدة تعلق روحه به، والمحبوب الأعظم لم يظفر به، وكل من عرف الله أحبه وأخلص العبادة له ولابد، ولم يُؤْثِرْ عليه شيئًا من المحبوبات، فمن آثر عليه شيئًا من المحبوبات فقلبه مريض، كما أن المعدة إذا اعتادت أكل الخبيث وآثرته على سقطت عنها شهوة الطيب وتعوضت بمحبة غيره.

وقد يمرض القلب ويشتد مرضه ولا يعرف به صاحِبُه، لاشتغاله وانصرافه عن معرفة صحته وأسبابها، بل قد يموت وصاحِبُه لا يشعر بموته، وعلامة ذلك أنه لا تؤلمه جراحات القبائح، ولا يوجعه جهله بالحق وعقائده الباطلة، فإن القلب إذا كان فيه حياةٌ تألم بورود القبيح عليه، وتألم بجهله بالحق بحسب حاله، وما لجرح بميِّتٍ إيلامٌ.

وقد يشعر بمرضه ولكن يشتد عليه تحمل مرارة الدواء والصبر عليها، فهو يؤثر بقاء ألمه على مشقة الدواء، فإن دواءه في مخالفة الهوى وذلك أصعب شيء على النفس، وليس لها أنفع منه.

وتارة يوطن نفسه على الصبر، ثم ينفسخ عزمه ولا يستمر معه، لضعف علمه وبصيرته وصبره، كمن دخل في طريق مخوف مُفضٍ إلى غاية الأمن، وهو يعلم أنه إن صبر عليه انقضى الخوف وأعقبه الأمن، فهو محتاج إلى قوة صبر وقوة يقين بما يصير إليه، ومتى ضعف صبره ويقينه رجع من الطريق، ولم يتحمل مشقتها، ولا سيما إذا انعدم الرفيق، واستوحش من الوحدة، وجعل يقول: أين ذهب الناس فلي بهم أُسوة؟ وهذه حال أكثر الخلق، وهي التي أهلكتهم، فالبصير الصادق لا يستوحش من قلة الرفيق ولا من فَقْدِهِ إذا استشعر قلبُه مرافقةَ الرعيلِ الأولِ: ﴿ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٩]، فتفرد العبد في طريق طلبه دليل على صدق الطلب.

ولقد سُئل إسحاق بن راهوية عن مسألة فأجاب فقيل له: إن أخاك أحمد بن حنبل يقول فيها بمثل ذلك، فقال: ما ظننت أن أحدًا يوافقني عليها. ولم يستوحش بعد ظهور الصواب له من عدم الموافقة، فإن الحق إذا لاح وتبين لم يحتَجْ إلى شاهد يشهد به، والقلب يبصر الحق كما تبصر العين الشمس، فإذا رأى الرائي الشمس لم يتج في علمه بها واعتقاده أنها طالعة على من يشهد بذلك ويوافقه عليه.

وما أحسن ما قال أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل المعروف بـ (أبي شامة) في كتاب (الحوادث والبدع): حيث جاء الأمر بلزوم الجماعة، فالمراد به لزومُ الحق واتباعه وإن كان التمسك به قليلا، والمخالف له كثيرًا، لأن الحق هو الذي كانت عليه الجماعة الأولى من عهد النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وأصحابه، ولا نظر إلى كثرة أهل البدع بعدهم.

قال عمرو بن ميمون الأودي: صحبت معاذًا باليمن، فما فارقته حتى واريته في التراب بالشام، ثم صحبت بعده أفقهَ الناسِ عبدَ الله بنَ مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ، فسمعته يقول: عليكم بالجماعة، فإن يد الله على الجماعة، ثم سمعته يومًا من الأيام وهو يقول: سيلي عليكم وُلاة يؤخِّرون الصلاة عن مواقيتها، فصلُّوا الصلاة لميقاتها، فهي الفريضة، وصلُّوا معهم، فإنها لكم نافلة، قال: قلت: يا أصحاب محمد، ما أدري ما تحدثونا؟! قال: وما ذاك؟ قلت: تأمرني بالجماعة وتحضني عليها، ثم تقول: صلِّ الصلاة وحدك، وهي الفريضة، وصلِّ مع الجماعة، وهي نافلة؟ قلت:

لا، قال: إن جمهور الجماعة الذين فارقوا الجماعة، الجماعة ما وافق الحق وإن كنت وحدك، وفي طريق أخرى، فضرب على فخذي وقال: ويحك! إن جمهور الناس فارقوا الجماعة، وإن الجماعة ما وافق طاعة الله عَزَّ وَجَلَّ، قال نعيم بن حماد: يعني إذا فسدت الجماعة فعليك بما كانت عليه الجماعة قبل أن تفسد، وإن كنت وحدك فإنك أنت الجماعة حينئذٍ.

وقال أبو شامة عن الحسن البصري: السنة والذي لا إله إلا هو بين الغالي والجافي، فاصبروا عليها رحمكم الله، فإن أهل السنة كانوا أقل الناس فيما مضى وهم أقل الناس فيما بقي، الذين لم يذهبوا مع أهل الإتراف في إترافهم، ولا مع أهل البدع في بدعهم، وصبروا على سنتهم حتى لقوا ربهم، فكذلك إن شاء الله فكونوا.

وكان محمد بن أسلم الطوسي - الإمام المتفق على إمامته مع رتبته - أتبع الناس للسنة في زمانه، حتى قال: ما بلغني سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا عملت بها، ولقد حرصت على أن أطوف بالبيت راكبًا، فما مُكِّنت من ذلك، فسُئِل بعض أهل العلم في زمانه عن السواد الأعظم الذين جاء فيهم الحديث: إذا اختلف الناس فعليكم بالسواد الأعظم، فقال: محمد بن أسلم الطوسي هو السواد الأعظم، وصدق والله، فإن العصر إذا كان فيه عارفٌ بالسنة، داعٍ إليها، فهو الحُجة، وهو الإجماع، وهو السواد الأعظم، وهو سبيل المؤمنين، التي من فارقها واتبع سواها ولاَّهُ الله ما تولى، وأصلاه جهنم وساءت مصيرًا [مدارج السالكين].

بين العمل وبين القلب مسافة

فبين العمل وبين القلب مسافة وفي تلك المسافة قُطَّاع تمنع وصول العمل إلى القلب، فيكون الرجل كثير العمل، وما وصل منه إلى قلبه محبة ولا خوف ولا رجاء، ولا زهد في الدنيا ولا رغبة في الآخرة، ولا نور يفرق بين أولياء الله وأعدائه، وبين الحق والباطل، ولا قوة في أمره، فلو وصل أثر الأعمال إلى قلبه لاستنار وأشرق، ورأى الحق والباطل، وميز بين أولياء الله وأعدائه، وأوجب له ذلك المزيد من الأحوال.

بين القلب وبين الرب مسافة

ثم بين القلب وبين الرب مسافة، وعليها قُطَّاعٌ تمنع وصول العمل إليه، من إعجاب وإدلال، ورؤية العمل، ونسيان المنة، وعللٌ خفية لو استقصى في طلبها لرأى العجب، ومن رحمة الله تعالى سترها على أكثر العمال، إذ لو رأوها وعاينوها لوقعوا فيما هو أشد منها، من اليأس والقنوط والاستحسار، وترك العمل وخمود العزم، وفتور الهمة.

* * *

وصف القرآن الكريم إلى القلوب الحية

١ - القلب الوَجْلَ

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٢-٤].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَوْلُهُ: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ قَالَ: الْمُنَافِقُونَ لَا يَدْخُلُ قُلُوبَهُمْ شَيْءٌ مِنْ ذِكْرِ اللهَّ عِنْدَ أَدَاءِ فَرَائِضِه، وَلَا يُؤْمِنُونَ بِشَيْءٍ مِنْ آيَاتِ الله، وَلَا يَتَوَكَّلُونَ، وَلَا يُصَلُّونَ إِذَا غَابُوا، وَلَا يُؤَدُّون زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ، فَأَخْبَرَ اللهُ تَعَالَى أَنَّهُمْ لَيْسُوا بِمُؤْمِنِينَ، ثُمَّ وَصَفَ الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَ: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ فَأَدَّوْا فَرَائِضَهُ ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ يَقُولُ: تَصْدِيقًا ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ يَقُولُ: لَا يَرْجُونَ غَيْرَهُ.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ فَرِقَتْ، أَيْ: فَزِعَتْ وَخَافَتْ. وَكَذَا قَالَ السُّدِّيُّ وَغَيْرُ وَاحِدٍ.

وَهَذِهِ صِفَةُ الْمُؤْمِنِ حَقَّ الْمُؤْمِنِ، الَّذِي إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَ قَلْبُهُ، أَيْ: خَافَ مِنْهُ، فَفَعَلَ أَوَامِرَهُ، وَتَرَكَ زَوَاجِرَهُ. كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ

وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١]، وَلِهَذَا قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: سَمِعْتُ السُّدِّيَّ يَقُولُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ قَالَ: هُوَ الرَّجُلُ يُرِيدُ أَنْ يَظْلِمَ - أَوْ قَالَ: يَهُمُّ بِمَعْصِيَةٍ - فَيُقَالُ لَهُ: اتَّقِ اللهَ فَيَجِلُ قَلْبُهُ.

وَقَالَ الثَّوْرِيُّ أَيْضًا: عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُثْمَانَ بْنِ خُثَيْمٍ، عَنْ شَهْرِ بْنِ حَوْشَبٍ، عَنْ أُمِّ الدَّرْدَاءِ فِي قَوْلِهِ: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ قَالَتْ: الْوَجَلُ فِي الْقَلْبِ إِحْرَاقُ السَّعَفَةِ، أَمَا تَجِدُ لَهُ قُشَعْرِيرَةً قَالَ: بَلَى. قَالَتْ لِي: إِذَا وَجَدْتَ ذَلِكَ فَادْعُ اللهَ عِنْدَ ذَلِكَ، فَإِنَّ الدُّعَاءَ يُذْهِبُ ذَلِكَ.

٢- أصحاب القلوب المخبتة

قال تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [الحج: ٣٤-٣٥].

قال الإمام ابن القيم: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴾، ثم كشف عن معناهم، فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾.

والخبت في أصل اللغة: المكان المنخفض من الأرض، وبه فسر ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وقتادة لفظ (المخبتين) وقالا: هم المتواضعون، **وقال مجاهد**: المخبت المطمئن إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، قال: والخبت: المكان المطمئن من الأرض، **وقال الأخفش**: الخاشعون،

وقال إبراهيم النخعي: المصلون المخلصون، **وقال الكلبي**: هم الرقيقة قلوبهم، وقال عمرو بن أوس: هم الذين لا يظلمون وإذا ظلموا لم ينتصروا.

وهو أول مقامات الطمأنينة، كالسكينة واليقين والثقة بالله ونحوها، فالإخبات مقدمتها ومبدؤها، إذ لما كان الإخبات أول مقام يتخلص فيه السالك من التردد الذي هو نوع غفلة وإعراض، والسالك مسافر إلى ربه، سائر إليه على مدى أنفاسه لا ينتهي مسيره إليه ما دام نفسه يصحبه كان حصول الإخبات له كالماء العذب الذي يَرِدْهُ المسافر على ظمأ وحاجة في أول مناهله فيرويه مورده ويزيل عنه خواطر تردده في إتمام سفره أو رجوعه إلى وطنه لمشقة السفر فإذا ورد ذلك الماء زال عنه التردد وخاطر الرجوع، كلك السالك إذا ورد مورد الإخبات تخلص من التردد والرجوع ونزل أول منازل الطمأنينة بسفره وجد في السير.

وقال الإمام ابن كثير: في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾، **قال مجاهد**: المطمئنين، **وقال الضحاك وقتادة**: المتواضعين.

وقال عمرو بن إدريس: المخبتين الذين لا يظلمون ةإذا ظلموا لم ينتصروا، **وقال الثوري**: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ قال المطمئنين الراضين بقضاء الله المستسلمين له وأحسن ما يفسر بها بعده وهو قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي خافت منه قلوبهم ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ﴾ أي من المصائب ﴿وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي المؤدين حق الله فيما أوجب عليهم من أداء فرائض ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي

ينفقون ما أتاهم الله من طيب الرزق على أهليهم وأقاربهم وفقرائهم ومحاويجهم ويحسنون إلى الخلق مع محافظتهم على حدود الله، وهذه بخلاف صفات المنافقين فإنهم بالعكس من هذا كله كما تقدم تفسيره في سورة براءة [تفسير ابن كثير].

٣- أصحاب القلوب الخاشعة

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد: ١٦-١٧].

قال الإمام ابن القيم: قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦].

قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلا أربع سنين.

وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٢].

والخشوع في أصل اللغة: الإنخفاض والذل والسكون.

قال تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَـٰنِ﴾ [طه: ١٠٨]. أي: سكنت وذلت وخضعت، ومنه وصفُ الأرضِ بالخشوع وهو يُبْسُهَا وانخفاضها وعدمُ ارتفاعها بالري والنبات.

قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [فصلت: ٣٩].

والخشوع: قيام القلب بين يدي الرب بالخضوع والذل والجمعية عليه.

وقيل: الخشوع: الإنقياد للحق وهذا من موجبات الخشوع، فمن علاماته: أن العبد إذا خولف ورُدَّ عليه بالحق استقبل ذلك بالقبول والانقياد.

وقيل الخشوع: خمود نيران الشهوة، وسكون دخان الصدور، وإشراق نور التعظيم في القلب.

وقال الجنيد: الخشوع تذلل القلوب لعلام الغيوب.

وأجمع العارفون على أن الخشوع محله القلب وثمرته على الجوارح.

وقال بعض العارفين: حسن أدب الظاهر عنوان أدب الباطن.

وقال حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إياكم وخشوع النفاق، فقيل له: وما خشوع النفاق، قال: أن ترى الجسد خاشعًا والقلب ليس بخاشع.

ورأى عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رجلًا طأطأ رقبته في الصلاة فقال: يا صاحب الرقبة، ارفع رقبتك، ليس الخشوع في الرقاب إنما الخشوع في القلب.

قال الفضيل بن عياض: كان يُكره أن يرى الرجل من الخشوع أكثر مما في قلبه.

وقال حذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أول ما تفقدون من دينكم الخشوع وآخر ما تفقدون دينكم الصلاة ورُبَّ مُصلٍ لا خير فيه ويوشك أن تدخل مسجد الجماعة فلا ترى فيهم خاشعًا.

[مدارج السالكين]

٤- القلب المطمئن

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨]، أَيْ: تَطِيبُ وَتَرْكَنُ إِلَى جَانِبِ الله، وَتَسْكُنُ عِنْدَ ذِكْرِهِ، وَتَرْضَى بِهِ مَوْلًى وَنَصِيرًا; وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ أَيْ: هُوَ حَقِيقٌ بِذَلِكَ.

٥- القلب الحي

قلْب يَعْقِل مَا قَدْ سَمِعَ مِنْ الْأَحَادِيث الَّتِي ضَرَبَ اللهَّ تعالى بِهَا مَنْ عَصَاهُ مِنْ الْأُمَم.

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق: ٣٧].

* * *

القرآن يصف القلوب المريضة والميتة

١ - القلب القاسي

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ٧٤].

قال الإمام ابن كثير: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: لَمَّا ضُرِبَ الْمَقْتُولُ بِبَعْضِ الْبَقَرَةِ جَلَسَ أَحْيَا مَا كَانَ قَطُّ، فَقِيلَ لَهُ: مَنْ قَتَلَكَ؟ فَقَالَ: بَنُو أَخِي قَتَلُونِي. ثُمَّ قُبِضَ. فَقَالَ بَنُو أَخِيهِ حِينَ قُبِضَ: وَاللهِ مَا قَتَلْنَاهُ، فَكَذَّبُوا بِالْحَقِّ بَعْدَ إِذَا رَأَوْا. فَقَالَ اللهُ: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ يَعْنِي: بَنِي أَخِي الشَّيْخِ ﴿ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ فَصَارَتْ قُلُوبُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مَعَ طُولِ الْأَمَدِ قَاسِيَةً بَعِيدَةً عَنِ الْمَوْعِظَةِ بَعْدَ مَا شَاهَدُوهُ مِنَ الْآيَاتِ وَالْمُعْجِزَاتِ فَهِيَ فِي قَسْوَتِهَا كَالْحِجَارَةِ الَّتِي لَا عِلَاجَ لِلِينِهَا أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً مِنَ الْحِجَارَةِ، فَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ مَا تَتَفَجَّرُ مِنْهَا الْعُيُونُ الْجَارِيَةُ بِالْأَنْهَارِ، وَمِنْهَا مَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ جَارِيًا، وَمِنْهَا مَا يَهْبِطُ مِنْ رَأْسِ الْجَبَلِ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ، وَفِيهِ إِدْرَاكٌ لِذَلِكَ بِحَسْبِهِ، كَمَا قَالَ: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٤].

٢ - القلب المريض

قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾ [البقرة: ٨-١٠].

قَالَ سَعِيدٌ، عَنْ قَتَادَةَ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ نَعْتُ الْمُنَافِقِ عِنْدَ كَثِيرٍ: خَنِعُ الْأَخْلَاقِ، يُصَدِّقُ بِلِسَانِهِ وَيُنْكِرُ بِقَلْبِهِ وَيُخَالِفُ بِعَمَلِهِ، يُصْبِحُ عَلَى حَالٍ وَيُمْسِي عَلَى غَيْرِهِ، وَيُمْسِي عَلَى حَالٍ وَيُصْبِحُ عَلَى غَيْرِهِ، وَيَتَكَفَّأُ تَكْفُّؤَ السَّفِينَةِ، كُلَّمَا هَبَّتْ رِيحٌ هَبَّ مَعَهَا.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَعَنْ مُرَّةَ الْهَمْدَانِيِّ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَعَنْ أُنَاسٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ قَالَ: شَكٌّ، ﴿ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾ قَالَ: شَكًّا.

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي مُحَمَّدٍ، عَنْ عِكْرِمَةَ، أَوْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ قَالَ: شَكٌّ.

وَكَذَلِكَ قَالَ مُجَاهِدٌ، وَعِكْرِمَةُ، وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ، وَأَبُو الْعَالِيَةِ، وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ، وَقَتَادَةُ.

وَعَنْ عِكْرِمَةَ، وَطَاوُسٍ: ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ يَعْنِي: الرِّيَاءَ.

وَقَالَ الضَّحَّاكُ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ قَالَ: نِفَاقٌ ﴿ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ قَالَ: نِفَاقًا، وَهَذَا كَالْأَوَّلِ.

وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ قَالَ: هَذَا مَرَضٌ فِي الدِّينِ، وَلَيْسَ مَرَضًا فِي الْأَجْسَادِ، وَهُمُ الْمُنَافِقُونَ. وَالْمَرَضُ: الشَّكُّ الَّذِي دَخَلَهُمْ فِي الْإِسْلَامِ ﴿ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ قَالَ: زَادَهُمْ رِجْسًا، وَقَرَأَ: ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ [التوبة:١٢٤-١٢٥] قَالَ: شَرًّا إِلَى شَرِّهِمْ وَضَلَالَةً إِلَى ضَلَالَتِهِمْ.

وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ رَحِمَهُ اللَّهُ حَسَنٌ، وَهُوَ الْجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، وَكَذَلِكَ قَالَهُ الْأَوَّلُونَ، وَهُوَ نَظِيرُ قَوْلِهِ تَعَالَى أَيْضًا: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾ [محمد: ١٧] [تفسير ابن كثير].

٣- القلب الأعمى

قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦].

قال الإمام ابن كثير: ﴿ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ أي: فيعتبرون بها، ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ أي: ليس العمى عمى البصيرة إن كانت القوة الباصرة سليمة فإنها لا تنفذ إلى العبر ولا تدري ما الخبر.

وكما قال تعالى: ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴾.

[الإسراء: ٧٢]

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن زيد: ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ ﴾ أي: في الحياة الدنيا ﴿ أَعۡمَىٰ ﴾ أي: عن حجة الله وآياته.

٤ - القلب المغلوف

قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [البقرة: ٨٨].

قال الإمام ابن كثير: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ : ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢ ﴾ أَيْ: فِي أَكِنَّةٍ.

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢ ﴾ أَيْ: لَا تَفْقَهُ.

وَقَالَ الْعَوْفِيُّ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢ ﴾ قَالَ: هِيَ الْقُلُوبُ الْمَطْبُوعُ عَلَيْهَا.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢ ﴾ عَلَيْهَا غِشَاوَةٌ.

وَقَالَ عِكْرِمَةُ: عَلَيْهَا طَابَعٌ. وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: أَيْ لَا تَفْقَهُ. وَقَالَ السُّدِّيُّ: يَقُولُونَ: عَلَيْهَا غِلَافٌ، وَهُوَ الْغِطَاءُ.

وَقَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ، عَنْ مَعْمَرٍ، عَنْ قَتَادَةَ: ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢ ﴾ هُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ ﴾ [فصلت:٥].

وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، فِي قَوْلِهِ: ﴿غُلْفٌ﴾ قَالَ: يَقُولُ: قَلْبِي فِي غِلَافٍ فَلَا يَخْلُصُ إِلَيْهِ مَا تَقُولُ، قَرَأَ ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾، وَهَذَا هُوَ الذِي رَجَّحَهُ ابْنُ جَرِيرٍ، وَاسْتُشْهِدَ مِمَّا رُوِيَ مِنْ حَدِيثِ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ الْجَمَلِيِّ، عَنْ أَبِي الْبَخْتَرِيِّ، عَنْ حُذَيْفَةَ، قَالَ: الْقُلُوبُ أَرْبَعَةٌ. فَذَكَرَ مِنْهَا: وَقَلْبٌ أَغْلَفُ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِ، وَذَاكَ قَلْبُ الْكَافِرِ.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْعَرْزَمِيُّ، أَنْبَأَنَا أَبِي، عَنْ جَدِّي، عَنْ قَتَادَةَ، عَنِ الْحَسَنِ فِي قَوْلِهِ: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ قَالَ: لَمْ تُخْتَنْ.

هَذَا الْقَوْلُ يَرْجِعُ مَعْنَاهُ إِلَى مَا تَقَدَّمَ مِنْ عَدَمِ طَهَارَةِ قُلُوبِهِمْ، وَأَنَّهَا بَعِيدَةٌ مِنَ الْخَيْرِ.

٥- القلب المقفول

قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

قال الإمام ابن كثير: يقول الله تعالى آمرًا بتدبر القرآن وتفهمه وناهيًا عن الإعراض عنه فقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ أي: بل على قلوب أقفالها فهي مطبقة لا يخلص إليها شيء من معانيه.

٦- القلب الآثم

وهو الذي يكتم شهادة الحق.

﴿وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

٧- القلب اللاهي

غافل عن القرآن الكريم، مشغول بأباطيل الدنيا وشهواتها، لا يعقل ما فيه.

﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء: ٣].

٨- القلب المتكبر

مستكبر عن توحيد الله تعالى وطاعته، جبار بكثرة ظلمه وعدوانه.

﴿قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥].

٩- القلب الغليظ

وهو الذي نُزعت منه الرأفة والرحمة.

﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

١٠- القلب المختوم

لم يسمع الهدى ولم يعقله.

﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الجاثية: ٢٣].

١١- القلب الغافل

وهو الذي صد عن ذكر الله، وآثَرَ هواه على طاعة مولاه.

﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ [الكهف: ٢٨].

❊ ❊ ❊

الفصل الثاني

أسباب صلاح القلوب

١- تجديد الإيمان

قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ الْإِيمَانَ لَيَخْلَقُ فِي جَوْفِ أَحَدِكُمْ كَمَا يَخْلَقُ الثَّوْبُ، فَسَلُوا اللَّهَ - تَعَالَى - أَنْ يُجَدِّدَ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِكُمْ**» [رواه الطبراني وصححه الألباني].

«**إِنَّ الْإِيمَانَ لَيَخْلَقُ**» أي: يكاد أن يبلى، «**فِي جَوْفِ أَحَدِكُمْ**» أيها المؤمنون، «**كَمَا يَخْلَقُ الثَّوْبُ**».

الإستعارة شبه الإيمان بالشيء الذي لا يستمر على هيئته والعبد يتكلم بكلمة الإيمان ثم يدنسها بسوء أفعاله فإذا عاد واعتذر فقد جدد ما أخلق وطهر ما دنس فاسألوا الله أن يجدد الإيمان في قلوبكم، حتى لا يكون لقلوبكم وجهة لغيره ولا رغبة لسواه ولهذا قال معاذ لبعض أصحابه اجلس بنا نؤمن أي نذكره ذكرًا يملأ قلوبنا وكان الصديق يقول كان كذا لا إله إلا الله، فلا يتكلم بكلمة إلا ختمها بها.

[فيض القدير للإمام المناوي]

ما هو الإيمان؟

الإيمان شرعًا: قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح.

أما قول اللسان: كالشهادتين.

وعمل اللسان: كالذكر والتسبيح وأمر بمعروف ونهي عن منكر وغير ذلك.

أما قول القلب: فهو اعترافه وتصديقه.

أما عمل القلب: كالحب والخوف والرجاء والإخلاص والتوكل وغيره.

أما عمل الجوارح: كالركوع والسجود والقيام وغيرها.

قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، أعلاها قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، والْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ**» [البخاري، ومسلم].

فلا إله إلا الله: قول اللسان.

وإماطة الأذى عن الطريق: عمل الجوارح.

والحياء: عمل القلب.

فتبين أن الإيمان يشمل هذا كله.

وأن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

قال الإمام البخاري: أدركت ألف شيخ من علماء الأمصار يقولون: الإيمان قول وعمل يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية ويتفاضل أهله فيه.

قال الإمام الحسن البصري: الإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل.

الأدلة على أن الإيمان يزيد:

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الفتح:٤]، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر:٣١]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ

سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [التوبة:١٢٤].

الأدلة على أن الإيمان ينقص:

قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للنساء وهو يعظهن: «مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الْحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ». قالوا يا رسول الله: كيف نقصان دينها؟ قال: «أَلَيْسَ إِذَا حَاضَتِ الْمَرْأَةُ لَمْ تُصَلِّ وَلَمْ تَصُمْ؟».

أسباب زيادة الإيمان

١ – معرفة الله تعالى بأسمائه وصفاته فإنه كلما ازداد الإنسان معرفة بالله وأسمائه ازداد إيمانه.

٢– النظر في آيات الله الكونية والشرعية.

قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ [الغاشية:١٧–٢٠].

وكلما ازداد الإنسان علمًا بما أودع الله تعالى في الكون من عجائب المخلوقات ومن الحكم البالغات ازداد إيمانًا بالله عَزَّوَجَلَّ وكذلك آيات الله الشرعية بما جاءت بها الرسل وفيها ما يبهر العقول من الحكم البالغة والأسرار العظيمة وأنها مبنية على العدل والرحمة.

٣-كثرة الطاعات وإحسانها.

٤-ترك المعاصي والذنوب تقربًا لله عَزَّوَجَلَّ.

أسباب نقص الإيمان

١- الإعراض عن معرفة الله تعالى وأسمائه وصفاته.

٢- الإعراض عن النظر في الآيات الكونية والشرعية فإن هذا يوجب الغفلة وقسوة القلب.

٣- قلة العمل الصالح.

٤- فعل المعاصي قال تعالى: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين:١٤].

من عقيدة المسلم أن لا يُكفَّر المسلم بمطلق المعاصي والكبائر ما لم يستحل المعصية، وان مرتكب الكبيرة ناقص الإيمان فاسق بكبيرته.

[شرح العقيدة الوسطية للشيخ ابن عثيمين]

❊ ❊ ❊

٢- كمال التوحيد لله تعالى

فإن أعظم عمل يصلح قلب هو توحيد الله رب العالمين لأنه أعظم عمل يحبه الله تعالى ولذلك كان الرسل والأنبياء أصلح الناس قلوبًا لأنهم هم أعظم الخلق توحيدًا لله تعالى، ومن بعدهم أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أعظم الناس توحيدًا كما قال بكر المزني: ما سبقهم أبوكر بكثرة صيام، ولا صلاة ولكن بشيء وقر في قلبه.

فضائل التوحيد

١ـ سبب خلق الله تعالى للإنس والجن:

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦]، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «إلا ليقروا بالعبودية طوعًا وكَرهًا»[١].

٢ـ سبب إرسال الرسل وإنزال الكتب:

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل:٣٦]، وقال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لنبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ [الزمر:٢ - ٣].

٣ـ حق الله على العباد:

قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «حَقَّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ، وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا»[٢].

(١) «جامع البيان في تأويل آي القرآن»، للإمام محمد بن جرير الطبري.
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري [٢٨٥٦]، ومسلم [٤٨] [٣٠].

٤ - أفضل شيئ تتقرب به إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ

قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «إنَّ الله قال: مَنْ عادَى لي وليًّا فقدْ آذَنْتُهُ بالحَرْبِ، وما تقرَّبَ إليَّ عَبْدي بِشيءٍ أحبَّ إليَّ مِمَّا افْترضتُ عليْه ... الحديث»(١)، وإنه لمن أعظم الفروض.

٥ - سبب لِنَيْلِ الشفاعة:

قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ»(٢).

٦ - أثقل شيئ في ميزان العبد يوم القيامة:

قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «إِنَّ اللهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الخَلَائِقِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًّا كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ البَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الحَافِظُونَ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَفَلَكَ عُذْرٌ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: بَلَى إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، فَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ اليَوْمَ، فَتَخْرُجُ بِطَاقَةٌ فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: احْضُرْ وَزْنَكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا هَذِهِ البِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ، فَقَالَ: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ ، قَالَ: «فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كَفَّةٍ وَالبِطَاقَةُ فِي كَفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ وَثَقُلَتِ البِطَاقَةُ، فَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللهِ شَيْءٌ»(٣).

٧ - أمر الله تعالى رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ تعليمه ومن بعده أمته:

قال تعالى: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد:١٩].

(١) صحيح: أخرجه البخاري [٦٥٠٢].
(٢) صحيح: أخرجه البخاري [٩٩]
(٣) صحيح: أخرجه الترمذي [٢٦٣٩]، واللفظ له، وابن ماجة [٤٣٠٠].

٨ ـ دخول الجنة:

قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَأَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ وَالنَّارَ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنْ عَمَلٍ»(١).

٩ ـ مغفرة الذنوب:

قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «قال الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ، وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً»(٢).

١٠ ـ عدم الخلود في النار:

قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «يُدْخِلُ اللهُ أَهْلَ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، وَيُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ بِرَحْمَتِهِ، وَيُدْخِلُ أَهْلَ النَّارِ النَّارَ، ثُمَّ يَقُولُ: انْظُرُوا مَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ، فَيُخْرَجُونَ مِنْهَا حُمَمًا قَدِ امْتُحِشُوا، وَيُلْقَوْنَ فِي نَهَرِ الْحَيَاةِ أَوِ الْحَيَا فَيَنْبُتُونَ فِيهِ كَمَا تَنْبُتُ الْحِبَّةُ إِلَى جَانِبِ السَّيْلِ أَلَمْ تَرَوْهَا تَخْرُجُ صَفْرَاءَ مُلْتَوِيَةً»(٣).

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري [٣٤٣٥]، ومسلم [٤٦] [٢٨].

(٢) صحيح: أخرجه الترمذي [٢٦٣٩]، واللفظ له، وابن ماجة [٤٣٠٠].

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري [٦٥٦٠]، ومسلم [٣٠٤] [١٨٤]، واللفظ له.

كيف توحد الله تعالى؟

أولًا- توحيد الربوبية:

وهو إفراد الله تعالى بالخلق، والرزق، والتدبير، والإحياء، والإماتة، والنفع، والضر، والملك التام، والأمر، والنهي، والسيادة.

والخلاصة: أن توحيد الربوبية هو: توحيد الله تعالى بأفعاله؛ بأنه هو الذي يملك الإحياء، والإماتة، والخلق وحده، وهو الذي يملك الرزق، والتدبير وحده، وهو الذي له الأمر، والنهي، والسيادة وحده، فلا يشاركه أحد في هذه الأفعال، لا ملك مقرب، ولا رسول مرسل، ولاولي من أولياء الله؛ لأنهم كلهم مخلوقون مفتقرون محتاجون إلى الله تعالى، لا يملكون لأنفسهم ضرًا ولا نفعًا، قال الله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام:١٧]، وقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢]، أي: رب العالَمِيْن العلوي والسفلي بجميع النعم الظاهرة والباطنة، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الروم:٤٠]، وقال تعالى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [لقمان:١١].

ما هو ضد توحيد الربوبية؟

ضده الشرك في الربوبية؛ كإعتقاد بعض الناس أن مع الله عَزَّوَجَلَّ متصرف فى هذا الكون من إيجاد، أو إعدام، أو إحياء، أو إماتة، أو جلب نفع، أو دفع شر، أو علم الغيب، أو نحو ذلك؛ فكل ذلك شرك فى ربوبية الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

مظاهر شرك الربوبية في الأمة الإسلامية(١):

إعتقاد كثير من عوام المسلمين أن هناك في الكون أقطابًا وأبدالًا من الأولياء والصالحين لهم قدرة من التصرف في حياة الناس، فيقولون أن الولي الفلاني قطب شمالي، والولي الفلاني قطب جنوبي، والولي الفلاني قطب شرقي، والولي الفلاني قطب غربي، وأن هؤلاء الأقطاب من الأولياء لهم التصرف في الكون من نفع، أو ضر، وإعطاء، ومنع، وغير ذلك، وتعلقت قلوب كثير من الناس بالأولياء في الاستغاثة، وعند الشدائد، وجلب النفع، ودفع الضر.

إعتقاد كثير من الناس أن لأرواح الأولياء الصالحين تصرفًا بعد موتهم، ورسخ هذا الاعتقاد الباطل عند كثير من المسلمين، حتى أصبحت الأضرحة والقبور ملاذًا للخائفين، ومستشفى للمرض، وشاع عند عوام الناس: «إذا تعسرت الأمور؛ عليكم بأصحاب القبور»، يا عبد الله: إذا كان أصحاب القبور يجلبون النفع، ويدفعون الضر، ويعطون الولد، والنجاح، وغير ذلك، فماذا أبقيت لله تعالى الذي يملك كل هذا وحده، ولا يملكه غيره؟!!

---

(١) انظر: «عقيدة المؤمن»، للشيخ أبو بكر جابر الجزائري.

الرهبة، والخوف من الجن، والإستغاثة بهم، وتقديم القرابين لهم؛ كالتي تذبح عند انتشار الأوبئة والأمراض المعدية، والذبح للجن عند بناء البيت، كل هذا موجود بين جُهَّال المسلمين، وهو شرك ظاهر في ربوبية الله تعالى، وهذا مما ألقاه الشيطان في قلوب أوليائه من الإنس.

تقديس المشايخ من رجال التصوف، وأصحاب الطرق، والمشعوذين، وطاعتهم في غير طاعة الله تعالى وطاعة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويطيعونهم في كل ما يشرعون من البدع، وما يسنون من السنن الباطلة، حتى قالوا: «كن مع الشيخ كالميت بين يدي المغسل»؛ فهذا الخضوع، والذل، والطاعة المطلقة، والتسليم التام، لا يكون إلا لله تعالى.

الخضوع للحكام من غير المسلمين، والخضوع لهم وطاعتهم بدون إكراه منهم لهم، حيث حكموهم بالباطل، وساسوهم بقوانين الكفر والكافرين؛ فأحلوا لهم الحرام، وحرموا عليهم الحلال، فأطاعوهم في كل ذلك، ولم ينكروا عليهم، فالاتصاف بهذا الذي ذكرنا، والقيام عليه، والرضا به، والاقتناع بصحته؛ شرك فى الربوبية، ويشهد لذلك حديث عدي بن حاتم الطائي الذى كان قد تنصر فى الجاهلية ثم أسلم وسمع الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقرأ قوله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ﴾ [التوبة:٣١]؛ فأنكر عدي أن يكونوا عبدوهم، فقال له الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أليسوا يحلون لكم الحرام**

فتحلونه؟ ويحرمون عليكم الحلال فتحرمونه؟»، فقال: بلى، قال النبي ﷺ: «فتلك عبادتهم»(١).

ثانيًا ـ توحيد الألوهية:

هو إفراد الله عَزَّوَجَلَّ بجميع أنواع العبادة الظاهرة، والباطنة، قولًا، وعملًا، ونفي العبادة عن كل ما سوى الله كائنًا من كان، كما قال تعالى: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي﴾ [طه:١٤]، وقال تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ [النساء:٣٦].

والخلاصة: أن توحيد الألوهية هو: توحيد الله وحده لا شريك له بالعبادة قولًا، وعملًا، باطنًا، وظاهرًا.

والإله: هو المعبود المطاع، الذي تألهه القلوب، وتشتاق إليه، وتحبه.

تعريف العبادة؟

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «العبادة: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأقوال، والأعمال، الباطنة، والظاهرة، فالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والجهاد للكفار والمنافقين، والإحسان إلى الجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم، والدعاء، والذكر، والقراءة، وأمثال ذلك من العبادة، وكذلك حب الله ورسوله، وخشية

---

(١) حسن بمجموع طرقه وشواهده: رواه الترمذي [٣٠٩٥]، بغير هذا اللفظ.

الله، والإنابة إليه، وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضا بقضائه، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف لعذابه، وأمثال ذلك هي من العبادة لله»(١).

وبناء على ذلك؛ فإنه لا يجوز صرف أي عبادة من العبادات - سواء القولية أو الفعلية، الظاهرة أو الباطنة - إلا لله وحده لا شريك له، ومن صرف أي عبادة لغير الله تعالى؛ فقد وقع في الشرك في عبادة الله تعالى.

ما هو ضد توحيد الألوهية؟

ضده الشرك، وهو نوعان: شرك أكبر؛ وهو ينافي توحيد الألوهية بالكلية، وشرك أصغر؛ وهو ينافي كماله.

أ- الشرك الأكبر:

هو اتخاذ العبد من دون الله نِدًّا يُسوِّيه برب العالمين، كالأولياء وغيرهم؛ يحبه كحب الله، ويخشاه كخشية الله، ويرجوه، ويتوكل عليه، ويرغب فيه، ويطيعه في معصية الله، و يتبعه على غير مرضاة الله، وغير ذلك، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء:٤٨]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء:١١٦].

(١) «مجموع الفتاوى»، لشيخ الإسلام ابن تيمية، (١٠/ ١٤٩ - ١٥٠).

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ [المائدة:٧٢].

بعض أمثلة الشرك الأكبر في الألوهية

١ ـ دعاء غير الله من الأموات:

وهذا من الشرك الأكبر؛ لأنه صرف للعبادة لغير الله، ؛ وهذا شرك المشركين الأوائل، قال الله تعالى عنهم: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر:٦٥]، وقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الدعاء هو العبادة**»(١)، وقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من مات وهو يدعو لله نِدًّا دخل النار**»(٢)، وقال تعالى عن هؤلاء الأموات وغيرهم: ﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ﴾ [فاطر:١٤].

فيا أيها المسلم: إن هؤلاء الأموات لا يملكون لأنفسهم ضرًا ولا نفعًا، فهل ينفعونك أو يضرونك، وقد قال الله تعالى لنبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الأعراف:١٨٨]، وقال أيضًا: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا

(١) صحيح: أخرجه أبو داود [١٤٧٩]، والترمذي [٢٩٦٩].
(٢) صحيح: أخرجه البخاري [٤٤٩٧].

﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [يونس:٤٩]، فما بالك بالذين هم دون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو القائل: «إِذَا سَأَلْتَ، فَاسْأَلِ اللهَ»(١).

٢ ـ الذبح لغير الله:

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ»(٢).

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢ - ١٦٣]، **والنسك**: هو الذبح.

وقال الله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ [الكوثر:٢]، والنحر: هو الذبح؛ فكما أنك لا تصلي إلا لله تعالى؛ فلا تذبح إلا لله تعالى.

وأعلم أنه لا يجوز أن تذبح في مكان يذبح فيه لغير الله؛ فعن ثابت بن الضحاك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: نذر رجل على عهد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن ينحر إبلًا ببوانة، فأتى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: إني نذرت أن أنحر إبلًا ببوانة، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هَلْ كَانَ فِيهَا وَثَنٌ مِنْ أَوْثَانِ الْجَاهِلِيَّةِ يَعْبُدُ؟» قالوا: لا، قال: «هَلْ كَانَ فِيهَا عِيدٌ مِنْ أَعْيَادِهِمْ؟»، قالوا: لا، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَوْفِ بِنَذْرِكَ، فَإِنَّهُ لَا وَفَاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ، وَلَا فِيمَا لَا يَمْلِكُ ابْنُ آدَمَ»(٣).

(١) صحيح: أخرجه الترمذي [٢٥١٦]، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وأحمد في «مسنده» [٢٧٦٣].
(٢) صحيح: أخرجه مسلم [٤٤]، و[٤٥] [١٩٧٨].
(٣) صحيح: أخرجه أبو داود [٣٣١٣]، واللفظ له، وابن ماجة [٢١٣١].

٣ - النذر لغير الله:

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن الأبرار: ﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا ﴾ [الإنسان:٧]، وقال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوۡ نَذَرۡتُم مِّن نَّذۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُهُۥۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٍ ﴾ [البقرة:٢٧٠]، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ ﴾ [الحج:٢٩].

فدلت هذه الآيات على أن النذر عبادة لله تعالى، وطالما أنه عبادة لله تعالى؛ فإنه لا يجوز أن يصرف لغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقد قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ الله فَلْيُطِعْهُ وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ الله فَلَا يَعْصِهْ»[١].

٤ - الإستغاثة بغير الله:

كقول البعض: «أغثني يا بدوي» أو: «أغثني يا دسوقي»، ونحو هذا، وتكون الاستغاثة بهؤلاء فيما لا يقدر عليه إلا الله تعالى، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ ﴾ [الأنفال:٩].

وقال تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِ ﴾ [النمل:٦٢].

واعلم - أخي المسلم - أنه يجوز لك الإستغاثة بالأحياء العالِمين القَادرين على الإغاثة، كالإستعانة بهم فيما يقدرون عليه، قال الله تعالى في قصة نبيه موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿ فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ ﴾ [القصص:١٥][٢].

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري [٦٦٩٦]، و[٦٧٠٠].

(٢) انظر: «شرح الثلاثة أصول»، للشيخ محمد بن صالح العثيمين.

٥ ـ الإستعاذة بغير الله:

قال الله تعالى على لسان الجن: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن:٦].

أي: كنا نرى لنا فضلًا على الإنس؛ لأنهم كانوا يعوذون بنا إذا نزلوا واديًا أو مكانًا موحشًا من البراري وغيرها، كما كان عادة العرب في جاهليتها؛ يعوذون بعظيم ذلك المكان من الجان، أن يصيبهم بشيئ يسوؤهم، فلما رأت الجنُّ الإنسَ يعوذون بهم من خوفهم زادوهم رهقًا[١].

وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا، ثُمَّ قَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ الله التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ»[٢].

يا من ألوذ به فيما أؤمله ... ومن أعوذ به مما أحاذره
لا يجبر الناس عظمًا أنت كاسره ... ولا يهيضون عظمًا أنت جابره

٦ ـ الاستعانة بغير الله:

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سورة الفاتحة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥].

وقال رسول الله ﷺ لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِالله»[٣].

(١) «تفسير القرآن العظيم»، للحافظ ابن كثير، (٨/ ٢٣٩)، ط دار طيبة.
(٢) صحيح: أخرجه مسلم [٥٤][٢٧٠٨].
(٣) صحيح: وقد سبق تخريجه ص[٥٥].

٧ ـ الطواف بالقبور:

لأن الطواف عبادة، ولا تكون العبادة إلا لله تعالى، والطواف يكون حول الكعبة؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال في هذا الشأن آمرًا الحجيج: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [الحج:٢٩]، فلا يجوز للمسلم أن يطوف حول القبور ولا غيرها إلا الكعبة؛ لأن الله تعالى نصَّ عليها وخصَّها بالطواف.

ب ـ الشرك الأصغر:

وهو لا يخرج صاحبه من الملة، ولا يجوز الإصرار عليه، ويعد من كبائر الذنوب، ومن أمثلته ما يلي:

١ ـ يسير الرياء الداخل في تحسين العمل:

قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ»، قَالُوا: وَمَا الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «الرِّيَاءُ، يَقُولُ الله عَزَّوَجَلَّ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: إِذَا جُزِيَ النَّاسُ بِأَعْمَالِهِمْ: اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاءُونَ فِي الدُّنْيَا فَانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً!»[1].

٢ ـ الحلف بغير الله:

قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ الله فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ»[2]، وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ وَلَا بِأُمَّهَاتِكُمْ وَلَا بِالْأَنْدَادِ، وَلَا تَحْلِفُوا إِلَّا بِالله، وَلَا

---

(١) حسن بطرقه: أخرجه أحمد في «المسند» [٢٣٦٣٠]، و[٢٣٦٣٦].

(٢) صحيح لغيره: أخرجه الترمذي [١٥٣٥]، وقال: «هذا حديث حسن».

تَحْلِفُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ صَادِقُونَ»[١]، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ حَلَفَ بِالْأَمَانَةِ فَلَيْسَ مِنَّا»[٢].

٣- قول: «ما شاء الله وشئت»:

فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رجلًا قال للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ما شاء الله وشئت، فقال له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَجَعَلْتَنِي وَاللهِ عَدْلًا بَلْ مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ»[٣].

ومثله قول بعض الناس: «لولا الله وأنت»، و«توكلت على الله وعليك»، وغير ذلك، والصحيح أن نقول: «ما شاء الله، ثم شئت»، و«ما لي إلا الله، ثم أنت»، و«لولا الله، ثم أنت»؛ لقول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تقولوا: ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان»[٤]؛ لأن «ثم» تفيد التبعية والاسترخاء.

٤- التبرك بشجرة، أو حجر، أو قبر:

فإن من تبرك بالشجر أو الحجر أو القبر معتقدًا في هذه الأشياء أنها سبب لجلب نفع أو دفع ضر؛ كان هذا شركًا أصغرًا، وإن اعتقد أنها تنفع أو تضر من دون الله؛ فهذا شرك أكبر يخرج من الملة؛ لأن الذي يملك النفع والضر هو الله وحده لا شريك له، فلا يجوز التبرك بشيء مع اعتقاد نفعه أو ضره؛ فالحجر الأسود – الذي هو أفضل حجر على وجه الأرض، وقد نزل من الجنة، وكان أشد بياضًا من اللبن، ولكن سودته

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود [٣٢٤٨]، واللفظ له، والنسائي [٣٧٦٩].
(٢) صحيح: أخرجه أبو داود [٣٢٥٣].
(٣) صحيح لغيره: أخرجه أحمد في «المسند» [١٨٣٩]، واللفظ له، و[١٩٦٤]، و[٢٥٦١]، و[٣٢٤٧]، وأخرجه البخاري في (الأدب المفرد) [٧٨٣].
(٤) صحيح: أخرجه أبو داود [٤٩٨٠].

خطايا بني آدم؛ كما قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ[1] - يأتيه عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ في حجه ليستلمه، وعندما استلمه قال: «إِنِّي أَعْلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، وَلَوْلَا أَنِّي رَأَيْتُ رَسُولَ الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يُقَبِّلُكَ مَا قَبَّلْتُكَ»[2].

وعن أبي واقد الليثي رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ أن رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لما خرج إلى حنين مر بشجرة للمشركين، يقال لها: ذات أنواط؛ يعلقون عليها أسلحتهم، فقالوا: يا رسول الله، أجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «سُبْحَانَ الله هَذَا كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف:١٣٨]، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَرْكَبُنَّ سُنَّةَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»[3].

وقد جاء عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا أنه قال: «صَارَتْ الْأَوْثَانُ الَّتِي كَانَتْ فِي قَوْمِ نُوحٍ فِي الْعَرَبِ بَعْدُ أَمَّا وَدٌّ فَكَانَتْ لِكَلْبٍ بِدَوْمَةِ الْجَنْدَلِ وَأَمَّا سُوَاعٌ فَكَانَتْ لِهُذَيْلٍ وَأَمَّا يَغُوثُ فَكَانَتْ لِمُرَادٍ ثُمَّ لِبَنِي غُطَيْفٍ بِالْجَوْفِ عِنْدَ سَبَإٍ وَأَمَّا يَعُوقُ فَكَانَتْ لِهَمْدَانَ وَأَمَّا نَسْرٌ فَكَانَتْ لِحِمْيَرَ لِآلِ ذِي الْكَلَاعِ أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ: أَنْ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمْ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ فَفَعَلُوا فَلَمْ تُعْبَدْ حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَتَنَسَّخَ الْعِلْمُ عُبِدَتْ»[4].

---

(١) فعن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا أن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال: «**نزل الحجر الأسود من الجنة، وهو أشد بياضًا من اللبن؛ فسودته خطايا بني آدم**»، وهو حديث صحيح؛ أخرجه الترمذي [٨٧٧]، وقال: «حديث حسن صحيح».

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري [١٥٩٧]، ومسلم [٢٤٨][١٢٧٠].

(٣) صحيح: أخرجه الترمذي [٢١٨٠]، وقال: «حديث حسن صحيح».

(٤) صحيح موقوفًا: أخرجه البخاري [٤٩٢٠]، وهو في حكم المرفوع إلى النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ؛ إذ هو من قبيل ما لا مجال للرأي فيه.

٥ ـ تعليق التميمة:

ومثله إرتداء ما يسمى «الحظاظة»، ومثله أيضًا: تعليق حذاء على باب المحل أو البيت، أو إرتداء الخرزة الزرقاء، أو وضع عين في خيط وتعليقها في السيارة وغير ذلك، وهذه الأشياء إن اعتقد صاحبها أنها سبب في جلب نفع أو دفع ضر؛ فهذا شرك أصغر، وإن إعتقد أنها تضر وتنفع من دون الله فهذا شرك أكبر يخرج من ملة الإسلام، وسميت التميمة بهذا الأسم؛ لأن من يرتديها يعتقد أنه يتم بها دفع العين، ولا يجوز تعليق هذه التمائم، فعن أبي بشير الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه كان مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، في بعض أسفاره، والناس في مبيتهم؛ فأرسل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رسولًا أن: «**لَا يَبْقَيَنَّ فِي رَقَبَةِ بَعِيرٍ قِلَادَةٌ مِنْ وَتَرٍ، وَلَا قِلَادَةٌ، إِلَّا قُطِعَتْ**»(١).

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً، فَلَا أَتَمَّ اللهُ لَهُ، وَمَنْ تَعَلَّقَ وَدَعَةً، فَلَا وَدَعَ اللهُ لَهُ**»(٢)، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أيضًا: «**مَنْ عَلَّقَ تَمِيمَةً فَقَدْ أَشْرَكَ**»(٣).

وعن عزرة قال: دخل حذيفة على مريض فرأى في عضده سَيْرًا؛ فقطعه، أو انتزعه، ثم قال: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف:١٠٦](٤).

وإن قال قائل: أنا لا ألبس الحظاظة من أجل الحظ، ولكن ألبسها للزينة؛ فنقول له: هذا لا يجوز أيضًا، وذلك لما فيه التشبه بالنساء، وقد قال

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري [٣٠٠٥]، واللفظ له، ومسلم [١٠٥] [٢١١٥].
(٢) حسن لغيره: أخرجه أحمد في «المسند» [١٧٤٠٤].
(٣) صحيح: أخرجه أحمد في «المسند» [١٧٤٢٢].
(٤) إسناده حسن: أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير» [١٢٠٤٠].

عبد الله بن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «**لَعَنَ رَسُولُ اللهِ** صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ **الْمُتَشَبِّهِينَ مِنَ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ، وَالْمُتَشَبِّهَاتِ مِنَ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ**»[1]، وقال أبو هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**لَعَنَ رسول الله** صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ **الرَّجُلَ يَلْبَسُ لُبْسَةَ الْمَرْأَةِ، وَالْمَرْأَةَ تَلْبَسُ لُبْسَةَ الرَّجُلِ**»[2]، ولأنه من عادات اليهود والنصارى، وقد قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ**»[3].

***

(١) صحيح: أخرجه البخاري [٥٨٨٥].
(٢) صحيح: أخرجه أبو داود [٤٠٩٨].
(٣) صحيح: أخرجه أبو داود [٤٠٣١].

٣- كثرة الدعاء

فإن من أعظم أسباب صلاح القلوب هو الدعاء لأن الذي بيده صلاحه هو الله، ولكن لابد من بذل الأسباب، فقد قال رسول الله ﷺ: «**مثل القلب مثل ريشه ملقاة بأرض فلاة**»، وفي رواية: «**للقلب أشد تقلبًا من القدر إذا استجمعت غليانًا**» [صحيح الجامع]، فكان أكثر دعاء النبي ﷺ: «**اللّٰهُمَّ يامقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**»، وفي رواية: «**اللهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ**» [صحيح مسلم]، وكان إذا ذهب إلى المسجد يقول: «**اللّٰهُمَّ أجعل في قلبي نورًا**»، وإذا صلى الفجر قال: «**اللّٰهُمَّ أسألك علمًا نافعًا، وقلبًا خاشعًا، وعملاً متقبلاً، ورزقًا طيبًا**»، وكان ﷺ يستعيذ ويقول: «**اللّٰهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ سَمْعِي، وَمِنْ شَرِّ بَصَرِي، وَمِنْ شَرِّ لِسَانِي، وَمِنْ شَرِّ قَلْبِي**» [صحيح الجامع]، وكان يقول: «**اللّٰهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ**» [صحيح الجامع]، وكان رسول الله ﷺ إذا أصبح، وإذا أمسى يقول: «**يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ، أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، وَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرَفَةَ عَيْنٍ**»، وتأمل دعاء الراسخين في العلم قال تعالى: ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٧ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران:٧-٨]، فالراسخين يفتقرون إلى ربهم بأن لا يزيغ قلوبهم بعد إذ هداهم عند الموت لأن الآية التي تليها عن الآخرة: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ [آل عمران:٩]، وهذا معنى لا حول، ولا قوة إلا بالله أي لا أتحول من

معصية الله إلى طاعة الله إلا بحول الله، وقوته فأنت إذا سمعت المؤذن يقول حي على الصلاة، حي على الفلاح تقول لا حول ولا قوة إلا بالله، ومعنى الكلام يا مؤذن أنا لا أتحول من مكاني هذا بحوله، وقوته إلى الصلاة، والفلاح فكم من رجل يجلس على المقهى، وهو يسمع حي على الصلاة حي على الفلاح، ولا يلبي، وغيره كثير، ودخل أصحاب الإمام سفيان الثوري عليه وهو يبكي فقيل أتبكي خوفًا من ذنوبك؟ فقال: «**إن ذنوبي أهون علي من هذه، ورفع تبنه من الأرض ولكن أخاف أن يسلب الإيمان مني عند الموت**»، **وقال أحد السلف**: المريد يخاف أن يقع في الذنوب، والمعاصي، والعارف يخاف أن يقع في الكفر، **وقال أحد السلف**: من لم يخاف أن يسلب الإيمان منه عند الموت سلب منه، وبكى أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في مرض الموت فقيل مايبكيك؟ فقال أخاف من قول الله تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٠].

فضائل الدعاء

١- **القرب من رب العالمين**: قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة:١٨٦].

٢- **الدعاء هو العبادة**: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الدعاء هو العبادة، ثم قرأ:** ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر:٦٠]» [صحيح الجامع].

٣- أكرم شيء على الله هو الدعاء: قال رسول الله ﷺ: «**لَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَمَ عَلَى الله مِنَ الدُّعَاءِ في الرخاء**» [صحيح الجامع].

٤- أن من يدعو لا يُحرم من الخير: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله رحيم حي كريم يستحي من عبده أن يرفع يديه ثم لا يضع فيهما خيرًا**» [صحيح الجامع].

٥- أن من لم يسأل الله يغضب عليه: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ لَمْ يَسْأَلِ الله يَغْضَبْ عَلَيْهِ**».

٦- أنه سبب في رد القدر: قال رسول الله ﷺ: «**لا يَرِدُّ القضَاءَ إلاَّ الدعاءُ، ولا يزيد في العُمر إلاَّ البِرُّ**» [صحيح الجامع].

٧- سبب في مغفرة الذنوب: قال رسول الله ﷺ: «**قال الله تعالى: يَا ابْنَ آدَمَ؛ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِيْ وَرَجَوتَنِيْ غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ مِنْكَ وَلَا أُبَالِيْ**» [صحيح الجامع].

آداب الدعاء

١- الإخلاص في الدعاء:

قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [غافر: ٦٥].

٢- أن تبدأ الدعاء بالحمد والثناء على الله ثم الصلاة على رسول الله ﷺ

قال رسول الله ﷺ لرجل كان يدعو ولم يحمد الله ولم يصلي عليه، فقال رسول الله ﷺ: «**عجلت أيها المصلي إذا صليت فقعدت فاحمد الله بما هو أهله وصلِّ عليَّ ثم دعه**» [صحيح الجامع].

٣- خفض الصوت عند الدعاء:

لأن الذي يخفض صوته عند الدعاء يعلم أن الله تعالى يسمعه وهو قريب له من نفسه وأقرب للإخلاص وعدم تشويش الناس عليه، ولا يقطعون مناجاته مع ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَى وأقرب لحضور القلب والخشوع. قال تعالى: ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [الأعراف:٥٥].

٤- اليقين بأن الله يستجيب مع عدم الغفلة:

قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اُدْعُوا الله وَأَنْتُمْ مُوْقِنُوْنَ بِالإِجَابَةِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ لَا يَسْتَجِيْبُ دُعَاءًا مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لَاهٍ**» [السلسلة الصحيحة].

٥- عدم الإستعجال بالإجابة:

قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ يَقُولُ دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي**» [صحيح البخاري ومسلم].

٦- عدم الدعاء بإثم أو قطيعة رحم:

قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا عَلَى الأَرْضِ مُسْلِمٌ يَدْعُو الله تعالى بدعوة إلّا آتاه الله إِيَّاهَا أَوْ صَرَفَ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ**» [صحيح الجامع].

٧- رفع اليدين في الدعاء:

قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله رحيم كريم يستحي من عبده أن يرفع إليه يديه ثم لا يضع فيهما خيرًا**» [صحيح البخاري].

٨- الدعاء في الرخاء سبب للإجابة في الشدة:

قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من سره أن يستجيب الله له عند الشدائد فليكثر من الدعاء في الرخاء**» [صحيح الجامع].

٩- الوضوء:

فكان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يحب أن يذكر الله تعالى طاهرًا.

١٠- استقبال القبلة.

١١- الدعاء بدعوة يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ:

قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**دَعْوَة ذِي النُّون إِذْ دَعَا بهَا وَهُوَ فِي بطن الْحُوت: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾** [الأنبياء:٨٧]، **فإنه لم يدع بهَا رجل مُسلم فِي شَيْء قطّ إِلَّا اسْتَجَابَ الله لَهُ**» [صحيح الجامع].

١٢- أن تغتنم أوقات الإجابة مثل:

قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ، فأكثروا الدعاء**» [مسلم].

وقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَنْزِلُ رَبُّنَا كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟**» [البخاري ومسلم].

وقال رسول الله ﷺ: «لَا يُرَدُّ الدُّعَاءُ بَيْنَ الْأَذَانِ وَالْإِقَامَةِ» [الترمذي]، وآخر ساعة بعد العصر يوم الجمعة، قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ فِي الْجُمُعَةِ سَاعَةً لَا يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ يَسْأَلُ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ فِيهَا خَيْرًا إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ، وَهِيَ بَعْدَ الْعَصْرِ».

[أخرجه الإمام أحمد]

وعن جابر، عن النبي ﷺ: «يَوْمُ الْجُمُعَةِ اثْنَتَا عَشْرَةَ سَاعَةً فِيهَا سَاعَةٌ لَا يُوجَدُ مُسْلِمٌ يَسْأَلُ اللَّهَ فِيهَا شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ فَالْتَمِسُوهَا آخِرَ سَاعَةٍ بعد الْعَصْرِ».

[صحيح أبو داود]

وروى سعيد بن منصور في «سننه» عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، أن ناسًا من أصحاب رسول الله ﷺ: «اجْتَمَعُوا فَتَذَاكَرُوا السَّاعَةَ الَّتِي فِي فِي الْجُمُعَةِ فَتَفَرَّقُوا وَلَمْ يَخْتَلِفُوا أَنَّهَا آخِرُ سَاعَةٍ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ» [قال الحافظ إسناده حسن].

وعن عبد الله بن سلام، قال: قلت ورسول الله ﷺ جالس: إِنَّا لَنَجِدُ فِي كِتَابِ اللهِ (يعني التوراة): «فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ سَاعَةً لَا يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُؤْمِنٌ يُصَلِّي يَسْأَلُ اللَّهَ فِيهَا شَيْئًا إِلَّا قَضَى لَهُ حَاجَتَهُ». قَالَ عَبْدُ اللهِ: فَأَشَارَ إِلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَوْ بَعْضُ سَاعَةٍ»، فَقُلْتُ: صَدَقْتَ، أَوْ بَعْضُ سَاعَةٍ. قُلْتُ: أَيُّ سَاعَةٍ هِيَ؟ قَالَ: «هِيَ آخِرُ سَاعَاتِ النَّهَارِ». قُلْتُ: إِنَّهَا لَيْسَتْ سَاعَةَ صَلَاةٍ، قَالَ: «بَلَى إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا صَلَّى ثُمَّ جَلَسَ، لَا يَحْبِسُهُ إِلَّا الصَّلَاةُ، فَهُوَ فِي الصَّلَاةِ» [صحيح ابن ماجة].

وعن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «السَّاعَةُ الَّتِي تُذْكَرُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ مَا بَيْنَ صَلَاةِ الْعَصْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ، وَكَانَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ إِذَا صَلَّى الْعَصْرَ لَمْ يُكَلِّمْ أَحَدًا حَتَّى تَغْرُبَ الشَّمْسُ» [زاد المعاد]، وعند نزول المطر قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اطلبوا استجابة الدعاء عند نزول الغيث**» [صحيح الجامع]، ويوم عرفة حديث في: «**خَيْرُ الدُّعَاءِ يَوْمَ عَرَفَةَ وخَيْرُ مَا قُلْتُ أَنا والنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ**».

١٣- تجنب أكل الحرام:

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبًا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال تعالى:** ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢]»، **ثم ذكر «... الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنَّى يُستجاب له»**

[مسلم، الترغيب والترهيب].

* * *

اسم الله الأعظم

عن عبد الله بن بريدة عن أبيه أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سمع رجلًا يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْتَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، الْأَحَدُ الصَّمَدُ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يكن له كفوًا أحد، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لقد سأل الله بالإسم الأعظم الذي إذا سئل به أعطى وإذا دُعي به أجاب» [صحيح الترغيب والترهيب].

وعن أنس بن مالك قال: أنه كان مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جالسًا ورجلٌ يصلي، ثم دعا فقال: اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت بديع السماوات والأرض يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَقَدْ سَأَلَ اللَّهَ بِاسْمِهِ الْأَعْظَمِ، الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى» [صحيح أبو داود].

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اسْمُ اللهِ الْأَعْظَمُ فِي ثَلَاثِ سُوَرٍ مِنَ الْقُرْآنِ: الْبَقَرَةِ، وَآلِ عِمْرَانَ، وَطه» [صحيح الجامع].

قال القاسم: فالتمستها فإذا هي «الحي القيوم»، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وفي آل عمران ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ [آل عمران:٢]، وفي طه: ﴿ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ [طه:١١١].

ألظو بيا ذا الجلال والإكرام

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ألظّوا بـ يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ» [السلسلة الصحيحة]

يعني: تعلَّقوا بها والزموها وداوموا عليها.

أدعية الكرب

عن أنس بن مالك قال: كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا حز به أمر قال: «**يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ**» [صحيح الجامع].

وعن ابن عباس أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقول عند الكرب «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَرَبُّ الْأَرْضِ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمُ**» [البخاري ومسلم].

وعن ابن مسعود قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلاَ حَزَنٌ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ وَابْنُ عَبْدِكَ وَابْنُ أَمَتِكَ نَاصِيَتِي بِيَدِكَ مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي وَنُورَ صَدْرِي وَجَلاَءَ حُزْنِي وَذَهَابَ هَمِّي. إِلاَّ أَذْهَبَ اللهُ هَمَّهُ وَحُزْنَهُ وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَجًا**». **قَالَ فَقِيلَ يَا رَسُولَ اللهِ أَلاَ نَتَعَلَّمُهَا فَقَالَ «بَلَى يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا»** [السلسلة الصحيحة].

عن أبي بكرة أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**دعوات المكروب: اللَّهُمَّ رحمتك أَرْجُو فَلَا تَكِلني إِلَى نَفسِي طرفَة عين وَأَصْلح لي شأني كُله لَا إِلَه إِلَّا أَنْت**» [صحيح أبو داود].

وعن أسماء بنت عميش قالت قال لي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ألا أعلمك كلمات تقولينهن عند الكرب - أو في الكرب - الله الله ربي لا أشرك به شيئًا**» [صحيح أبو داود].

الذين يستجاب دعاؤهم وبما يستجاب

١-المضطر

لقوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل:٦٢].

كما في حديث الثلاث الذين انطبقت عليهم الصخرة فإنهم مضطرون وهو ثابت في الصحيحين.

٢-٤-المظلوم مطلقًا ولو كان فاجرًا أو كافرًا والمسافر والوالد على ولده

قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «**ثَلَاثُ دَعَوَاتٍ مُسْتَجَابَاتٍ لَا شَكَّ فِيهِنَّ دَعْوَةُ الْمَظْلُومِ وَدَعْوَةُ الْمُسَافِرِ وَدَعْوَةُ الْوَالِدِ عَلَى وَلَدِهِ**» [صحيح الجامع].

وقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «**ثَلَاثَةٌ تُسْتَجَابُ دَعْوَتُهُمْ: الْوَالِدُ وَالْمُسَافِرُ وَالْمَظْلُومُ**» [صحيح الجامع].

وقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «**دَعْوَةَ الْمَظْلُوم مستجابة وَإِن كَانَ فَاجِرًا ففجوره على نَفسه**» [صحيح الجامع].

وقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «**اتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهَا لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الله حِجَابٌ**» [البخاري ومسلم].

٥-الولد البارُ بوالديه

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله تبارك وتعالى يرفع للرجل الدرجة فيقول: أنَّى لي هذه؟ فيقول: لبر والدك**» [البيهقي].

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: وذكر منهم: وَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ**» [مسلم].

وفي قصة الثلاثة دعا أحدهم ببره بوالديه، وحديث أويس القرني أنه كان به برص فدع الله فبرأ من البرص وكان له والده وكان بارًا بها كما أخبر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك.

٦-دعاء المسلم لأخيه بظهر الغيب

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا مِنْ عَبْدٍ مُسْلِمٍ يَدْعُو لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ، إِلَّا قَالَ الْمَلَكُ: وَلَكَ بِمِثْلٍ**» [مسلم].

وفي رواية: «**دَعْوَةُ الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ مُسْتَجَابَةٌ..**» [مسلم].

٧-دعاء المسلم ما لم يستعجل

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا يَزَالُ يُسْتَجَابُ لِلْعَبْدِ مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ مَا لَمْ يستعجل**» قيل: يا رسول الله، وما الِاسْتِعْجَالُ؟ قَالَ: «**يَقُولُ قَدْ دَعَوْتُ وَقَدْ دَعَوْتُ، فَلَمْ أَرَ يُسْتَجَابُ لِي، فَيَسْتَحْسِرُ عِنْدَ ذَلِكَ ويدع الدُّعَاءَ**» [البخاري ومسلم].

٨–من استيقظ من نومه وقال هذا الدعاء

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من تعار من اللَّيْل فَقَالَ حين يستيقظ: لَا إِلَه إِلَّا الله وَحده لَا شريك لَهُ، لَهُ الْملك وَله الْحَمد وَهُوَ على كل شَيْء قدير، الْحَمد لله وَسُبْحَان الله، وَلَا إِلَه إِلَّا الله، وَالله أكبر، وَلَا حول وَلَا قُوَّة إِلَّا بِاللَّه، ثمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِر لي أَو دَعَا اسْتُجِيبَ لَهُ، فَإِن تَوَضَّأ وَصلى قبلت صلَاته**» [البخاري وغيره].

قال الإمام ابن حجر: (من تعار من الليل).

قال ابن التين: ظاهر الحديث أن معنى تعار استيقظ لأنه قال: (من تعار فقال) فعطف القول على التعار. انتهى. ويحتمل أن تكون الفاء تفسيرية لما صوت به المستيقظ، لأنه قد يصوت بغير ذكر، فخص الفضل المذكور بمن صوت بما ذكر من ذكر الله تعالى، وهذا هو السر في اختيار لفظ تعار دون استيقظ أو انتبه، وإنما يتفق ذلك لمن تعود الذكر واستأنس به وغلب عليه حتى صار حديث نفسه في نومه ويقظته، فأكرم من اتصف بذلك بإجابة دعوته وقبول صلاته [فتح الباري].

٩–من نام على ذكر وطهارة

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَبِيتُ عَلَى ذِكْرٍ طَاهِرًا فَيَتَعَارُّ مِنَ الليلِ، فَيَسْأَلَ الله تَعَالَى خَيْرًا مِنْ أُمُورِ الدنيا والآخِرَةِ إلاَّ أعطَاهُ الله إياه**» [صحيح الجامع].

١٠-الذاكرون الله كثيرًا والذاكرات

قال رسول الله ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لَا يُرَدُّ دُعَاؤُهُمُ: الذَّاكِرُ لِلَّهِ كَثِيرًا، وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ، وَدَعْوَةُ الْإِمَامِ الْمُقْسِطِ».

أدعية من القرآن

قال تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأَٓخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة:٢٠١].

وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة:١٢٧].

وقال تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٢٥٠].

وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٢٨٦].

وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران:٨].

وقال تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران:١٦].

وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٧] [مدارج السالكين].

٤- كثرة قراءة القرآن والعمل به

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس:٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا﴾ [الإسراء:٨٢]، فالقرآن شفاء للقلوب، والأرواح، وقال الشيخ وحيد بالي حَفِظَهُ ٱللَّهُ قال تعالي: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ﴾ لم يقل تعالى دواء لأن الدواء قد يكون سببًا في الشفاء أولاً أما القرآن شفاء، ومع ذلك مع الشفاء رحمة لأنك تأخذ الدواء أو تفعل عملية أو جرح فتتألم حتى تشفى، ولكن شفاء القرآن شفاء، ورحمة من غير ألم، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الشورى:٥٢]، وتأمل أن الله سمى القرآن روحًا لأنه غذاء الأرواح، والقلوب، وإنما سمي القرآن والسنة وحيًا لأن الله يحي بهما القلوب، والأرواح الميتة كما يحي الأرض الميتة بالماء، وأحذر أن تكون من هؤلاء قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾ [الفرقان:٣٠]، فكثير من المسلمين ولا حول ولا قوة إلا بالله هجر القرآن إما هجران قراءة، أو هجران حفظ، أو هجران تدبر، أو هجران تحاكم له، وإقامة حدوده من إحلال ما أحله، وتحريم ماحرم، والعمل بمافيه فعندما سئلت أم المؤمنين عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا عن خلق رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ قالت: كان خلقه القرآن، وفي رواية كان قرآنًا يمشي على

الأرض، ومن الناس هجره بالنوم عن قيام الليل فكان عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يختم القرآن كل ليلة في ركعة واحده كما أخبرت بذلك زوجته نائلة، وكان يقول لو طهرت قلوبكم ما شبعتم من كلام ربكم، ومن الناس من هجر القرآن بعدم التداوي به بأن يرقي نفسه به كما كان يفعل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فمن تدبرالقرآن وعمل به فتح أقفال قلبه قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد:٢٤]، **ويقول الإمام ابن القيم**: إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته، وسماعه، وألق سمعك، واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به سبحانه منه إليه فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق:٣٧]، فقوله: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ ﴾ إشارة إلى ما تقدم من أول السورة إلى هاهنا وهذا هو المؤثر، وقوله: ﴿ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾ فهذا المحل القابل والمراد به القلب الحي الذي يعقل الله كما قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ۝٦٩ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [يس:٦٩-٧٠]، أي: حي القلب ، وقوله: ﴿ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ أي: شاهد القلب حاضر غير غائب، **وقال ابن قتيبة**: استمع كتاب الله وهو شاهد القلب، والفهم ليس بغافل، ولا ساه، وهو إشارة إلى المانع من حصول التأثير وهو سهو القلب، وغيبته عن تعقل ما يقال له، والنظر فيه وتأمله فإذا حصل المؤثر وهو القرآن والمحل القابل وهو القلب الحي ووجد الشرط وهو الإصفاء وانتقى المانع وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب، وانصرافه عنه إلى شئ آخر حصل الآثر وهو الانتفاع والتذكر [الفوائد]،

وضرب الله تعالى مثل للوحي الذي هو النور الذي في قلب المؤمن فقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:١٢٢]، فجمع الله تعالى في الأية لعبده المؤمن بالنور، والحياة وجمع لمن أعرض عن كتابه بين الموت، والظلمة.

فضائل القرآن

الهداية على أحسن شيء

قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء:٩].

تطمئن به القلوب

قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨]، والذكر في الآية هو القرآن.

تجارة مع الله

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر:٢٩].

خير الناس

قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرآنَ وَعَلَّمَهُ» [البخاري ومسلم].

مليارات الحسنات

قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ الله فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لاَ أَقُولُ «الم» حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ وَلاَمٌ حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ».

[صحيح الجامع]

نزول السكينة والرحمة

قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ الله يَتْلُونَ كِتَابَ الله وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلاَّ نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلاَئِكَةُ، وَذَكَرَهُم الله فِيمَنْ عِنْدَهُ» [مسلم].

وتكون مع الملائكة

قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «الْمَاهِرُ بِالْقُرآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ، وَالَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَتَتَعْتَعُ فِيهِ وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ لَهُ أَجْرَانِ» [البخاري ومسلم].

شافع ويقود إلى الجنة

قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «الْقُرْآنُ شَافِعٌ مُشَفَّعٌ وما حل مُصَدَّقٌ، مَنْ جَعَلَهُ أَمَامَهُ قَادَهُ إِلَى الْجَنَّةِ وَمَنْ جَعَلَهُ خَلْفَهُ سَاقَهُ إِلَى النَّارِ» [صحيح الجامع].

لا يُحسد إلا مثله

قال رسول الله ﷺ: «لاَ حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ عَلَّمَهُ الله الْقُرْآنَ فَهُوَ يَتْلُوهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وآناءَ النَّهَارِ، فَسَمِعَهُ جَارٌ لَهُ فَقَالَ: لَيْتَنِي أُوتِيتُ مَا أُوتِيَ فُلاَنٌ فَعَمِلْتُ مِثْلَ مَا يَعْمَلُ» [البخاري].

أهل الله هم أهل القرآن

قال رسول الله ﷺ: «أَهْلُ الْقُرْآنِ هُمْ أَهْلُ الله وَخاصَّتُهُ».

[صحيح ابن ماجه]

درجته عند آخر آية

قال رسول الله ﷺ: «يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ: اقْرَأْ، وَارْقَ، وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا» [صحيح الجامع].

* * *

فضل سورة البقرة وآل عمران

قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لاَ تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ، إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْفِرُ مِنَ الْبَيْتِ الَّذِي تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ» [مسلم].

قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ: الْبَقَرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ، فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهما غَمَامَتَانِ، أَوْ كَانَّهُمَا غَيَايَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ، تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا، اقْرَءُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ، وَلاَ تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ» [مسلم]، والبطلة يعني السحرة.

فضل سورة الكهف

قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْكَهْفِ كَانَتْ لَهُ نُورًا مِنْ مَقَامِهِ إِلَى مَكَّةَ، وَمَنْ قَرَأَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ آخِرِهَا ثُمَّ خَرَجَ الدَّجَّالُ لَمْ يَضُرَّهُ» [صحيح الترغيب].

وقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْكَهْفِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ أَضَاءَ لَهُ مِنَ النُّورِ مَا بَيْنَ الْجُمُعَتَيْنِ» [المستدرك على الصحيحين للحاكم].

فضائل سورة تبارك الذي بيده الملك

قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ سُورَةً مِنَ الْقُرْآنِ، ثَلاَثُونَ آيَةً، شَفَعَتْ لِرَجُلٍ حَتَّى غُفِرَ لَهُ، وَهِيَ: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [صحيح الجامع]».

فضل قراءة قل هو الله أحد

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «أَقْبَلْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَمِعَ رَجُلاً يَقْرَأُ: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [الإخلاص:١-٤]، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَجَبَتْ». فَسَأَلْتُهُ: مَاذَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «الْجَنَّةُ» [صحيح الترمذي].

عن أبي الدرداء عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ فِي لَيْلَةٍ ثُلُثَ الْقُرْآنِ؟» قَالُوا: وَكَيْفَ يَقْرَأُ ثُلُثَ الْقُرآنِ؟ قَالَ: «قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ» يَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرآنِ» [مسلم].

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ قَرَأَ: قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ حَتَّى يَخْتِمَهَا عَشْرَ مَرَّاتٍ، بَنَى اللهُ لَهُ قَصْرًا فِي الْجَنَّةِ» [الصحيحة].

* * *

فضل قراءة المعوذتين وقل هو اللّه أحد

عن معاذ بن عبد الله عن أبيه قال: قال لي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قُلْ**». **قُلْتُ مَا أَقُولُ؟** قَالَ: «**قُلْ هُوَ الله أَحَدٌ وَالْمُعَوِّذَتَيْنِ حِينَ تُمْسي وَتُصْبِحُ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ تَكْفِيكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ**» [حسن، والترمذي].

فضل آية الكرسي

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ قَرَأَ آيَةَ الْكُرْسِيِّ دُبُرَ كُلِّ صَلاَةٍ مَكْتُوبَةٍ، لَمْ يَمْنَعْهُ مِنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ إِلَّا أَنْ يَمُوتَ**» [صَحِيح الجَامِع].

❋ ❋ ❋

٥- كثرة ذكر الله تعالى

فإن من أعظم أسباب صلاح القلوب ذكر علام الغيوب قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد:٢٨]، وقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لَا يَذْكُرُ رَبَّهُ، كَمَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ» [صحيح البخاري]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [الحديد:١٦]، وقال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر:٢٣]، وأتى رجل إلى الحسن البصري يشتكي قسوة قلبه فقال أذبه بالذكر، وللذكر فضائل عظيمة مثل قول عن أبي الدرداء قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، وَأَرْضَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ إِعْطَاءِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ، وَمِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ، فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ، وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟» قَالُوا: وَمَا ذَاكَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «ذِكْرُ الله» [صحيح البخاري]، وقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ» قَالُوا: وَمَا الْمُفَرِّدُونَ؟ يَا رَسُولَ الله قَالَ: «الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثِيرًا، وَالذَّاكِرَاتُ» [صحيح مسلم]، وقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وما عَمِلَ آدَمِيٌّ عَمَلًا أَنْجَى لَهُ مِنْ عَذَابِ الله مِنْ ذِكْرِ الله» [صحيح الجامع]، وروى الإمام بن حبان في صحيحه أن محمد بن عبد الله عالم من العلماء كان يمشي

في صحراء سيناء فوجد رجل مقطع الأيدي، ومقطع القدمين، وأعمى يسمى بأبي قلابة فسمعه يقول الحمد لله الذي فضلني على كثير ممن خلق فقال العالم: بما فضلك الله على من خلق فأنت مقطع الأيدي مقطع القدمين، وأعمى؟ فقال أبي قلابة: أن جعل لي لسانًا ذاكرً، وقلبًا شاكرًا .

ذكر الله لك

قال تعالى: ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴾ [البقرة:١٥٢].

معية الله للذاكر

قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَقُولُ الله تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ» [البخاري ومسلم].

أفضل الأعمال وخيرها

عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ وَأَرْضَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ إِعْطَاءِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ، وَمِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ، فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ، وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَهمْ؟ قَالُوا: وَمَا ذَاكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «ذِكْرُ اللَّهِ»».

أنجى للعبد من العذاب

قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا عَمِلَ آدَمِيٌّ عَمَلًا أَنْجَى له مِنَ الْعَذَابِ مِنْ ذِكْرِ الله **تعالى**» [صحيح الجامع].

أنهم هم السابقون

قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ» قَالُوا: وَمَا الْمُفَرِّدُونَ؟ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: «الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثِيرًا، وَالذَّاكِرَاتُ» [مسلم].

مباهاة الله بالذاكرين

عن معاوية أن قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: خَرَجَ عَلَى حَلْقَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: «مَا أَجْلَسَكُمْ؟».

قَالُوا: جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللهَ وَنَحْمَدُهُ عَلَى مَا هَدَانَا لِلْإِسْلَامِ وَمَنَّ بِهِ عَلَيْنَا.

قَالَ: «آللهِ مَا أَجْلَسَكُمْ إِلَّا ذَاكَ؟».

قَالُوا: وَاللهِ مَا أَجْلَسَنَا إِلَّا ذَاكَ.

قَالَ: «أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ، وَلَكِنَّهُ أَتَانِي جِبْرِيلُ فَأَخْبَرَنِي أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُبَاهِي بِكُمُ الْمَلَائِكَةَ» [مسلم].

حياة القلب

قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لاَ يَذْكُرُ رَبَّهُ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ» [البخاري].

عدم التحسر يوم القيامة

قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مامن سَاعَة تمر بابن آدم ثم لم يذكر الله فِيهَا بخير إِلَّا تحسر عليها يَوْمَ الْقِيَامَة» [صحيح الجامع].

فضل هذه الكلمات

قال رسول الله ﷺ: «مَا قَالَ عبد لَا إِلَه إِلَّا الله قط مخلصا إِلَّا فتحت لَهُ أَبْوَاب السَّمَاء حَتَّى تُفْضِي إِلَى الْعَرْش مَا اجْتنبت الْكَبَائِر» [صحيح الجامع].

قال رسول الله ﷺ: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اَللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي اَلْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى اَلرَّحْمَنِ، سُبْحَانَ اَللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اَللهِ اَلْعَظِيمِ» [البخاري].

قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَالَ سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، غُرِسَتْ لَهُ نَخْلَةٌ فِي الْجَنَّةِ» [صحيح الجامع].

قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَالَ سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ مِائَةَ مَرَّةٍ غُفِرَتْ له ذُنُوبُهُ وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ» [مسلم].

قال رسول الله ﷺ: «أَحَبُّ الْكَلَامِ إِلَى اللهِ أَرْبَعٌ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، ولَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، لَا يَضُرُّكَ بِأَيِّهِنَّ بدأت» [مسلم].

قال رسول الله ﷺ: «أَلاَ أَدُلُّكَ عَلَى غِرَاسٍ خَيْرٍ مِنْ هذا؟ قَالَ: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «قُلْ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلاَ إِلهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، يُغْرَسْ لَكَ بِكُلِّ وَاحِدَةٍ شَجَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ» [صحيح الجامع].

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «قولوا: سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، فَإِنَّهُنَّ يَأْتِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُجَنِّبَاتٍ وَمُعَقِّبَاتٍ، وَهُنَّ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ» [صحيح الجامع].

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِالله، فَإِنَّهَا، كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ» [البخاري ومسلم].

❊ ❊ ❊

٦- كثرة الخطا إلى المساجد

قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ﴾ [النور:٣٥-٣٦].

فإن الله ضرب مثل لنوره في قلب عبده المؤمن في هذه الآية الكريمة، ثم ذكر في الآية التى تليها أن من أراد هذا النور يجده في بيوت الله، وكلما ازداد العبد من كثرة الخطا إلى المساجد وأكثر من الصلاة ومجالس العلم والجلوس في المساجد للذكر وقرأة القرآن كلما ازداد النور في قلبه وكان من أصلح القلوب.

فضائل المشي إلى المساجد

ضيافة في الجنة

قال رسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ غَدَا إِلَى الْمَسْجِدِ أَوْ رَاحَ أَعَدَّ اللهُ لَهُ نُزُلَهُ مِنَ الْجَنَّةِ كُلَّمَا غَدَا أَوْ رَاحَ» [البخاري وسلم].

أجره كالحاج المحرم

قال رسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ مُتَطَهِّرًا إِلَى صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ فَأَجْرُهُ كَأَجْرِ الْحَاجِّ الْمُحْرِمِ» [صحيح الترغيب].

ضيف الله عَزَّوَجَلَّ

قال رسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «مَنْ تَوَضَّأَ فِي بَيْتِهِ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ أَتَى الْمَسْجِدَ، فَهُوَ زَائِرُ اللهِ، وَحَقٌّ عَلَى الْمَزُورِ أَنْ يُكْرِمَ الزَّائِرَ» [حسن، الترغيب].

مغفرة الذنوب

قال رسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «مَنْ تَوَضَّأَ فَأَسْبَغَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ مَشَى إِلَى صَلاةٍ مَكْتُوبَةٍ فَصَلَّاهَا غُفِرَ لَهُ ذَنْبُهُ» [صحيح الترغيب].

في ضمان الله وإن مات دخل الجنة

قال رسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «ثَلاَثَةٌ كُلُّهُمْ ضَامِنٌ عَلَى اللهِ إِنْ عَاشَ رُزِقَ وكُفِيَ وَإِنْ مَاتَ أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ .. وذكر منهم .. وَمَنْ خَرَجَ إِلَى الْمَسْجِدِ فَهُوَ ضَامِنٌ عَلَى اللهِ».

[صحيح الترغيب]

تبشبش الله لك

قال رسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «مَا تَوَطَّنَ رَجُلٌ مُسْلِمٌ الْمَسَاجِدَ لِلصَّلَاةِ وَالذِّكْرِ، إِلَّا تَبَشْبَشَ اللهُ لَهُ، كَمَا يَتَبَشْبَشُ أَهْلُ الْغَائِبِ بِغَائِبِهِمْ إِذَا قَدِمَ عَلَيْهِمْ» [صحيح الترغيب].

علامة على الإيمان

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾

[التوبة:١٨].

أن تكون من السبعة الذين يظلهم الله

قال رسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ الله فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ وذكر منهم:... وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالْمَسَاجِدِ» [البخاري].

بيت كل تقي والروح والرحمة والرضا

قال رسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْمَسْجِدُ بَيْتُ كُلِّ تَقِيٍّ وَتَكَفَّلَ الله لِمَنْ كَانَ الْمَسْجِدُ بَيْتَهُ بِالرَّوْحِ وَالرَّحْمَةِ وَالْجَوَازِ عَلَى الصِّرَاطِ إِلَى رِضْوَانِ الله إِلَى الْجَنَّةِ» [صحيح الترغيب].

❊ ❊ ❊

٧- كثرة الإستغفار

قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ فِي قَلْبِهِ، فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ، صُقِلَ قَلْبُهُ» [حسن الترمذي]، فإن الأستغفار مع الندم، والتوبة يطهر القلوب فالقلب كالمرآه فإن أذنب العبد نكدت في قلبه نكته سوداء فإن استغفر، ونزع، وتاب صقلت أي: مسحت هذه النقطة، **وقال بعض السلف**: «**البدن إذا عرى رق، وكذلك القلب إذا قلت خطاياه أسرعت دمعته**» [ذم قسوة القلوب]، وللأستغفار فضائل كثيرة منها قول الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال:٣٣]، **وقال علي بن أبي طالب**: ماألهم عبد الأستغفار، وأراد الله أن يعذبه، وقال تعالى: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [النمل: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴾ [نوح:١٠-١٢]، قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يقول الله** عَزَّ وَجَلَّ **يَا بَنِي آدَمَ كُلُّكُمْ مُذْنِبٌ إِلَّا مَنْ عَفَيْتُ، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ**» [مسلم]، قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قال إبليس: وَعِزَّتِكَ يَا رَبِّ، لَا أَبْرَحُ أُغْوِي عِبَادَكَ مَا دَامَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ، قَالَ الرَّبُّ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَا أَزَالُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِي**» [صحيح الجامع]، قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ أَحَبَّ أَنْ تَسُرُّهُ صَحِيفَتُهُ فَلْيُكْثِرْ فِيهَا مِنَ الِاسْتِغْفَارِ**» [صحيح الجامع].

* * *

٨- سرعة الإستجابة لله ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال:٢٤].

فعلى قدر استجابتك لله ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على قدر حياة قلبك وروحك وسبب لتثبيت قلبك على طاعة الله تعالى، قال الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴾ [النساء:٦٦].

ولذلك كان الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أرق وأصلح الناس قلوبًا لسرعة استجابتهم لأمر الله وأمر رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

صور من استجابة الصحابة لأمر الله وأمر رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

ولقد ضرب الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أروع الأمثلة في طاعة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: لَمَّا نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾، قَالَ فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَتَوْا رَسُولَ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ بَرَكُوا عَلَى الرُّكَبِ، فَقَالُوا: أَيْ رَسُولَ اللهَّ، كُلِّفْنَا مِنَ الأَعْمَالِ مَا نُطِيقُ الصَّلاَةُ وَالصِّيَامُ وَالْجِهَادُ وَالصَّدَقَةُ، وَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيْكَ هَذِهِ الآيَةُ وَلاَ نُطِيقُهَا. قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا

كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ مِنْ قَبْلِكُمْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا بَلْ قُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ». قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ. فَلَمَّا اقْتَرَأَهَا الْقَوْمُ ذَلَّتْ بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ فَأَنْزَلَ الله فِي إِثْرِهَا: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ نَسَخَهَا الله تَعَالَى فَأَنْزَلَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾، قَالَ: نَعَمْ، ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾، قَالَ: نَعَمْ، ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾، قَالَ: نَعَمْ، ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، قَالَ: نَعَمْ.

وروى **الإمام البخاري** أن كعب بن مالكٍ اختصم مع ابن أبي حدرد بن عبد الله، بسبب دين لكعبٍ، فارتفعت أصواتها في المسجد حَتَّى سَمِعَهَا رَسُولُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وَهُوَ فِي بَيْتِهِ فَخَرَجَ إِلَيْهِمَا رَسُولُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حَتَّى كَشَفَ سِجْفَ حُجْرَتِهِ وَنَادَى كَعْبَ ابْنَ مَالِكٍ فَقَالَ: «يَا كَعْبُ». فَقَالَ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ الله. فَأَشَارَ إِلَيْهِ بِيَدِهِ أَنْ ضَعِ الشَّطْرَ مِنْ دَيْنِكَ. قَالَ كَعْبٌ: قَدْ فَعَلْتُ يَا رَسُولَ الله. قَالَ رَسُولُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**قُمْ فَاقْضِهِ**».

وتأمل أخي المسلم قول كعب لرسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**قد فعلتُ**»، ولم يقل: سأفعل أو النصف كثير، أو أنا مضطر لهذا المال، ولكن الاستسلام لأمر رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَى خَاتَمًا مِنْ ذَهَبٍ فِي يَدِ رَجُلٍ فَنَزَعَهُ فَطَرَحَهُ، وَقَالَ: «يَعْمِدُ أَحَدُكُمْ إِلَى جَمْرَةٍ مِنْ نَارٍ فَيَجْعَلُهَا فِي يَدِهِ». فَقِيلَ لِلرَّجُلِ بَعْدَ مَا ذَهَبَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: خُذْ خَاتَمَكَ انْتَفِعْ بِهِ. قَالَ لاَ وَالله لاَ آخُذُهُ أَبَدًا وَقَدْ طَرَحَهُ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [صحيح الجامع].

وقصة جليبيب ولم يكن ذا وجه جميل، وأراد أن يزوجه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خَطَبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى جُلَيْبِيبٍ امْرَأَةً مِنَ الأَنْصَارِ إِلَى أَبِيهَا فَقَالَ: حَتَّى أَسْتَأْمِرَ أُمَّهَا.

فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَنَعَمْ إِذًا». قَالَ: فَانْطَلَقَ الرَّجُلُ إِلَى امْرَأَتِهِ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهَا فَقَالَتْ: لاَهَا الله إِذًا مَا وَجَدَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلاَّ جُلَيْبِيبًا وَقَدْ مَنَعْنَاهَا مِنْ فُلاَنٍ وَفُلاَنٍ. قَالَ: وَالْجَارِيَةُ فِي سِتْرِهَا تَسْتَمِعُ، قَالَ: فَانْطَلَقَ الرَّجُلُ يُرِيدُ أَنْ يُخْبِرَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِذَلِكَ.

فَقَالَتِ الْجَارِيَةُ: أَتُرِيدُونَ أَنْ تَرُدُّوا عَلَى رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمْرَهُ إِنْ كَانَ قَدْ رَضِيَهُ لَكُمْ فَأَنْكِحُوهُ. فَكَأَنَّهَا جَلَّتْ عَنْ أَبَوَيْهَا، وَقَالاَ: صَدَقْتِ. فَذَهَبَ أَبُوهَا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ قَدْ رَضِيتَهُ فَقَدْ رَضِينَاهُ. قَالَ: «فَإِنِّي قَدْ رَضِيتُهُ». فَزَوَّجَهَا، ثُمَّ فُزِّعَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ فَرَكِبَ جُلَيْبِيبٌ فَوَجَدُوهُ قَدْ قُتِلَ وَحَوْلَهُ نَاسٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَدْ قَتَلَهُمْ. قَالَ أَنَسٌ: فَلَقَدْ رَأَيْتُهَا وَإِنَّهَا لَمِنْ أَنْفَقِ بَيْتٍ فِي الْمَدِينَةِ.

وفي رواية: فَقَالَ النبي ﷺ لأَصْحَابِهِ: «هَلْ تَفْقِدُونَ مِنْ أَحَدٍ». قَالُوا: نَعَمْ فُلاَنًا وَفُلاَنًا وَفُلاَنًا. ثُمَّ قَالَ: «هَلْ تَفْقِدُونَ مِنْ أَحَدٍ؟». قَالُوا: نَعَمْ، فُلاَنًا وَفُلاَنًا وَفُلاَنًا.

ثُمَّ قَالَ: «هَلْ تَفْقِدُونَ مِنْ أَحَدٍ». قَالُوا: لاَ. قَالَ: «لَكِنِّى أَفْقِدُ جُلَيْبِيبًا فَاطْلُبُوهُ». فَطُلِبَ فِى الْقَتْلَى فَوَجَدُوهُ إِلَى جَنْبِ سَبْعَةٍ قَدْ قَتَلَهُمْ ثُمَّ قَتَلُوهُ، فَأَتَى النَّبِىُّ ﷺ فَوَقَفَ عَلَيْهِ فَقَالَ: «قَتَلَ سَبْعَةً ثُمَّ قَتَلُوهُ، هَذَا مِنِّى وَأَنَا مِنْهُ، هَذَا مِنِّى وَأَنَا مِنْهُ». قَالَ فَوَضَعَهُ عَلَى سَاعِدَيْهِ لَيْسَ لَهُ إِلاَّ سَاعِدَا النَّبِىِّ ﷺ قَالَ فَحُفِرَ لَهُ وَوُضِعَ فِى قَبْرِهِ [مسند أحمد].

ودَعَا لَهَا رَسُولُ الله ﷺ قَالَ: «اللَّهُمَّ صُبَّ عَلَيْهَا الْخَيْرَ صبًّا، وَلاَ تَجْعَلْ عَيْشَهَا كَدًّا كَدًّا». قَالَ: فَمَا كَانَ فِى الأَنْصَارِ أَيِّمٌ أَنْفَقَ مِنْهَا.

* * *

٩- رد الفتن

قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَالْآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ».

[صحيح مسلم]

خطورة الفتن

قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا» [رواه مسلم].

وقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ الصَّابِرُ فِيهِمْ عَلَى دِينِهِ كَالْقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ» [رواه الترمذي، وصححه الألباني].

وقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ سَنَوَاتٌ خَدَّاعَاتُ، يُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ، وَيُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ، وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ، وَيُخَوَّنُ فِيهَا الأَمِينُ، وَيَنْطِقُ فِيهَا الرُّوَيْبِضَةُ، قِيلَ: وَمَا الرُّوَيْبِضَةُ؟ قَالَ: الرَّجُلُ التَّافِهُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ».

[رواه ابن ماجه، وصححه الألباني]

وعند عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلاَّ كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرِ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ وَيُنْذِرَهُمْ شَرَّ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ

وَإِنَّ أُمَّتَكُمْ هَذِهِ جُعِلَ عَافِيَتُهَا فِي أَوَّلِهَا وَسَيُصِيبُ آخِرَهَا بَلاَءٌ وَأُمُورٌ تُنْكِرُونَهَا وَتَجِيءُ فِتْنَةٌ فَيُرَقِّقُ بَعْضُهَا بَعْضًا وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ هَذِهِ مُهْلِكَتِي. ثُمَّ تَنْكَشِفُ وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ هَذِهِ هَذِهِ، فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ وَيَدْخُلَ الْجَنَّةَ فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ وَمَنْ بَايَعَ إِمَامًا فَأَعْطَاهُ صَفْقَةَ يَدِهِ وَثَمَرَةَ قَلْبِهِ فَلْيُطِعْهُ إِنِ اسْتَطَاعَ» [رواه مسلم].

وسأل عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن الفتنة التي تموج كما يموج البحر، فقال حذيفة: يا أمير المؤمنين، إن بينك وبينها بابًا مغلقًا. قال: أَيُكسَر أم يُفتح؟ قال: يُكسَر. فقال عمر: إذن لا يُغلَق أبدًا. فقالوا لحذيفة: أكان عمر يعلم الباب؟ قال: نعم، كما دون الغد الليلة، فسأله مسروق عن الباب، فقال: الباب عمر [رواه البخاري ومسلم].

وتأمل أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يسألهم عن الفتن التي تموج موج البحر وشبهها بموج البحر لكثرتها وقوتها وتتبعها وقربها من بعض كموج البحر.

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَمْ يَبْقَ مِنَ الدُّنْيَا إِلاَّ بَلاَءٌ وَفِتْنَةٌ».

[رواه ابن ماجه، وصححه الألباني]

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هَلْ تَرَوْنَ مَا أَرَى؟ إِنِّي لَأَرَى مَوَاقِعَ الفِتَنِ خِلاَلَ بُيُوتِكُمْ كَمَوَاقِعِ الْقَطْرِ» [رواه البخاري وسلم].

وعن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا فَأَىُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ وَأَىُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلاَ تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَالآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا لاَ يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلاَ يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلاَّ مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ**» [رواه مسلم].

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ثُمَّ فِتْنَةُ الدُّهَيْمَاءِ لاَ تَدَعُ أَحَداً مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ إِلاَّ لَطَمَتْهُ لَطْمَةً فَإِذَا قِيلَ انْقَطَعَتْ تَمَادَتْ يُصْبِحُ الرَّجُلُ فِيهَا مُؤْمِناً وَيُمْسِى كَافِراً حَتَّى يَصِيرَ النَّاسُ إِلَى فُسْطَاطَيْنِ فُسْطَاطِ إِيمَانٍ لاَ نِفَاقَ فِيهِ وَفُسْطَاطِ نِفَاقٍ لاَ إِيمَانَ فِيهِ إِذَا كَانَ ذَاكُمْ فَانْتَظِرُوا الدَّجَّالَ مِنَ الْيَوْمِ أَوْ غَدٍ**» [رواه أحمد، وصححه الألباني].

فإذا جاءت الفتن تميزت الصفوف إلى صفين لا ثالث لهما، صفٍ مؤمن ينصر الله ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمؤمنين، ويواليهم، وينصر دين الله تعالى، وصفٍ منافق يوالي أعداء الله ويشوه صورة الإسلام، كما قال تعالى: ﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾ [الأنفال: ٣٧].

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامًا الصَّبْرُ فِيهِنَّ مِثْلُ الْقَبْضِ عَلَى الْجَمْرِ لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلاً يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِكُمْ**». قِيلَ: يَا رَسُولَ الله، أَجْرُ خَمْسِينَ رَجُلاً مِنَّا أَوْ مِنْهُمْ قَالَ: «**لاَ بَلْ أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ**».

[رواه الترمذي، وصححه الألباني]

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الْفِتَنَ**».

[رواه أبو داود، وصححه الألباني]

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لاَ يَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ إِلَّا الَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ، حَتَّى تَلْقَوْا رَبَّكُمْ**» [رواه البخاري].

وعن أبي هريرة عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَتَقَارَبُ الزَّمَانُ، وَيَنْقُصُ العَمَلُ، وَيُلْقَى الشُّحُّ، وَتَظْهَرُ الفِتَنُ، وَيَكْثُرُ الهَرْجُ**». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّمَ هُوَ؟ قَالَ: «**القَتْلُ القَتْلُ**» [متفق عليه].

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لاَ يَدْرِى الْقَاتِلُ فِى أَىِّ شَىْءٍ قَتَلَ وَلاَ يَدْرِى الْمَقْتُولُ عَلَى أَىِّ شَىْءٍ قُتِلَ**» [رواه مسلم].

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ لَأَيَّامًا، يَنْزِلُ فِيهَا الجَهْلُ، وَيُرْفَعُ فِيهَا العِلْمُ، وَيَكْثُرُ فِيهَا الهَرْجُ**» [رواه البخاري].

وعن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ لَهَرْجًا**»، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا الْهَرْجُ؟ قَالَ: «**الْقَتْلُ**»، فَقَالَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّا نَقْتُلُ الآنَ فِي الْعَامِ الْوَاحِدِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ كَذَا وَكَذَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَيْسَ بِقَتْلِ الْمُشْرِكِينَ، وَلَكِنْ يَقْتُلُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا، حَتَّى يَقْتُلَ الرَّجُلُ جَارَهُ، وَابْنَ عَمِّهِ وَذَا قَرَابَتِهِ**»، فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَعَنَا عُقُولُنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لاَ، تُنْزَعُ عُقُولُ**

أَكْثَرِ ذَلِكَ الزَّمَانِ، وَيَخْلُفُ لَهُ هَبَاءٌ مِنَ النَّاسِ لاَ عُقُولَ لَهُمْ» [رواه ابن ماجه وصححه الألباني].

وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: سمعتُ رسولَ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: «**سيصيب أمتي داء الأمم**»، فقالوا: يا رسول الله، وما داء الأمم؟ قال: «**الْأَشَرُ وَالْبَطَرُ وَالتَّكَاثُرُ وَالتَّنَاجُشُ فِي الدُّنْيَا وَالتَّبَاغُضُ وَالتَّحَاسُدُ حَتَّى يَكُونَ الْبَغْيُ**» [السلسلة الصحيحة].

وعن حذيفة بن اليمان مرفوعًا: «يَدْرُسُ الإِسْلاَمُ كَمَا يَدْرُسُ وَشْيُ الثَّوْبِ، حَتَّى لاَ يُدْرَى مَا صِيَامٌ، وَلاَ صَلاَةٌ، وَلاَ نُسُكٌ، وَلاَ صَدَقَةٌ، وَلَيُسْرَى عَلَى كِتَابِ الله عَزَّ وَجَلَّ فِي لَيْلَةٍ، فَلاَ يَبْقَى فِي الأَرْضِ مِنْهُ آيَةٌ، وَتَبْقَى طَوَائِفُ مِنَ النَّاسِ الشَّيْخُ الْكَبِيرُ وَالْعَجُوزُ، يَقُولُونَ: أَدْرَكْنَا آبَاءَنَا عَلَى هَذِهِ الْكَلِمَةِ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله، فَنَحْنُ نَقُولُهَا»

[رواه ابن ماجه، وصححه الألباني].

وعن ثوبان قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**يوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمُ الأُمَمُ مِنْ كُلِّ أُفُقٍ كَمَا تَدَاعَى الأُكَلَةُ عَلَى قَصْعَتِهَا**». قَالَ: قُلْنَا يَا رَسُولَ الله، أَمِنْ قِلَّةٍ بِنَا يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: «**أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنْ تَكُونُونَ غُثَاءً كَغُثَاءِ السَّيْلِ يَنْتَزِعُ الْمَهَابَةَ مِنْ قُلُوبِ عَدُوِّكُمْ وَيَجْعَلُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهَنَ**». قَالَ: قُلْنَا: وَمَا الْوَهَنُ؟ قَالَ: «**حُبُّ الْحَيَاةِ وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ**» [رواه أحمد، وصححه الألباني].

وعن عبد الله بن عمرو رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إِنَّ اللهَ لاَ يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا، يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا، اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالاً، فَسُئِلُوا، فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا**» [رواه البخاري].

وعن أبي أمية الجمحي أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُلْتَمَسَ الْعِلْمُ عِنْدَ الْأَصَاغِرِ**» [السلسلة الصحيحة].

وعن زينب بنت جحش رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «**نَعَمْ، إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ**» [رواه البخاري].

وعن حذيفة قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تَكُونُ فِتْنَةٌ تَعْرُجُ فِيهَا عُقُولُ الرِّجَالِ حَتَّى مَا تَكَادُ تَرَى رَجُلًا عَاقِلًا**» [رواه نعيم في الفتن وصححه الهندي].

وقال حذيفة: «ما الخمر صرفًا بأذهب بعقول الرجال من الفتنة» [المصدر السابق].

وعن عبد الله بن مسعود قال: «أخاف عليكم فتنًا كأنها الدخان، يموت فيها قلبُ الرجل كما يموت بدنه» [المصدر السابق].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ**» [رواه مسلم]، وفي رواية: «**طُوبَى لِلْغُرَبَاءِ**». **فَقِيلَ**: مَنِ الْغُرَبَاءُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**أُنَاسٌ صَالِحُونَ فِي أُنَاسِ سَوْءٍ كَثِيرٍ مَنْ يَعْصِيهِمْ أَكْثَرُ مِمَّنْ يُطِيعُهُمْ**» [رواه أحمد، وصححه الألباني].

فالإسلام بدأ غريبًا كما بدأ في مكة، ثم عاد الإسلام غريبًا بعد انتشاره، فصارت السنة بدعة والبدعة سنة، وإذا قلتَ فعل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يقولون قال فلان، وفعل فلان، ولم نجد آباءنا يفعلون ذلك.

وقد بشَّر رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الغرباء بشجرة طوبى، قال رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «طُوبَى شَجَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ، مَسِيرَةُ مِائَةِ عَامٍ، ثِيَابُ أَهْلِ الْجَنَّةِ تَخْرُجُ مِنْ أَكْمَامِهَا» [صحيح الجامع].

وعن حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه قال: كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْخَيْرِ وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ؛ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ فَجَاءَنَا اللهُ بِهَذَا الْخَيْرِ، فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ شَرٌّ؟ قَالَ: «نَعَمْ»، فَقُلْتُ: هَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ: «نَعَمْ وَفِيهِ دَخَنٌ». قُلْتُ: وَمَا دَخَنُهُ؟ قَالَ: «قَوْمٌ يَسْتَنُّونَ بِغَيْرِ سُنَّتِي وَيَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ». فَقُلْتُ: هَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: «نَعَمْ دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا». فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، صِفْهُمْ لَنَا. قَالَ: «نَعَمْ قَوْمٌ مِنْ جِلْدَتِنَا وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا». قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، فَمَا تَرَى إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟ قَالَ: «تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ». فَقُلْتُ: فَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلاَ إِمَامٌ؟ قَالَ: «فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ عَلَى أَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ» [رواه البخاري ومسلم].

أنواع الفتن

أولًا- فتنة الشهوات:

وهي التي يفعلها العبد بشهوة كما قال تعالى: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِۚ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴾ [الأحزاب:٣٢]، فيطمع الذي في قلبه مرض الزن والشهوة وفتنة الشهوات مثل النساء، كما قال

رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ» [رواه مسلم].

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا تَرَكْتُ بَعْدِى فِتْنَةً هِىَ أَضَرُّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ» [رواه مسلم].

ومثل فتنة المال كما قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَةً وَفِتْنَةُ أُمَّتِي الْمَالُ» [الترمذي، وصححه الألباني].

ومنها الرشوة والمناصب والجاه والسلطة، كما قال تعالى: ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَـٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَـٰقِكُمْ﴾ [التوبة:٦٩]، أي تمتعوا بنصيبهم من الدنيا وشهواتها والخلاق هو النصيب المقدر.

ثانيًا- فتنة الشبهات:

وهي أخطر من فتنة الشهوات لأن فتنة الشبهات تُبعد الإنسان عن الانقياد لله والاستسلام لشرع الله، فيظن أنه على الحق وهو على الباطل ويظن أنه على الهدى وهو على الضلال، ويظن أنه يتبع سبيل المؤمنين، وهو يتبع سبيل الشياطين، ويظن أنه يفعل ما يرضي الله، وهو يفعل أنه يفعل السنة، وهو يفعل البدعة، قال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة:١٠]، في قلوبهم مرض الشك والريب والشبهة.

قال الإمام ابن القيم: «وهذه الفتنة مآلها إلى الكفر والنفاق، وهي فتنة المنافقين، وفتنة أهل البدع على حسب مراتب بدعهم، فجميعهم إنما ابتدعوا من فتنة الشبهات التي اشتبه عليهم فيها الحق بالباطل والهدى بالضلال، ولا ينجي من هذه الفتنة إلا تجريد اتباع الرسول، وتحكيمه في دق الدين وجله، ظاهره وباطنه، عقائده وأعماله، حقائقه وشرائعه، فيتلقى عنه حقائق الإيمان وشرائع الإسلام» [إغاثة اللهفان].

❋ ❋ ❋

١٠- مسح رأس اليتيم

أتى رجل يشتكي قساوة قلبه للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فقال: **أَتُحِبُّ أَنْ يَلِينَ قَلْبُكَ ؟**»، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «**فَأَدْنِ الْيَتِيمَ إِلَيْكَ، وَامْسَحْ بِرَأْسِهِ، وَأَطْعِمْهُ مِنْ طَعَامِكَ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُلَيِّنُ قَلْبَكَ، وَتَقْدِرُ عَلَى حَاجَتِكَ**» [صحيح الجامع].

وعن سهل بن سعد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ كَهَاتَيْنِ فِي الْجَنَّةِ وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى وَفَرَّقَ بَيْنَهُمَا قَلِيلًا**» [رواه الإمام أحمد صحيح الجامع].

فقد بين النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الحديث العظيم أن من أراد أن يصلح قلبه ويدرك حاجته فليمسح على رأس اليتيم ويدنيه منه ويطعمه مما يطعم ويعوضه حرمان أباه وأن يسعى بكفالته المادية والمعنوية ويسعى في إدخال السرور والفرح على قلبه في كل وقت، ولكن مع الأسف الشديد كثير من الناس يغفل عن هذا بل يدخل الحزن على اليتيم بقصد وبغير قصد ونسى أن من الممكن أن يكون ولده مثل هذا فيما بعد ويتمنى أن يعطف عليه ويواسى أحزانه.

* * *

١١- زيارة المريض

خصوصًا معاهد الكبد والأورام، والقلب والصدر وغيرها، فإن لها تأثير عجيب في رقة القلب، وعندها يعلم العبد نعمة الصحة والعافية.

فضائل زيارة المريض:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إن الله** عَزَّ وَجَلَّ **يقول يوم القيامة: يَا ابْنَ آدَمَ، مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي قَالَ: أَيْ رَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ فَيَقُولُ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ وَجَدْتَنِي عِنْدَهُ**» [صحيح مسلم].

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**عُودُوا الْمَرِيضَ، وَأَطْعِمُوا الْجَائِعَ، وَفُكُّوا الْعَانِيَ**».

[صحيح البخاري]

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا عَادَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ لَمْ يَزَلْ فِي خُرْفَةِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَرْجِعَ**»، قيل: يا رسول الله! وما خرفة الجنة؟ قال: «**جناها**» [صحيح مسلم].

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ عَادَ مَرِيضًا، أَوْ زَارَ أَخًا لَهُ فِي اللهِ، نَادَاهُ مُنَادٍ، أَنْ: طِبْتَ وَطَابَ مَمْشَاكَ، وَتَبَوَّأْتَ مِنَ الْجَنَّةِ مَنْزِلًا**» [صحيح الجامع].

❊ ❊ ❊

١٢- الخوف من موت الفجأة

فإن من علامات الساعة موت الفجأة، فتخاف أن تموت على معصية فتكون سوء خاتمة عياذًا بالله من ذلك، فهذا يجعلك تسارع فى الطاعة.

تــزود من التقوى فإنك لا تدرى ... إذا جن الظلام هل تعيش إلى الفجر
وكم من صغار يرجى طول عمرهم ... وقد أدخلت أرواحهم ظلمة القبر
وكم من سليم مات من غير علة ... وكم من سقيم عاش حين من الدهر
وكم من فتى يمسي ويصبح لاهيًا ... وقد نسجت أكفانه وهو لا يدرى
فكن مخلصًا واعمل الخير دائمًا ... لعلك تحظـى بـالمـثـوبـة والأجــر

***

١٣- كثرة تذكر الموت

إن أعظم شيء يعين السالك إلى الله عَزَّوَجَلَّ وهو كثرة ذكرا الموت والإستعداد له والعمل لما بعد الموت أن الدنيا ليست لحي وطنا، ويرى كيف تصنع الدنيا بأهلها.

وكل من تعلق بالدنيا عُذِب بثلاثة أشياء: **الأولى**- أنه عُذِب في تحصيلها من مال ومناصب وغيرها من الشهوات.

الثانية- أنه عُذِب بها عندما تركها، ولم يأخذ منها شيئاً، وترك غيره يتمتع بما تركه، فضيع آخرته لدنيا غيره، فلا حصل دنيا ولا كسب آخرة.

الثالثة- أنه عُذِب بها في القبر ويوم القيامة عندما يرى أنه أضاع حياته فيما لا ينفعه في الآخرة.

قال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وقال تعالى: ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًاۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾ [لقمان: ٣٤].

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المنافقون: ٩ - ١١].

وقال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩٩ - ١٠٤].

وقال رسول الله ﷺ: «أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ. يَعْنِي الْمَوْتَ»(١).

وقال رسول الله ﷺ: «أكثر ذكر هاذم اللذات، الموت، فإنه لم يذكره أحد في ضيق من العيش إلا وسعه عليه، ولا ذكره في سعة إلا ضيقها عليه»(٢).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «كُنْتُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ، فَجَاءَهُ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ، فَسَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ الله، أَيُّ الْمُؤْمِنِينَ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا»، قَالَ: فَأَيُّ الْمُؤْمِنِينَ أَكْيَسُ؟ قَالَ: «أَكْثَرُهُمْ لِلْمَوْتِ ذِكْرًا، وَأَحْسَنُهُمْ لِمَا بَعْدَهُ إِسْتِعْدَادًا، أُولَئِكَ الأَكْيَاسُ»(٣).

وقال أحد السلف: «أربعة من الشقاء: جمود العين، وقسوة القلب، وطول الأمل، والحرص على الدنيا».

---

(١) صحيح الجامع [١٢٠١]
(٢) صحيح الجامع [١٢١١]
(٣) حسن، ابن ماجه [٣٣٤٣٥].

وعن البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كُنَّا مَعَ رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي جِنَازَةٍ، فَجَلَسَ عَلَى شَفِيرِ الْقَبْرِ، فَبَكَى، حَتَّى بَلَّ الثَّرَى، ثُمَّ قَالَ: يَا إِخْوَانِي لِمِثْلِ هَذَا فَأَعِدُّوا»(١).

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ، وَلَا يَزْدَادُ النَّاسُ عَلَى الدُّنْيَا إِلَّا حِرْصًا، وَلَا يَزْدَادُونَ مِنَ اللهِ إِلَّا بُعْدًا»(٢).

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْجَنَّةُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ» [صحيح البخاري].

وعن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «اعْبُدِ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ كُنْتُ لَا تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ، وَاحْسُبْ نَفْسَكَ فِي الْمَوْتَى»(٣).

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا اسْتَعْمَلَهُ. فَقِيلَ: كَيْفَ يَسْتَعْمِلُهُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: يُوَفِّقُهُ لِعَمَلٍ صَالِحٍ قَبْلَ الْمَوْتِ»(٤).

تذكر الموت دأب الصالحين

فهو سمتهم ودأبهم، وهو طريق السلف الطاهرين.

قال الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ: «فضح الموت الدنيا فلم يترك لذي لُبٍّ فرحًا».

وقال الربيع بن خثيم: «ما غائب ينتظره المؤمن خيراً له من الموت».

---

(١) صحيح ابن ماجه [٣٣٨٣].
(٢) صحيح الجامع [١١٤٦].
(٣) صحيح الجامع [١٠٣٨].
(٤) صحيح الجامع [٣٠٥].

وكان الربيع قد حفر قبرًا في داره فكان ينام فيه كل يوم ليذكر الموت، وكان **يقول**: «لو فارق الموت قلبي ساعة لفسد».

وكان أبو هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ إذا رأى أحداً يحمل جنازة يقول لها: «امضِ إلى ربك فإنا على أثرك ماضون».

وكان مكحول يقول إذا رأى جنازة: «موعظة بليغة قليلة، وغفلة شنيعة يذهب الأول، والآخرة لا يعتبر».

وكان الأعمش يقول: كنا نشهد الجنائز ولا نعرف من يُعزَّى لأن الحزن قد عم الناس كلهم.

وكان ثابت يقول: كنا نشهد الجنائز فلا نرى إلا متلفعًا باكيًا.

وكان عمر بن العزيز يجمع الفقهاء فيتذكرون الموت والقيامة والآخرة ثم يبكون حتى كان بين أيديهم جنازة.

وقال إبراهيم التيمي: «شيئان قطعا عني لذة الدنيا: ذكر الموت، والوقوف بين يدي الله تعالى».

وكان محمد بن واسع إذا قيل له: كيف أصبحت؟ قال ما ظنك برجل يرحل في كل يوم إلى الآخرة مرحلة؟

وكان عون يقول: كم من مستقبل يومًا لا يستكمله! ومنتظر غدًا لا يبلغه! لو تنظرون إلى الآجل ومسيره لأبغضتم الأمل وغروره.

١٤- زيارة القبور

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ، أَلَا فَزُورُوهَا فإنها تُرِقُّ الْقَلْبَ، وَتُدْمِعُ الْعَيْنَ، وَتُذَكِّرُ الآخِرَةَ»[١].

أخي السالك إلى الله عَزَّوَجَلَّ، هي وصية جامع من وصايا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التي ترقق القلبَ، وتُدمع العينَ، وتذكر بالآخرة، فاذهب إلى القبور، فهذا دأب الصالحين خصوصاً ليلاً، واجلس عند القبور، وإذا استطعت أن تنظر إلى رجل في سكرات الموت، أو غسل ميت، أو تدخلفي دفن ميت القبرَ، أو تجلس في وسط القبور، وتتفكر كثيراً بقلبك إذا أنا متُّ الآن هل ستأتيني ملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب؟ وهل يقول لي ملك الموت عند خروج الروح: «أخرجي أيتها الروح الطيبة التي كانت في الجسد الطيب إلى ربٍّ راضٍ عنك غير غضبان»؟ أم يقول: «أخرجي أيتها الروح الخبيثة التي كانت في الجسد الخبيث إلى ربٍّ عليك غضبان؟ وهل ستجيب على أسئلة الملائكة أم لا؟».

وهل جليسي في القبر سيكون الجليس الصالح أم الجليس السوء؟

وهل سيكون قبرى روضة من رياض الجنة أم حفرة من حفر النيران؟

ويوم القيامة هل ستكون ممن يُظَلُّ أم ستكون من الذين دنت منهم الشمس ووقفوا خمسين ألف سنة في العرق؟

---

(١) صحيح الجامع [٤٤٦٠].

وهل ستأخذ كتابك باليمين فتكون من السعداء، أم ستأخذ بالشمال فتكون من الأشقياء؟

وهل سيكون حسناتى أثقل من سيئاتى في الميزان فتكون من المفلحين، أم ستكون سيئاتك أكثر من حسناتك فتكون من الخاسرين؟

وإذا وقفت بين يدي ربك وسألك عن كل شيء فعلته، هل أعددت لكل سؤال جواباً؟

وهل ستمر على الصراط كالبرق أو الريح أو كالخيل أم تتخطفك الكلاليب وتسقط في جهنم؟

وهل ستدخل الجنة وتنعم فيها، وتتمتع برؤية الله عَزَّوَجَلَّ أم ستكون في النار مع فرعون وهامان وقارون وغيرهم؟

ولقد أحسن القائل:

إن لله عـــبــــاداً فـطـنـا ... طـلـقـوا الدنـيـا وخـافـوا الفتنا

نـظــروا فـيـهـا فـلـمـا عـلـمـوا ... أنــا لــيـســت لــحيّ وطـنـا

جـعـلـوهـا لجــة واتخــــذوا ... صـالـح الأعـمـال فـيـهـا سُفُنـا

***

١٥-١٦- تذكر نعيم الجنة وجحيم النار

إن من أعظم التربية هي التربية على الجنة والنار، وهي سبب في زيادة الإيمان، وهي التي تجعل العبد يسارع في الخيرات ويترك المنكرات.

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: إن أول ما نزل من القرآن سورة فيها ذكر الجنة والنار، تعني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا سورة المدثر، وهي ثاني سورة نزولاً، وفيها يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [المدثر: ٣٨ - ٤١]، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل من أول الأمر: لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنا أبداً، ولو نزل: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبداً، أنزل على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنا جارية ألعب: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٦]، وما نزلت البقرة والنساء إلا وأنا عنده بالمدينة».

فلا شك في أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مكة كان أكبر همه تربية الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؛ ومن أجل الاهتمام بالتربية أمروا بكف الأيدي وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [النساء: ٧٧]، ومن أجل الاهتمام بالتربية أيضاً نهوا عن رد الإعتداء، وأُمِروا بالعفو والصفح، كما قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ [الجاثية: ١٤]؛ حتى لا يُشغلوا بالمعارك الجانبية عن التفرغ للتربية.

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا **قال:** «عشنا برهة من الدهر وكان أحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن» [التربية على منهج أهل السنة والجماعة].

فمن تأمل لقلبه نعيم الجنة، وأن فيها ما تشتهي النفس وتلذ الأعين، فلا شك أن هذا يزيد الإيمان.

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**سَأَلَ مُوسَى رَبَّهُ مَا أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً قَالَ هُوَ رَجُلٌ يَجِيءُ بَعْدَ مَا أُدْخِلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ فَيُقَالُ لَهُ ادْخُلِ الْجَنَّةَ. فَيَقُولُ أَىْ رَبِّ كَيْفَ وَقَدْ نَزَلَ النَّاسُ مَنَازِلَهُمْ وَأَخَذُوا أَخَذَاتِهِمْ فَيُقَالُ لَهُ أَتَرْضَى أَنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلُ مُلْكِ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ رَضِيتُ رَبِّ. فَيَقُولُ لَكَ ذَلِكَ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ. فَقَالَ فِي الْخَامِسَةِ رَضِيتُ رَبِّ. فَيَقُولُ هَذَا لَكَ وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ وَلَكَ مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ وَلَذَّتْ عَيْنُكَ. فَيَقُولُ رَضِيتُ رَبِّ. قَالَ رَبِّ فَأَعْلاَهُمْ مَنْزِلَةً قَالَ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْتُ غَرَسْتُ كَرَامَتَهُمْ بِيَدِى وَخَتَمْتُ عَلَيْهَا فَلَمْ تَرَ عَيْنٌ وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ**» [صحيح مسلم].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «قُلْنَا: يَا رَسُولَ الله، حَدِّثْنَا عَنِ الْجَنَّةِ، مَا بِنَاؤُهَا؟ قَالَ: «**لَبِنَةُ ذَهَبٍ وَلَبِنَةُ فِضَّةٍ، وَمِلاَطُهَا الْمِسْكُ الأَذْفَرُ، وَحَصْبَاؤُهَا اللُّؤْلُؤُ وَالْيَاقُوتُ، وَتُرَابُهَا الزَّعْفَرَانُ**»»(١).

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ لِلْمُؤْمِنِ فِي الْجَنَّةِ لَخَيْمَةً مِنْ لُؤْلُؤَةٍ وَاحِدَةٍ مُجَوَّفَةٍ طُولُهَا سِتُّونَ مِيلاً لِلْمُؤْمِنِ فِيهَا أَهْلُونَ يَطُوفُ عَلَيْهِمُ الْمُؤْمِنُ فَلاَ يَرَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا**» [صحيح مسلم].

---

(١) صحيح الجامع [٦٦٠٨].

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لَا يَقْطَعُهَا وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ» [صحيح البخاري]، ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ [الواقعة: ٣٠].

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَأْكُلُ أَهْلُ الجَنَّةِ فِيهَا وَيَشْرَبُونَ وَلاَ يَتَغَوَّطُونَ وَلاَ يَمْتَخِطُونَ وَلاَ يَبُولُونَ وَلَكِنْ طَعَامُهُمْ ذَاكَ جُشَاءٌ كَرَشْحِ الْمِسْكِ يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالْحَمْدَ كَمَا يُلْهَمُونَ النَّفَسَ» [رواه مسلم].

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «والذي نفس محمد بيده، إن أحدهم ليُعطى قوة مائة رجل في الأكل والشراب والجماع»(١).

وقال تعالى: ﴿ وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴾ [الإنسان: ١٤].

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يَنْعَمُ لاَ يَبْأَسُ لاَ تَبْلَى ثِيَابُهُ وَلاَ يَفْنَى شَبَابُهُ» [صحيح مسلم].

وقال تعالى: ﴿ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾ [محمد: ١٥].

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ أَوَّلَ زُمْرَةٍ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ وَالَّتِي تَلِيهَا عَلَى أَضْوَإِ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ اثْنَتَانِ يُرَى مُخُّ سُوقِهِمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ وَمَا فِي الْجَنَّةِ أَعْزَبُ» [البخاري ومسلم].

(١) صحيح الجامع [١٦٢٧].

وقال تعالى: ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴾ [الرحمن: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾ [الرحمن: ٥٦ - ٥٨].

وقال تعالى: ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ [الواقعة: ٢٧ - ٣٤].

وقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ فِى الْجَنَّةِ لَسُوقًا يَأْتُونَهَا كُلَّ جُمُعَةٍ فَتَهُبُّ رِيحُ الشَّمَالِ فَتَحْثُو فِى وُجُوهِهِمْ وَثِيَابِهِمْ فَيَزْدَادُونَ حُسْنًا وَجَمَالاً فَيَرْجِعُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ وَقَدِ ازْدَادُوا حُسْنًا وَجَمَالاً فَيَقُولُ لَهُمْ أَهْلُوهُمْ وَاللهِ لَقَدِ ازْدَدْتُم بَعْدَنَا حُسْنًا وَجَمَالاً. فَيَقُولُونَ وَأَنْتُمْ وَاللهِ لَقَدِ ازْدَدْتُم بَعْدَنَا حُسْنًا وَجَمَالاً» [صحيح مسلم].

وقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّوَجَلَّ، ثُمَّ تَلاَ» [صحيح مسلم]، هَذِهِ الآيَةَ ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس: ٢٦].

ومن تأمل بقلبه عذاب أهل النار خاف وزاد إيمانه، قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا رَأَيْتُ مِثْلَ النَّارِ نَامَ هَارِبُهَا وَلاَ مِثْلَ الْجَنَّةِ نَامَ طَالِبُهَا»[1] .

---

(١) صحيح الجامع [٥٦٢٢].

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ رَأَيْتُمْ مَا رَأَيْتُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا. قَالُوا وَمَا رَأَيْتَ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: رَأَيْتُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ» [صحيح مسلم].

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا» [صحيح مسلم].

وعن أبي هريرة عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «نَارُكُمْ هَذِهِ الَّتِي يُوقِدُ ابْنُ آدَمَ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ. قَالُوا: وَاللهِ إِنْ كَانَتْ لَكَافِيَةً يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: فَإِنَّهَا فُضِّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا كُلُّهَا مِثْلُ حَرِّهَا» [صحيح البخاري ومسلم].

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩]، قال: وادٍ في جهنم يقذف الذين يتبعون الشهوات. وقال: نهر في جهنم بعيد القعر خبيث الطعم.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ سَمِعَ وَجْبَةً فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: تَدْرُونَ مَا هَذَا؟ قَالَ قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: هَذَا حَجَرٌ رُمِىَ بِهِ فِى النَّارِ مُنْذُ سَبْعِينَ خَرِيفًا فَهُوَ يَهْوِى فِى النَّارِ الآنَ حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَعْرِهَا» [صحيح مسلم].

وقال تعالى: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ [إبراهيم: ١٦ – ١٧].

وقال تعالى: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥].

وقال تعالى: ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ [الكهف: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴾ [الدخان: ٤٣ – ٤٨].

قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «يُدْخِلُ اللَّهُ أَهْلَ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَيُدْخِلُ أَهْلَ النَّارِ النَّارَ ثُمَّ يَقُومُ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ فَيَقُولُ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ لاَ مَوْتَ وَيَا أَهْلَ النَّارِ لاَ مَوْتَ كُلٌّ خَالِدٌ فِيمَا هُوَ فِيهِ» [صحيح البخاري ومسلم].

ذكرنا شيئًا يسيرًا عن الجنة والنار للتذكرة فقط، وإذا أردت المزيد فارجع إلى الكتب التي صُنِّفت في الجنة والنار.

* * *

١٧- ترى رجل يحتضر

بأن تدخل على رجل في سكرات الموت، وتنظر إليه، وهو لا يملك لنفسه ضرًا، ولا نفعًا، وتتذكر أنك ستمر بهذه اللحظات العصيبة التي لا يعلمها إلا الله فيسارع إلى فعل الخيرات، والأعمال الصالحات، دخل الحسن البصري على رجل وهو في سكرات الموت فرجع الحسن ووجه متغير فقال: إني رأيت مشهد سأظل أعمل له حتى ألقاه.

❋ ❋ ❋

١٨- تدخل غسل

حاول أن تدخل في غسل ميت فإن له تأثير عجيب في رقة القلب فتنظر إلى الميت، وهو يجرد من ثيابه، ويعرى، ولا يستطيع أن يحرك ساكنًا، ولا يسكن متحرك، وتراهم وهم يقلبوه يمنة، ويسرة، وترى الصالحين وتعلوهم الإبتسامة والنور الذي في الوجه فتعلم حقارة الدنيا، وأنها لا تدوم لأحد، وأن الميت لا يأخذ شئ معه إلا العمل كما قال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَتْبَعُ المَيِّتَ ثَلَاثٌ، فَيَرْجِعُ اثْنَانِ وَيَبْقَى وَاحِدٌ، يَتْبَعُهُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ، فَيَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَيَبْقَى عَمَلُهُ**» [رواه الترمذي، صحيح الجامع].

* * *

١٩- أن تدخل في دفن ميت

فإذا دخلت القبر، ورأيت الجثث، وأنهم كانوا أحياء يمشون على الأرض، وكان فيهم الطبيب، والمهندس، والضابط، والمدير، والمدرس، وصاروا عظامًا نخرة وأكلهم الدود، وفراشهم الوحل، والتراب، ورائحتهم أنتن من جيفة الحيوان فيعلم أن الإنسان لا يساوي شئ إلا بالعمل الصالح.

* * *

٢٠- الخلوة بالله تعالى

فلابد للعبد من ساعة يخلو بها بربه تعالى يشتكي له همومه، وأمراض قلبه خصوصًا في الثلث الأخير وقت التنزل الإلهي قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ يَقُولُ مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ» [صحيح البخاري].

فضائل قيام الليل

دخول غرفة الجنة

قال رسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ غُرَفًا يُرَى ظَاهِرُهَا مِنْ بَاطِنِهَا وباطنها من ظَاهِرِهَا أعدهَا الله لِمَنْ أَطْعَمَ الطَّعَامَ وَأَفْشَى السَّلامَ وَصَلَّى بِاللَّيْلِ وَالنَّاس نيام» [صحيح الترغيب].

من صفات عباد الرحمن

قال تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴾ [الفرقان:٦٣-٦٤].

من صفات المتقين

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الذاريات:١٥-١٨].

الأجر الذي لا يعلمه إلا الله

قال تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة:١٦-١٧].

قال ابن القيم: أخفوا العمل عن الناس فأخفى الله عنهم الأجر.

ولما كانت قرة عينهم في الصلاة وعدهم الله بما تقر أعينهم في الجنة والجزاء من جنس العمل.

دأب الصالحين

قال رسول ﷺ: «**عَلَيْكُمْ بِقِيَامِ اللَّيْلِ فَإِنَّهُ دَأْبُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ، وَمَقْرُبَةٌ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ، وَمَكْفَرَةٌ لِلسَّيِّئَاتِ، وَمَنْهَاةٌ عَنِ الْإِثْمِ**» [صحيح الترغيب].

دخول الجنة بسلام

قال رسول ﷺ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَفْشُوا السَّلَامَ وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ وَصِلُوا الْأَرْحَامَ وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ**» [صحيح الترغيب].

❊ ❊ ❊

٢١- قلة المخالطة

خصوصًا في هذا الزمان الذي كثرت فيه فتن الشهوات والشبهات وصار الإسلام غريبًا كما بدأ وصار الحليم حيران.

فعن عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قُلْتُ يَا رَسُولَ الله مَا النَّجَاةُ. قَالَ: «**أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ**» [صحيح الجامع].

وليسعك بيتك

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**.... وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ**» [رواه أحمد، صحيح الجامع].

وقال الله تعالى: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴾ [الذاريات:٥٠].

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِيَّ، الْغَنِيَّ، الْخَفِيَّ**» [رواه مسلم].

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رجل: أي الناس أفضل يا رسول الله؟ قال: «**مُؤْمِنٌ مُجَاهِدٌ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ**»، قال: ثم من؟ قال: «**ثم رجل منعزل في شعب من الشعاب يعبد ربه**»، وفي رواية: «**يتقي الله ويدع الناس من شره**» [متفق عليه].

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ الْمُسْلِمِ غَنَمٌ يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ، يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنَ الْفِتَنِ**» [رواه البخاري].

وتشتد الحاجة إلى أن يسع العبد بيته في زمان كثُرت فيه فتن الشبهات والشهوات، فقد قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا» [رواه مسلم].

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ زَمَانَ صَبْرٍ، للمُتَمَسِّكِ فِيهِ أَجْرُ خَمْسِينَ شَهِيدًا مِنْكُمْ» [صحيح الجامع].

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامَ الصَّبْرِ لِلْمُتَمَسِّكِ فِيهِنَّ يَوْمَئِذٍ بِمَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ»، قَالُوا: يَا نَبِيَّ اللهِ أَوَ مِنْهُمْ؟ قَالَ: «بَلْ مِنْكُمْ» [السلسلة الصحيحة].

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ، عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ، مُجَخِّيًا لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ» [رواه مسلم].

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ سَنَوَاتٌ خَدَّاعَاتٌ، يُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ، وَيُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ، وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ، وَيُخَوَّنُ فِيهَا الْأَمِينُ، وَيَنْطِقُ فِيهَا الرُّوَيْبِضَةُ»، قِيلَ: وَمَا الرُّوَيْبِضَةُ؟ قَالَ: «الرَّجُلُ التَّافِهُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ» [صحيح الجامع].

وقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ النَّاسِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَتْرُكْ عَالِمًا، اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤَسَاءَ جُهَّالًا، فَسُئِلُوا، فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا، وَأَضَلُّوا» [رواه مسلم].

وقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الْفِتَنُ، وَلِمَنْ ابْتُلِيَ فَصَبَرَ» [صحيح الجامع].

العزلة أم المخالطة ؟

اختلف العلماء في العزلة أم المخالطة أيتهما أفضل؟

ففريق قال: العزلة أفضل، منهم: سفيان الثوري، وإبراهيم بن أدهم، وداود الطائي، والفضيل، وبشر الحافي، وغيرهم.

وفريق قال: المخالطة، منهم: سعيد بن المسيب، وشريح والشعبي، وابن المبارك، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وغيرهم.

وحجة من قال العزلة أفضل منها قول رسول الله ﷺ: «رَجُلٌ جَاهَدَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، وَرَجُلٌ فِي شِعْبٍ مِنَ الشِّعَابِ: يَعْبُدُ رَبَّهُ، وَيَدَعُ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ» [رواه البخاري ومسلم]، وحديث: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ».

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «خذوا بحظكم من العزلة».

وقال سعد بن أبي وقاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «لوددت أن بيني وبين الناس بابًا من حديد لا يكلمني أحد ولا أكلمه حتى ألقى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ».

وقال ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «كونوا ينابيع العلم، ومصابيح الليل، أجلاس البيوت، جدد القلوب، خلقان الثياب، تُعرفون في أهل السماء، وتخفون على أهل الأرض».

وقال أبو الدرداء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «نعم صومعة المرء المسلم بيته، يكف لسانه، وفرجه، وبصره، وإياكم ومجالس الأسواق، فإنها تلهى وتلغي».

وقال داود الطائي: «فر من الناس كما تفر من الأسد».

وقال أبو مهلهل: أخذ بيدي سفيان الثوري وأخرجني إلى الجبانة (المقابر) فاعتزلنا ناحية، فبكي ثم قال: «يا أبا مهلهل إن استطعت أن لا تخالط في زمانك أحدًا فافعل، وليكن همك مرمة جهازك».

وأما حجة من اختار المخالطة:

فمن ذلك قول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ، وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ، خَيْرٌ مِنَ الَّذِي لَا يُخَالِطُ النَّاسَ، وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ**» [صحيح الترمذي].

وقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٢] [انظر: منهاج القاصدين].

وقال الإمام ابن القيم: والجمع بين العزلة والمخالطة، تُخالط الناس في الطاعات مثل الجمعة والجمعات والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واتباع الجنائز وعيادة المرضى ومجالس العلم والحج والجهاد وغيرها من الطاعات، وتعتزل الناس في المعاصي والمُباحات.

فوائد العزلة

الفائدة الأولى- الفراغ للعبادة والاستئناس بمناجاة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإن ذلك يستدعي فراغًا، ولا فراغ مع المخالطة، فالعزلة وسيلة إلى ذلك خصوصًا في البداية.

وقيل لبعض الحكماء: إلى أي شيء أفضى بهم الزهد والخلوة؟ قال: «إلى الأنس بالله».

وقال أويس القرني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ما كنت أرى أحدًا يعرف ربه فيأنس بغيره».

الفائدة الثانية- التخلص بالعزلة عن المعاصي التي يتعرض لها الإنسان غالبًا بالمخالطة منها الغيبة، فإن عادة الناس التمضمض بالأعراض والتفكه بها، والنميمة والرياء، ومنها مسارقة الطبع من أخلاقهم الرديئة، وهو داء دفين قلما ينتبه له العقلاء فضلًا عن الغافلين، فإن الطبع يسرق صاحبه، فإذا جلست مع أهل الذنوب والمعاصي فترة تجد قلبك تغير ولو بشيئ قليل، وعندما تُجالس أهل الكبائر ترضى عن نفسك وتظن أنك عابر، وبالعكس إذا قرأت سير السلف في الزهد والتعبد لاحتقرت نفسك واستصغرت عبادتك.

الفائدة الثالثة- الخلاص من الفتن والخصومات وصيانة الدين عن الخوض فيه، فإنه قلما تخلو البلاد من العصبية والخصومات والمعتزل عنهم سليم.

وقال ابن عمرو رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ذكر الفتن ووصفها وقال: «**إِذَا رَأَيْتَ النَّاسَ قَدْ مَرِجَتْ عُهُودُهُمْ، وَخَفَّتْ أَمَانَاتُهُمْ، وَكَانُوا هَكَذَا**»، وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ، قَالَ: فَقُمْتُ إِلَيْهِ، فَقُلْتُ لَهُ: كَيْفَ أَفْعَلُ عِنْدَ ذَلِكَ، جَعَلَنِي الله فِدَاكَ؟ قَالَ: «**الْزَمْ بَيْتَكَ، وَامْلِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، وَخُذْ مَا تَعْرِفُ، وَدَعْ مَا تُنْكِرُ، وَعَلَيْكَ بِأَمْرِ خَاصَّةِ نَفْسِكَ، وَدَعْ عَنْكَ أَمْرَ الْعَامَّةِ**» [صحيح أبوداود].

الفائدة الرابعة- الخلاص من شر الناس فإنهم يؤذونك مرة بالغيبة، ومرة بالنميمة، ومرة بسوء الظن، ومرة بالتهمة، ومن خالط الناس لم ينفك من حاسد وعدو، وغير ذلك من أنواع الشر التي يلقاها الإنسان من معارفه، وفي العزلة خلاص من ذلك؟

قال عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «في العزلة راحة من خلطاء السوء».

وقال إبراهيم بن أدهم: «لا تتعرف إلى من لا تعرف وأنكر من تعرف».

الفائدة الخامسة- أن ينقطع طمع الناس عنك، وطمعك عنهم، فإن رضا الناس غاية لا تدرك، ومن نظر إلى زهرة الدنيا تحرك حرصه، وانبعث بقوة الحرص طمعه، ولا يرى إلا الخيبة في أكثر المطامع فيتأذى به.

وفي الحديث: «انْظُرُوا إِلَى مَنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ، وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ فَوْقَكُمْ، فَإِنَّهُ أَجْدَرُ أَنْ لَا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ» [رواه مسلم].

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه:١٣١].

آداب العزلة

١- أن ينوي المعتزل بعزلته كف شره عن الناس، ثم طلب السلامة من شر الأشرار، ثم تجريدًا لهمه لعبادة الله تعالى أبدًا.

٢- ثم ليكن في خلواته مواظبًا على العلم والعمل والذكر والفكر فيجني ثمرة العزلة، وليمنع الناس عن أن يكثروا غشيانه وزيارته ليصفو وقته، وليقنع باليسير من المعيشة وإلا اضطره التوسع إلى مخالطة الناس.

٣- وليكن صبورًا على ما يلقاه من أذى الناس، ولا يصغي إلى الثناء عليه بالعزلة ولا القدح فيه بترك الخلطة؛ فإن ذلك يؤثر في القلب فيقف في طريق الآخرة.

٤- وليكن له جليس صالح يستريح إليه ساعة من كد المواظبة؛ ففي ذلك عون على بقية الساعات، ولا يتم الصبر في العزلة إلا بقطع الطمع عن الدنيا، ولا ينقطع إلا بقصر أمله، فيقدر أنه إذا أصبح لا يمسي وإذا أمسى لا يصبح يسهل عليه صبر يوم.

٥- وليكن كثير الذكر للموت ووحدة القبر متى ضاق عليه قلبه من الوحدة، وليتحقق أن من لم يحصل في قلبه من ذكر الله ومعرفته ما يأنس به لم يطق وحشة الوحدة بعد الموت والمعرفة كما قال تعالى في حق الشهداء: ﴿بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ﴾ [آل عمران:١٦٩].

فضائل المخالطة

١- التعلم والتعليم:

فأما من تعلم الفرض ورأى أنه لا يتأتى من الخوض في العلوم، ورأى الاشتغال بالعبادة؛ فليعتزل، ولهذا قال الربيع بن خيثم: «تفقه ثم اعتزل، والعلم أصل الدين، ولا خير في عزلة العوام». وسئل بعض العلماء: ما تقول في عزلة الجاهل؟ فقال: «خبال ووبال».

٢- النفع والانتفاع:

أما الانتفاع بالناس فبالكسب والمعاملة، والمحتاج إلى ذلك مضطر إلى ترك العزلة، وأما إن كان معه ما يقنعه فالعزلة أفضل، إلا أن يقصد التصدق بكسبه فذلك أفضل من العزلة، إلا أن تكون العزلة مفيدة له معرفة الله تعالى والأنس به وعن كشف وبصيرة.

وأما النفع فهو أن ينفع الناس إما بماله أو ببدنه لقضاء حوائجهم، ومن قدر على ذلك مع القيام بحدود الشرع فهو أفضل من العزلة إن كان عزلته بنوافل الصلوات والأعمال البدنية، وإن كان ممن انفتح له طريق العمل بالقلب وبدوام ذكر أو فكر فذاك الذي لا يعدل به غيره البتة.

٣- التأديب:

ونعني به الارتياض بمقاساة الناس والمجاهدة في تحمل أذاهم وكسر النفس وقهر الشهوات، وإن لم تكسر جمحت، وذلك أفضل من العزلة في حق من لم تتهذب أخلاقه.

٤- الاستئناس والإيناس:

وقد يكون مستحبًا كالإستئناس بأهل التقوى، وقد يقصد به ترويح القلوب من كرب الوحدة فينبغي أن يكون الاستئناس في بعض الساعات بمن لا يفسد بقيتها، وليحرص أن يكون حديثه عند اللقاء في أمور الدين.

٥- نيل الثواب وإنالته:

أما الأول- فبحضور الجنائز وعيادة المرضى وحضور العيدين، أما الجمعة فلابد منه وحضور الجماعة في سائر الصلوات وإجابة الدعوات؛ ففيها ثواب من جهة إدخال السرور على المؤمن.

وأما الثاني- فهو أن يفتح بابه للناس ليعزوه أو يهنئوه أو يعودوه، فإنهم ينالون بذلك ثوابًا، وكذلك إن كان من العلماء فيأذن لهم في زيارته.

ولكن ينبغي أن يزن ثواب هذه المخالطة بآفاتها، فيرجح العزلة أو المخالطة، وقد كان أكثر السلف يؤثرون العزلة عليها.

٦- التواضع:

ولا يتكبر في الوحدة، فقد يكون الكبر سببًا في اختياره العزلة، وعلامة هذه الصفة أنه يحب أن يُزار ولا يحب أن يزور، ويفرح بتقرب السلاطين والعوام إليه واجتماعهم على بابه، وتقبيل يده، فالعزلة بهذا السبب جهل؛ لأن التواضع لا ينقضي من منصب الكبير [انظر: منهاج القاصدين بتصريف].

* * *

٢٢- استقامة اللسان

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ» [صحيح الترغيب].

خطور اللسان

اعلم أخي المسلم أن اللسان صغير حجمه لكن عظيم أجره وجُرمه، فإذا تكلمت فيما يرضي الله تعالى كان لك عظيم الأجر، وإذا تكلمت فيما يسخط الله تعالى مثل الغيبة والنميمة والكذب والفحش فعظيم جرمك.

فالإنسان يدخل الإسلام بكلمة، ويخرج من الإسلام إلى الكفر بكلمة، وبكلمة تحل له إمرأة، وبكلمة تُحرم عليه زوجته، وبكلمة تُقام الحروب، وبكلمة يُصْلَح بين الناس، وبكلمة يُفسَد بين الناس، وقد حذر الله تعالى ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الكلم الذي لا ينفع، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ، مَا يَتَبَيَّنُ مَا فِيهَا، يَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ، أَبْعَدَ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ» [صحيح مسلم].

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ، أَوْ قَالَ: عَلَى مَنَاخِرِهِمْ، إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟» [صحيح جامع].

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا مَعْشَرَ مَنْ أَسْلَمَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يَدْخُلِ الْإِيمَانُ قَلْبَهُ، لَا تُؤْذُوا الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنْ يَتَّبِعْ عَوْرَةَ أَخِيهِ يَتَّبِعِ اللهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ يَتَّبِعِ اللهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ، وَلَوْ فِي جَوْفِ بَيْتِهِ» [رواه الطبراني، صحيح الجامع].

وقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الجَنَّةَ**» [صحيح البخاري].

وقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ**» [صحيح البخاري].

وقال سول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ، دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ**» [صحيح مسلم].

وقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**المُفْلِسُ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ القِيَامَةِ بِصَلَاتِهِ وَصِيَامِهِ وَزَكَاتِهِ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا فَيَقْعُدُ فَيَقْتَصُّ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْتَصّ مَا عَلَيْهِ مِنَ الخَطَايَا أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ**» [الترمذي، صحيح الجامع].

وقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «**مَنْ صَمَتَ نَجَا**» [رواه أحمد، صحيح الجامع].

وقال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**أكثر خطأ ابن آدم في لسانه**» [رواه الطبراني].

واعلم أن صلاح الإنسان بصلاح لسانه، فقد قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ فَإِنَّ الْأَعْضَاءَ كُلَّهَا تُكَفِّرُ اللِّسَانَ تَقُولُ: اتَّقِ اللهَ فِينَا، إِنِ اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنَا، وَإِنِ اعْوَجَجْتَ اعْوَجَجْنَا**» [صحيح الجامع].

وعن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سئل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ أي المسلمين أفضل؟ قال: «مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ» [رواه البخاري].

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلْمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللهِ. مَا كَانَ يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ. يَكْتُبُ اللهُ لَهُ بِهَا رِضْوَانَهُ إِلَى يَوْمِ يَلْقَاهُ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ. مَا كَانَ يَظُنُّ أَنْ يَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ. يَكْتُبُ اللهُ لَهُ بِهَا سَخَطَهُ إِلَى يَوْمِ يَلْقَاهُ» [السلسلة الصحيحة].

وعندما ذكر الصحابة عن أمرأة تُذكر بكثرة صلاة وكثرة صيام وكثرة صدقات ولكن تؤذي جيرانها، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «هي في النار».

حال السلف مع اللسان

عن عبد الله بن أبي أوفي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ الذِّكْرَ، وَيُقِلُّ اللَّغْوَ، وَيُطِيلُ الصَّلَاةَ، وَيُقَصِّرُ الْخُطْبَةَ، وَلَا يَأْنَفُ أَنْ يَمْشِيَ مَعَ الْأَرْمَلَةِ، وَالْمِسْكِينِ فَيَقْضِيَ لَهُ الْحَاجَةَ» [صحيح النسائي].

وقال عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: «طوبى لمن بكى على خطيئته وخزن لسانه ووسعه بيته».

وقال سليمان بن داود عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: «إن كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب».

وكان أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يضع حصاة في فيه، ويمنع بها نفسه عن الكلام، وكان يشير إلى لسانه ويقول: «هذا الذي أوردني الموارد».

وقال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «من كثر كلامه كثر سقطه».

وقال على بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اللسان قوام البدن، فإذا استقام اللسان استقامت الجوارح، وإذا اضطرب اللسان لم تقم له جارحة».

وقال عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «والله الذي لا إله إلا هو ما شيئ أحوج إلى طول سجن من اللسان».

وقال أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لا يتقي الله عَزَّوَجَلَّ رجل حق تقاته حتى يخزن من لسانه».

وكان طاوس رَحِمَهُ اللَّهُ يتعذر من طول السكوت، ويقول: «إني جربت لساني فوجدته لئيمًا»، وقال: «لساني سبع إن أرسلته أكلني»، وقال محمد بن واسع لمالك بن دينار: «يا أبا يحيى؛ حفظ اللسان أشد على الناس من حفظ الدنيا والدرهم». وقال الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما عقل دينه من لم يحفظ لسانه».

وعن الأوزاعي قال: كتب إلينا عمر بن عبد العزيز برسالة قال: «أما بعد: فإنه من أكثر ذكر الموت رضي من الدنيا باليسير، ومن عَدّ كلامه من عمله قل كلامه فيما لا ينفعه».

ومر رجل على لقمان الحكيم فقال له: ما الذي بلغ بك ما أري؟ قال: «صدق الحديث، وطول السكوت عما لا يعنيني».

وقال يزيد بن أبي جبيبك: «من فتنة العالم أن يكون الكلام أحب إليه من الاستماع، وإن وجد ما يكفيه فإن الإسماع سلامة وزيادة في العلم».

[موسوعة نضرة النعيم]

وقال رجل: «صحبت الربيع بن خيثم ما تكلم منذ عشرين سنة كلمة تعاب، كان كلامه يصعد إلى السماء».

يقصد الكلم الطيب كما قال تعالى: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠].

وكان أحد السلف يقول: «إني لأَعُدُّ كلامي من الجمعة إلى الجمعة».

وقال آخر: «سألنا أحد السلف عن كثرة سكوته، فقال: أنتظر رسول ربي». أي: ملك الموت.

وقيل لعبد الله بن المبارك: لماذا لا تجلسنا وتجلس في بيتك أوقات كثيرة؟ قال: مجالسكم مجالس غيبة ونميمة، ولكن أجلس في بيتي مع أصحاب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، قالوا: كيف تجلس معهم؟! قال: أقرأ كلامهم وسيرهم.

فطوبى لعبد إذا تكلم تكلم عن الله، وإن سكت فهو مع الله.

وقال مخلد بن الحسين: «ما تكلمت منذ خمسين سنة بكلمة أريد أن أعتذر منها».

ثانيًا- من فوائد الصمت وحفظ اللسان:

١- دليل كمال الإيمان وحب الإسلام.

٢-السلامة من العطب في المال والنفس والعرض.

٣-دليل حسن الخلق وطهارة النفس.

٤-يثمر محبة الله ثم محبة الناس.

٥-يُهيئ المجتمع الصالح، والنشأ الصالح.

٦-الفوز بالجنة والنجاة من النار.

* * *

٢٣- مجالس العلم

فإن مجالس العلم من أعظم أسباب صلاح القلب لأنك تتعرف على ربك تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وتتعرف على نبيك صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتتعلم دينك، وما ينفعك فى دنياك وأخرتك، وفيها تتنزل الرحمات، وتنزل السكينة التى تزيد الإيمان فقد قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ الله تَعَالَى، يَتْلُونَ كِتَابَ الله وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ الله فِيمَنْ عِنْدَهُ**» [صحيح مسلم]، وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ**» [صحيح مسلم]، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من يرد الله به خيراً يقفهه فى الدين**» [صحيح البخاري و مسلم].

فضائل العلم

١- الخشية:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، أي أشد الناس خشية من الله وخوفًا منه هم العلماء، لأنهم أعلم الناس بالله بعد الرسل والأنبياء.

٢- علامة أن اللّه أراد بك خيرا:

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من يُرِد الله به خيرًا يُفقهه في الدين**» [البخاري].

٣- دخول الجنة:

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ومَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللّٰهُ له بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ**» [صحيح الجامع].

٤- وتضع الملائكة أجنحتها:

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضًا لِمَا يصنع**» [صحيح الترغيب].

٥- يستغفر له من في السموات والأرض:

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَإِنَّ المَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضَاءً لِطَالِبِ العِلْمِ، وَإِنَّ العَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ حَتَّى الحِيتَانُ فِي المَاءِ**» [صحيح الترغيب].

٦- رفع الدرجات:

قال تعالى: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [المجادلة: ١١].

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «للعلماء سبعمائة درجة فوق المؤمنين، بين الدرجة والدرجة مسيرة خمسمائة عام».

٧- فضل العالم على العابد:

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ النُّجُومِ**» [صحيح الترغيب].

٨- هم ورثة الأنبياء:

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الْعُلَمَاءَ هُمْ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وَلَكِنَّهُمْ وَرَّثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ»

[صحيح الترغيب]

٩- عبادة الله على بصيرة:

قال تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف:١٠٨].

* * *

٢٤- الدعوة إلى الله

فإن الداعية الربانى الذى يدعو الناس على بصيرة كالطبيب، فالطبيب أعلم الناس بالأمراض فهو أبعد الناس عنها فكذلك الداعية الربانى المخلص أبعد الناس عن أمراض القلوب، والجزاء من جنس العمل فكما دل الناس على ما يصلح قلوبهم، وماينفع قلوبهم أصلح الله قلبه إن شاء الله قال تعالى: ﴿ هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ﴾ [الرحمن:٦٠]، وقال تعالى: ﴿ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ [آل عمران:١٠٤].

فضائل الدعوة إلى الله

١- الفلاح في الدنيا والآخرة:

قال تعالى: ﴿ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ [آل عمران:١٠٤].

٢- هو أفضل الناس:

قال تعالى: ﴿ وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ [فصلت:٣٣].

٣- وظيفة الأنبياء:

فإن الدعوة إلى الله هي وظيفة الأنبياء ومن بعدهم الأولياء من العلماء والدعاة، فقد قال رسول الله ﷺ: «وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ،

وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا، وَلاَ دِرْهَمًا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ» [رواه أبو داود، وصححه الألباني].

٤- صلاة الله وملائكته عليه:

قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللهَ وَمَلاَئِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الْحُوتَ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرَ».

[رواه الترمذي، وصححه الألباني]

٥- نضارة الوجه في الدنيا والآخرة:

قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نَضَّرَ اللهُ امْرَءًا سَمِعَ مَقَالَتِي فَبَلَّغَهَا، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيهٍ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ» [رواه ابن ماجه، وصححه الألباني]

فهذا دعاء من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمن بلَّغ حديثًا واحدًا بنضرة الوجه، فكيف بمن يُبلغ آلاف الأحاديث، وأما نضارة الوجه في الآخرة فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين:٢٢-٢٦].

٦- هداية رجل على يديك:

قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لأَنْ يَهْدِىَ اللهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ» [رواه مسلم]، وحُمْرُ النَّعَم هي الإبل الحُمْر، وكانت أغلى وأنفس أموال العرب.

٧- له أجور من علمه:

قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلاَمِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ» [رواه مسلم].

٨- ينفع العبدَ بعد موته:

قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلاَثَةٍ إِلاَّ مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ» [رواه مسلم]

أعظم الدعوة... الدعوة بالعمل

كما قال العلماء: فِعْلُ رجلٍ في ألفِ رجل أبلغُ من قولِ ألفِ رجلٍ لرجل، لأن الناس تتأثر بالأعمال أكثر من الأقوال. فالذي يصلي الفجر ويأمر الناس بصلاة الفجر أكثر تأثيرًا من الذي لا يصلي الفجر ويأمر الناس بصلاة الفجر، والذي من سمته حسن الخلق إذا دعا الناس لحسن الخلق كان أبلغ من الذي يدعو الناس لحسن الخلق وهو سيء الخلق، وهكذا.

ولكن لابد أن تأمر بالمعروف وإن كنتَ لا تفعله، ويجب أن تنهى عن المنكر وإن كنتَ تفعله، وذلك لأمرين:

الأول- حفظ الشريعة، وحتى لا تُستَحلَّ محارمُ الله، ولا تُنتَهك.

والأمر الثاني- حتى لا تأخذ ذنبين؛ الذنب الأول أنك تركت واجبًا أو ارتكبت محرمًا، والذنب الثاني أنك رأيت من هو مقصر في واجب ولم تأمره ورأيت من يفعل المنكر ولم تنهه.

ومن رأى حال السلف الصالح رأى العَجَب العُجابَ، فكانوا أكثر الناس عملًا، ومع ذلك كانوا يتهمون أنفسهم غاية الاتهام، وهذا شأن الصالحين أنهم لا يرضون عن أنفسهم، ولا عن أعمالهم؛ لأن حق الله لا يستطيع أحد أن يوفيَه.

ولنا في رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أسوة حسنة عندما قال: «**لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الجَنَّةَ**» قَالُوا: وَلاَ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**لاَ، وَلاَ أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَلاَ يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ المَوْتَ: إِمَّا مُحْسِنًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَزْدَادَ خَيْرًا، وَإِمَّا مُسِيئًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعْتِبَ**» [رواه البخاري].

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ: تقدم بعض التابعين ليصلي بالناس إمامًا فالتفت إلى المأمومين يعدل الصفوف وقال: استوا، فغشي عليه، فسئل عن سبب ذلك، فقال: لَمَّا قلتُ لهم استقيموا، فكرتُ في نفسي فقلت لها: فأنتِ هل استقمتِ مع الله طرفة عين؟

ما كل من وصف الدواء يستعمله ... ولا كل من وصف التقى ذو تقى
وصفت التقى حتى كأني ذو تقى ... وريح الخطايا من ثيابي تعبق

ومع هذا كله فلا بد للإنسان من الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر والوعظ والتذكير، ولو لم يعظ إلا معصوم من الزلل لم يعظ الناس بعد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحد، لأنه لا عصمة لأحد بعده:

لئن لم يعظ العاصين من هو مذنب ... فمن يعظ العاصين بعد محمد

وقيل للحسن: إن فلانًا لا يعظ، و يقول: أخاف أن أقول ما لا أفعل**!** فقال الحسن: وأيُّنَا يفعل ما يقول؟ وَدَّ الشيطانُ أنه ظَفِرَ بهذا فلم يأمر أحدٌ بمعروفٍ و لم يَنْهَ عن منكر.

وقال مالك عن ربيعة: قال سعيد بن جبير: لو كان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى لا يكون فيه شيءٌ، ما أمرَ أحدٌ بمعروف و لا نهى عن منكر، قال مالك: وصدق؛ ومن ذا الذي ليس فيه شيء:

مـــن ذا الذي مـــا ســـاء قط   و مـــن له الحـــسنى فـقـط

و كان بعض العلماء المشهورين له مجلس للوعظ فجلس يومًا فنظر إلى من حوله، وهم خلق كثير وما منهم إلا من قد رق قلبه أو دمعت عينه، فقال لنفسه فيما بينه وبينها: كيف بك إن نجا هؤلاء و هلكتَ أنت؟ ثم قال في نفسه: اللهم إن قضيت علي غدًا بالعذاب فلا تعلم هؤلاء بعذابي صيانة لكرمك لا لأجلي؛ لئلا يُقال: عذب من كان في الدنيا يدل عليه. إلهي قد قيل لنبيك صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اقتل ابن أبي المنافق فقال: «**لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه**»، فامتنع من عقابه لما كان في الظاهر ينسب إليه، وأنا على كل حال فإليك أنسب. إلهي فأنت أكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين فلا تخيب من علَّق أملَه ورجاءَه بك، وانتسب إليك، ودعا عبادك إلى بابك، وإن كان متطفلا على كرمك، ولم يكن أهلا للسمسرة بينك وبين عبادك لكنه طمع في سعة جودك وكرمك، فأنت أهل الجود والكرم، وربما استحيا الكريم من رد من تطفل على سماط كرمه.

إن كـنـتُ لا أصـلـح للقرب فـشـأنـكـم صـفـح عـن الذنـب

وكما قيل:

وغـير تـقي يـأمـر النـاس بالتقى طبيب يـداوي النـاس وهـو سقيم
يـا أيـهـا الـرجـل المـقـوم غـيره هـلا لنفسك كان ذا التقويم
ابـدأ بنفسك فأنهها عـن غيها فـإذا انتهت عنه فـأنـت حكيم
فهناك يقبل ما تقول و يقتدى بـالـقـول منك و ينفع التعليم
لا تنه عـن خلق و تـأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

[من لطائف المعارف بتصرف]

❊ ❊ ❊

٢٥- تذهب إلى العلماء

وتصف له مافى قلبك من أمراض وهو يدلك على كيفية علاجها فقد ذهب الأمام ميميون بن مهران كاتب عمر بن عبد العزيز إلى الأمام الحسن البصرى فقال ميمون يا أبى سعيد: إنى أجد فى قلبى غلظة أصوم لها، فقرأ الحسن عليه قول الله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴾ [الرحمن:٦٠]، فغشى ميمون، وسقط على الأرض فكانوا يحركوا قدمه كالشاة المذبوحة، فلابد للعبد من تفقد قلبه كل لحظة، وتأمل ميمون قال للحسن أصوم لها، ولكن الحسن ذكره ببعض آيات القرآن التي تؤثر في قلبه فكذلك العالم يدل العبد على نوع الدواء الذي يصلح المرض المعين في قلبه.

* * *

٢٦- رؤية الصالحين

فإن من أعظم أسباب ترقيق القلب رؤية الصالحين فقد قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أولياء الله تعالى إِذَا رُؤُوا، ذُكِرَ الله تَعَالَى**» [صحيح الجامع]، وكان الناس إذا راؤ أيوب السختيانى ذكر الله، وكان محمد بن سرين إذا دخل السوق كبر الناس، وقال جعفر إذا وجدت فى قلبى قسوة نظرت إلى وجه محمد بن واسع، **وقال الأمام عبد الله بن المبارك**: إذا نظرت إلى الفضيل بن عياض مقت نفسى، وكان عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يقول للربيع بن خثيمه إذا رأك الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأحبك وإذا رأيتك تذكرت المخبتين.

❊ ❊ ❊

٢٧-مصاحبة الصالحين

فإن كان النظر للصالحين سبب لصلاح القلب ورقته فما بالك بمصاحبة الصالحين، وهذه وصية النبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأمته فقال: «مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوْءِ، كَحَامِلِ المِسْكِ وَنَافِخِ الكِيرِ، فَحَامِلُ المِسْكِ: إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الكِيرِ: إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً» [صحيح البخارى].

وقال: «الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلْ»، وقال: «لاتصاحب إلا مؤمن ولا يأكل طعامك إلا تقى».

فضائل مصاحبة الصالحين

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللهِ عِبَادًا لَيْسُوا بِأَنْبِيَاءَ، يَغْبِطُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ، قِيلَ: مَنْ هُمْ لَعَلَّنَا نُحِبُّهُمْ؟، قَالَ: هُمْ قَوْمٌ تَحَابُّوا بِنُورِ اللهِ مِنْ غَيْرِ أَرْحَامٍ وَلَا انْتِسَابٍ، وُجُوهُهُمْ نُورٌ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ، لَا يَخَافُونَ إِذَا خَافَ النَّاسُ، وَلَا يَحْزَنُونَ إِذَا حَزِنَ النَّاسُ ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢]» [رواه ابن حبان وصححه الألباني].

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات:١٠].

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنَّ رَجُلًا زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى، فَأَرْصَدَ اللهُ لَهُ، عَلَى مَدْرَجَتِهِ، مَلَكًا فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ، قَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ

الْقَرْيَةِ، قَالَ: هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا؟ قَالَ: لَا، غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللهِ عَزَّوَجَلَّ، قَالَ: فَإِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكَ، بِأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ» [مسلم].

وقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ عَادَ مَرِيضًا، أَوْ زَارَ أَخًا لَهُ فِي اللهِ، نَادَاهُ مُنَادٍ، أَنْ: طِبْتَ، وَطَابَ مَمْشَاكَ، وَتَبَوَّأْتَ مِنَ الْجَنَّةِ مَنْزِلًا»(1).

وقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ، وَالْمُتَجَالِسِينَ فِيَّ، وَالْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ» [مسلم].

ومن فضائل الأخوة في الله أنها نعمة من الله كما قال تعالى: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال:63].

وقال تعالى: ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران:103]، أي بالألفة، ثم ذم التفرقة وزجر عنها فقال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾.

وقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْمُؤْمِنُ إِلْفٌ مَأْلُوفٌ، وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا يَأْلَفُ وَلَا يُؤْلَفُ» [صححه الحاكم].

وقال أبو إدريس الخولاني لمعاذ: إني أحبك في الله، فقال له: أبشر فإني سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «يُنصب لطائفة من الناس كراسي حول العرش يوم يوم القيامة وجوههم كالقمر ليلة البدر يفزع الناس وهم لا يفزعون، ويخاف الناس وهم لا يخافون، وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فقيل من هؤلاء يا رسول الله؟ فقال هم المتحابون في الله تعالى».

---

(1) صحيح الجامع [6387].

وعند أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إن حول العرش منابر من نور عليها قومٌ لباسُهم نور ووجوهُهُم نور ليسوا بأنبياء ولا شُهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء فقالوا يا رسول الله صفهم لنا؟ فقال: هم المتحابون في الله والمتجالسون في الله والمتزاورون في الله [النسائي].

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا تَحَابَّ اثْنَانِ فِي اللهِ إِلَّا كَانَ أَفْضَلُهُمَا أَشَدَّهُمَا حُبًّا لِصَاحِبِهِ**» [صحيح ابن ماجة]، وكل صاحب عدوّ لصحابه يوم القيامة إلا المتقين كما قال تعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف:٦٧]. وقال ابن السماك عند موته: اللهم إنك تعلم أنى إذا كنت أعصيك ولكنى كنت أحب من يُطيعك فاجعل ذلك قُربة لي إليك.

وقال ابن مسعود: لو أن رجلاً قام بين الركن والمقام يعبد الله سبعين سنة لبعثه الله يوم القيامة مع من يحب.

* * *

٢٨- المقاطع المؤثرة

التى تتكلم في الرقائق والزهد فهي تؤثر على القلب خصوصًا إذا سمعتها من عالم رباني أو داعية صادق أو طالب علم مخلص.

* * *

٢٩- قرأة كتب الزهد والرقائق

التى ترقق القلب وتدمع العين وتزهد العبد في الدنيا مثل كتب الإمام ابن القيم والإمام ابن الجوزي وغيرهما من العلماء.

* * *

٣٠- قرأة الكتب التى تتكلم عن القلوب

فتقرأ الكتب التى تتكلم من أعمال القلوب وتزكية النفوس، وتنظر أين أنت من هذه الأعمال مثل كتاب مدارج السالكين للإمام ابن القيم، والتحفة العرافيه لشيخ الإسلام ابن تيمية، وتقرأ الكتب التى تبين أمراض القلوب، وآفات النفوس وتنظر ما هو المرض الذي عندك وكيف تتخلص منها مثل كتاب منهاج القاصدين للإمام ابن قدامة وكتاب الداء والدواء للإمام ابن القيم ورسالة أمراض القلوب وشفاؤها لشيخ الإسلام ابن تيمية.

* * *

٣١- قراءة سير الصالحين

فإن قراءة سير الصالحين بعد قراءة القرآن الكريم لها تأثير عجيب في رقة القلب ومن قرأ عرف خصوصًا قراءة سيرة سيد النبيين وإمام المرسلين سيدنا محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقرأة سير الأنبياء والصحابة والسلف الصالح من الأئمة المهديين والعلماء الرب نيين وعباد الله الصالحين والزهاد المخلصين، كما قال أحد العلماء بذكر الصالحين ترقق القلوب وبذكر الصالحين تنزل الرحمات وبذكر الصالحين تعرف قدر نفسك، وبذكر الصالحين يًذكر الله ومع ذكر الله يُذكر الصالحين لأنهم أولياء الله تعالى، ربنا يجعلنا منهم برحمته إنه على كل شيء قدير.

***

٣٢- كثرة الذهاب إلى الحج والعمرة

فإن كثرة الحج والعمرة تزيد الإيمان وترقق القلب خصوصًا عمرة رمضان فإذا لبثت الإحرام تظهر فقرك وعجزك لله وكأنك تلبث الكفن فتقول بلسان حالك يارب إن تركتني فسوف يموت قلبي كموت الجسد وعندما تطوف بالكعبة تسأل ربك أن يصلح قلبك، وعندما تشرب زمزم تشربها بنية شفاء قلبك فقد قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**زَمْزَمُ طَعَامُ طُعْمٍ وَشِفَاءُ سَقَمٍ**» [صحيح الجامع].

فضائل الحج والعمرة

١- من أفضل الأعمال

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عنه قال: سُئل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَي الْعَمَل أفضل؟ قَالَ: إِيمَان بِالله ورسوله**» قيل: ثم ماذا؟ قال: «**الجِهَاد فِي سَبيل الله**»، قيل: ثم ماذا؟ قال: «**حج مبرور**» [البخاري ومسلم].

٢- مغفرة الذنوب والمعاصي

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ حَجَّ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ من ذنوبه كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ**»، **وفي رواية للترمذي قال: «غُفر لهُ ما تقدم من ذنبه»**.

قال ابن عباس: «الرَّفَث: ما رُوجعَ به النِّساء»، **وقال الأزهري**: «الرفث: كلمة جامعة لكل ما يُريدهُ الرجل من المرأة، **وقال الحافظ**: «الرفث يُطلق ويُراد به الجماع، ويُطلق ويُراد به الفحش، ويُطلق ويراد به خطاب الرجل المرأة فيما يتعلَّق بالجماع،

وقد نقل في معنى الحديث كل واحد من هذه الثلاثة عن جماعة من العلماء والله أعلم» [الترغيب والترهيب].

٣-الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الْعمرَة إِلَى الْعمرَة كَفَّارَة لما بَينهمَا، وَالْحج المبرور لَيْسَ لَهُ جَزَاء إِلَّا الْجنَّة**» [البخاري ومسلم].

قال الإمام المناوي: «لَيْسَ لَهُ جَزَاء إِلَّا الْجنَّة» أي: إلا الحكم له بدخول الجنة فلا يقتصر لصاحبه من الجزاء على تكفير بعض ذنوبه بل لابد أن يدخلها أي: مع السابقين، أو بغير عذاب وإلا فكل مؤمن يدخلها وإن لم يحج [فيض القدير]، **وقال ابن الإمام ابن القيم**: «من سلمت جمعته سلمت له باقي الجمع، ومن سلمى له رمضان سلمى له العام، من سلمى حجه سلمى عمره».

٥-الحج جهاد في سبيل الله

عن الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «قَالَ جَاءَ رجل إِلَى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: إِنِّي جبان وَإِنِّي ضَعِيف فَقَالَ: «**هَلُمَّ إِلَى جِهَاد لَا شَوْكَة فِيهِ: الْحَج**» [رواه الطبراني وصححه الألباني].

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: قلْتُ: يَا رَسُولَ الله، نَرَى الْجِهَادَ أَفْضَلَ الأعمال، أَفَلَا نُجَاهِدُ؟ فقَالَ: «**لَكِنَّ أَفْضَلَ الْجِهَادِ حَجٌّ مَبْرُورٌ**» [البخاري]، **وفي رواية**: قُلْتُ يَا رَسُولَ الله هَلْ عَلَى النِّسَاءِ جِهَادٌ؟ فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**عَلَيْهِنَّ جِهَادٌ لَا قِتَالَ فِيهِ: الْحَجُّ وَالْعُمْرَةُ**» [ابن خزيمة في صحيحه]، وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**جِهَاد الْكَبِير والضعيف وَالْمَرْأَة:**

الْحَجّ وَالْعمْرَة» [النسائي]، **وقال الشيخ الألباني «حسن لغيره»** وقال: «**نِعْمَ الجهاد الحج**» [صحيح الجامع]، وقال: «**أَحْسَنُ الْجِهَادِ، وَأَجْمَلُهُ الْحَجُّ، حَجٌّ مَبْرُورٌ**» [صحيح الجامع].

٦- ينفيان الفقر والذنوب

قال رسول الله ﷺ: «**تَابِعُوا بَيْنَ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ، فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الذُّنُوبَ كَمَا يَنْفِي الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ، وَالذَّهَبِ، وَالْفِضَّة، وَلَيْسَ لِلْحَجَّةِ الْمَبْرُورَةِ ثَوَابٌ إلا الْجَنَّةِ**» [الترمذي وحسنه الألباني].

٧- كتاب الحسنات ومحو السيئات ورفع الدرجات

قال رسول الله ﷺ: «**مَا ترفع ابل الْحَاج رجلا وَلَا تضع يدا إِلَّا كتب لَهُ الله بهَا حَسَنَة أَو محا عَنهُ سَيِّئَة أَو رَفعه بهَا دَرَجَة**» [رواه ابن حبان وحسنه الألباني].

٨- الحجاج والعمار وفد الله

قال رسول الله ﷺ: «**الْحجَّاج والعمار وَفد الله دعاهم فَأَجَابُوهُ وسألوه فَأَعْطَاهُمْ**» [رواه البزار]، وقال الألباني حسن لغيره، وقال رسول الله ﷺ: «**الغازي في سبيل الله، والحاج، والمعتمر، وَفد الله دعاهم فَأَجَابُوهُ وسألوه فَأَعْطَاهُمْ**».

[رواه ابن ماجة وحسنه الألباني]

٩- هنيئًا لمن طاف بالبيت

قال رسول الله ﷺ: «**اسْتَمْتِعُوا بِهَذَا الْبَيْتِ فَقَدْ هُدِمَ مَرَّتَيْنِ وَيُرْفَعُ فِي الثَّالِثَةِ**».

١٠- هنيئًا لمن مات في الحج والعمرة

قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من خرج حَاجا فَمَاتَ كتب الله لَهُ أجر الْحَاج إِلَى يَوْم الْقِيَامَة، وَمن خرج مُعْتَمِرًا فَمَاتَ كتب الله لَهُ أجر الْمُعْتَمِر إِلَى يَوْم الْقِيَامَة».

[رواه أبو يعلى وقال الألباني صحيح لغيره]

١١- الأجر على قدر المشقة والنفقة

عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لها: «إِنَّ لَكِ مِنَ الْأَجْرِ عَلَى قَدْرِ نَصَبِكِ وَنَفَقَتِكِ» [رواه الحاكم وصححه الألباني]، و«النصب» هو التعب وزنًا ومعنى [الترغيب والترهيب].

١٢- فضل العمرة في رمضان

قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عُمْرَةٌ فِي رَمَضَانَ تَعْدِلُ حَجَّةً» [البخاري]، **وفي رواية لمسلم:** قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لِامْرَأَةٍ مِنَ الْأَنْصَارِ يقال لها: أم سنان: «مَا مَنَعَكِ أَنْ تَحُجِّي مَعَنَا؟» قَالَتْ: لم يكن لَنَا إلا نَاضِحَانِ، فحج أبو ولدها وَابْنِهَا - نَاضِحًا، وَتَرَكَ نَاضِحًا نَنْضَحُ عَلَيْهِ. قَالَ: «فَإِذَا كَانَ رَمَضَانُ فَاعْتَمِرِي فِيهِ، فَإِنَّ عُمْرَةً فِيهِ تَعْدِلُ حَجَّةً» **وفي رواية له:** «تَعْدِلُ حَجَّةً أو حجة معي».

وجاءت أم سليم إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالت: حج أبو طلحة وابنه وتركني، فقال: «يا أم سليم عمرة في رمضان تعدل حجة معي».

[رواه ابن حبان وصححه الألباني]

١٣- فضائل التلبية ورفع الصوت

قال رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «مَا أَهَلَّ مُهِلٌّ قَطُّ إِلَّا بُشِّرَ، وَلَا كَبَّرَ مُكَبِّرٌ قَطُّ إِلَّا بُشِّرَ بِالْجَنَّةِ» [صحيح الجامع]، أي: ما رفع ملب صوته بالتلبية في حج أو عمرة.

وقال رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «مَا من مؤمن يُلبي لله بالحج إلا شهد له ما على يمينه وشماله إلى منقطع الأرض» [رواه النسائي وحسنه الألباني].

وقال رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «مَا مِنْ مُلَبٍّ يُلَبِّي، إِلَّا لَبَّى، مَا عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ، مِنْ حَجَرٍ، أَوْ شَجَرٍ، أَوْ مَدَرٍ، حَتَّى تَنْقَطِعَ الْأَرْضُ، مِنْ هَاهُنَا وَهَاهُنَا عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَاله» [رواه الترمذي وصححه الألباني].

وقال رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «أَتَانِي جِبْرِيل فَأمرنِي أَن آمُر أَصْحَابِي أَن يرفعوا أَصْوَاتهم بالاهلال والتلبية» [رواه النسائي وصححه الألباني].

١٤- فضائل الطواف بالكعبة

قال رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «من طَاف بهذا الْبَيْت أسبوعًا فأحصاه كَانَ كعتق رَقَبَة، وَلَا يَضَعُ قَدَمًا وَلَا يَرْفَعُ أُخْرَى، إِلَّا حَطَّ الله عَنْهُ خَطِيئَةً، وَكَتَبَ لَهُ بِهَا حَسَنَةً».

واسبوعًا يعني سبعة أشواط [رواه النسائي وصححه الألباني].

وقال رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «الطَّوَافُ حَوْلَ الْبَيْتِ مِثْلُ الصَّلَاةِ، إِلَّا أَنَّكُمْ تَتَكَلَّمُونَ فِيهِ، فَمَنْ تَكَلَّمَ فِيهِ فلَا يَتَكَلَّمَنَّ إِلَّا بِخَيْرٍ» [رواه النسائي وصححه الألباني].

١٥- فضائل الحجر الأسود والركن اليماني

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الرُّكْنُ وَالْمَقَامُ يَاقُوتَتَانِ مِنْ يَوَاقِيتِ الجنة» [صحيح الجامع].

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن الرُّكْنُ وَالمَقَامُ يَاقُوتَتَانِ مِنْ يَوَاقِيتِ الجَنَّةِ طَمَسَ الله تَعَالَى نُورَهُمَا، وَلَوْ لم يطمس نُورَهُمَا لأَضَاءَتا مَا بَيْنَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ» [صحيح الجامع].

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِن لهَذَا الْحجر لِسَانا وشفتين يشْهد لمن استلمه يَوْم الْقِيَامَة بِحَق» [صحيح الجامع].

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ مَسْحَ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ وَالرُّكْنِ الْيَمَانِيِّ يَحُطَّانِ الْخَطَايَا حَطًّا» [صحيح الجامع].

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْحَجَرُ الْأَسْوَدُ مِنَ الجَنَّةِ» [صحيح الجامع].

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نَزَلَ الْحَجَرُ الْأَسْوَدُ مِنْ الْجَنَّةِ وَهُوَ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنْ اللَّبَنِ، فَسَوَّدَتْهُ خَطَايَا بَنِي آدَمَ» [صحيح الجامع].

يقول العلماء إذا كانت الخطا سودت الحجر الصلب الذي نزل من الجنة فكيف تفعل الخطايا بالقلب الضعيف الذي هو قطعة لحم.

ملحوظه :

تقبيل الحجر الأسود سُنة وأذية المسلم حرام فكيف تُقدم الحرام على السُنة.

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : «**يا عمر، إنك رجل قوي، لا تزاحم على الحجر فتؤذي الضعيف، وإن وجدت خلوة فاستلمه، وإلا فاستقبله وكبر**» [صححه الألباني].

وعن عبد الله بن سرجس قال: رأيت عمر بن الخطاب أتى الركن فقبل الحجر الأسود وقال: «**إِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، وَلَوْلَا أَنِّي رَأَيْتُ رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُقَبِّلُكَ مَا قَبَّلْتُكَ**» [البخاري].

١٦- التواضع والزهد في الحج من سمات الأنبياء

عن أنس بن مالك قال: «**حَجَّ النَّبِيّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **عَلَى رَحْلٍ رَثٍّ، وَقَطِيفَةٍ خلقة تُسَاوِي أَرْبَعَةَ دَرَاهِمَ، أَوْ لَا تُسَاوِي**» [الترمذي وصححه الألباني].

وعن ابن عباس قال: كنا مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين مكة والمدينة فمررنا بواد، فقال: «**أَيُّ وَادٍ هَذَا**» **قَالُوا: وَادِي الْأَزْرَقِ قَالَ: «كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى مُوسَى** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» **فَذَكَرَ مِنْ طُولِ شَعَرِهِ شَيْئًا - لَا يَحْفَظُهُ دَاوُدُ - وَاضِعًا إِصْبَعَيْهِ فِي أُذُنَيْهِ، لَهُ جُؤَارٌ إِلَى الله بِالتَّلْبِيَةِ، مَارًّا بِهَذَا الْوَادِي، قَالَ: ثُمَّ سِرْنَا حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى ثَنِيَّةٍ، فَقَالَ: «أَيُّ ثَنِيَّةٍ هَذِهِ؟» قَالُوا: ثَنِيَّةُ هَرْشَى أَوْ لَفْتٍ قَالَ: «كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى يُونُسَ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. **عَلَى نَاقَةٍ حَمْرَاءَ، عَلَيْهِ جُبَّةُ صُوفٍ، وَخِطَامُ نَاقَتِهِ، خُلْبَةٌ، مَارًّا بِهَذَا الْوَادِي مُلَبِّيًا**»

[ابن ماجة وصححه الألباني].

وروى الحاكم على شرط مسلم: أن رسول الله ﷺ أتى على وادي الأزرق، فقال: «ما هَذَا؟ قَالُوا: وَادِي الأَزْرَقِ، فقَالَ: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى مُوسَى مهبِطًا، لَهُ جُؤَار إِلَى الله بِالتَّكبير، ثُمَّ أَتَى عَلَى ثَنِيَّةٍ، فَقَالَ: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى نَاقَةٍ حَمْرَاءَ جَعْدَةٍ، خطامها ليف، وهو يلبي، وعَلَيْهِ جُبَّةٌ صُوفٍ» [صححه الألباني].

وقال رسول الله ﷺ: «لقد مر بالروحاء سبعون نبيًا فيهم نبي الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حقًا عليهم العباء، يؤمون بيت الله العتيق» [رواه أبو يعلى وقال الألباني حسن لغيره].

١٧- صلى بمسجد الخيف سبعين نبيًا

قال رسول الله ﷺ: «صَلى فِي مَسْجِدِ الخَيْفِ سَبْعُوْنَ نبيًّا، مِنْهُمْ مُوْسَى ﷺ» [الطبراني وقال العلامة الألباني حسن لغيره].

١٨- فضائل عرفة

قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الله يُبَاهِي بِأَهْلِ عَرَفَاتٍ أهل السَّمَاء فَيَقُول لَهُم: انْظُرُوا إلى عبَادي جاؤوني شُعْثًا غُبْرًا» [رواه ابن حبان والحاكم وصححه العلامة الألباني].

وقال رسول الله ﷺ: «ما من يوم أكثر من أن يُعتقَ الله فيه عبدًا من النار من يوم عرفة، وإنَّه لَيَدنو يتجلى، ثمَّ يُباهي بهم الملائكة، فيقول: ما أراد هؤلاء؟» [مسلم].

عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: وقف النبي ﷺ بعرفات وقد كادت الشمس أن تئوب، فقال يا بلال أنصت إلى الناس، فقام بلال فقال: أنصتوا

لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأنصت الناس فقال: «معشر الناس، أتاني جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ آنفًا فأقرأني من ربي السلام وقال: إن الله عَزَّ وَجَلَّ غفر لأهل عرفات وأهل المشعر، وضمن عنهم التبعات، فقال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فقال: يا رسول الله، هذا لنا خاصة؟ قال: هذا لكم ولمن أتى من بعدكم إلى يوم القيامة، فقال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كثر خير الله وطاب» [السلسلة الصحيحة].

عن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال جاء رجل من الأنصار ورجل من بني ثقيف يسألانه ما للحاج، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «جِئْتَ تَسْأَلُنِي عَنِ الْحَاجِّ مَا لَهُ حِينَ يَخْرُجُ مِنْ بَيْتِهِ؟ وَمَا لَهُ حِينَ يَقُومُ بِعَرَفَاتٍ؟ وَمَا لَهُ حِينَ يَرْمِي الْجِمَارَ؟ وَمَا لَهُ حِينَ يَحْلِقُ رَأْسَهُ؟ وَمَا لَهُ حِينَ يَقْضِي آخِرَ طَوَافٍ بِالْبَيْتِ؟ فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا أَخْطَأْتَ مِمَّا كَانَ فِي نَفْسِي شَيْئًا، قَالَ: فَإِنَّ لَهُ حِينَ يَخْرُجُ مِنْ بَيْتِهِ أَنَّ رَاحِلَتَهُ لَا تَخْطُو خُطْوَةً إِلَّا كُتِبَ لَهُ بِهَا حَسَنَةٌ، أَوْ حُطَّتْ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ، فَإِذَا وَقَفَ بِعَرَفَةَ، فَإِنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ يَنْزِلُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَقُولُ: انْظُرُوا إِلَى عِبَادِي شُعْثًا غُبْرًا، اشْهَدُوا أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ ذُنُوبَهُمْ، وَإِنْ كَانَ عَدَدَ قَطْرِ السَّمَاءِ وَرَمْلِ عَالِجٍ، وَإِذَا رَمَى الْجِمَارَ لَا يَدْرِي أَحَدٌ مَا لَهُ حَتَّى يُوَفَّاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِذَا حَلَقَ رَأْسَهُ فَلَهُ بِكُلِّ شَعْرَةٍ سَقَطَتْ مِنْ رَأْسِهِ نُورٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِذَا قَضَى آخِرَ طَوَافِهِ بِالْبَيْتِ خَرَجَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ» [البدار وحسنه العلامة الألباني].

وقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خير الدعاء دعاء يوم عرفة وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا اله الا الله له الملك، وله الحمد، وهو على كل شىء قدير».

[رواه أبو يعلى وقال الألباني حسن لغيره]

٣٣- كثرة الأعمال الصالحة

قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: إن للحسنة نورًا في القلب وبياضًا في الوجه، ومحبة في قلوب الخلق، وإن للسيئة ظلمة في القلب وسوادًا في الوجه، ووهنًا في البدن وبغضة في قلوب الخلق.

فضائل المداومة على العمل الصالح

١- حب الله

عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ» [رواه البخاري]، فدل الحديث على أن العبدَ إذا اجتهد في نوافل العبادات أحبَّه الله.

٢- توفيق الله

قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللهَ قَالَ: وما يزالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إليَّ بالنَّوافِلِ حتَّى أُحبَّه، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ، كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذي يَسْمَعُ بِهِ، وبَصَرَهُ الَّذي يبْصِرُ بِهِ، ويَدَهُ الَّتي يَبْطِشُ بِهَا، ورِجْلَهُ التي يَمْشي بِهَا، وإنْ سَأَلَني لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَني لأعيذَنَّهُ» [رواه البخاري]، ومعنى بالحديث أن هذا العبد صار موفقًا مؤيدًا مسددًا من عند الله فلا يرى إلا ما يحب الله، ولا يسمع إلا ما يحب الله ويرضى، ولا يبطش بيده إلا في ما يحب الله، ولا يمشي بقدميه إلا في طاعة الله.

٣- إجابة دعائك

قال في الحديث: «وإنْ سَأَلَني لأُعْطِيَنَّه، وَلَئِنِ اسْتعَاذَنِي لأُعيذَنَّه» [رواه البخاري].

٤- محبة الملائكة والمؤمنين لك

عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «إنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّ فُلاَنًا فَأَحِبَّه، قَالَ: فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ فَيَقُولُ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلاَنًا فَأَحِبُّوه، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، قَالَ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ» [رواه مسلم].

٥- عدم دخول النار

قال تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ [مريم:٧١-٧٢].

وقال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «لَا يُلْقِي الله حَبِيبَهُ فِي النَّارِ».

[رواه أحمد بإسناد صحيح]

٦- قرب الله منك

عن أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فيما يرويه عن ربه قال: «إِذَا تَقَرَّبَ العَبْدُ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِذَا تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا، وَإِذَا أَتَانِي مَشْيًا أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً» [رواه البخاري].

٧- الحياة الطيبة في الدنيا

قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل:٩٧].

٩- حلاوة الإيمان

قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بالله رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا» [رواه مسلم].

وقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لله، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ» [رواه البخاري].

١٠- حُسن الخاتمة

قال الإمام ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: أجرى الكريمُ عادتَه بكرمه أنه من عاش على شيء مات عليه.

فمن عاش على الطاعة وأخلص لله تعالى في العبادة مات على الطاعة، كما قال تعالى: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ [الرحمن:٦٠].

١١- الصالحون يرثون الأرض

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء:١٠٥-١٠٦].

١٢- في ظل العرش يوم القيامة

في هذا اليوم العصيب الرهيب الذي تشيب فيه الولدان كما قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾ [المزمل:١٧-١٨].

هذا يوم قال فيه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تُدْنَى الشّمْسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْخَلْقِ، حَتّى تَكُونَ مِنْهُمْ كَمِقْدَارِ مِيل، فَيَكُونُ النّاسُ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ فِي الْعَرَقِ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى كَعْبَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى حَقْوَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ الْعَرَقُ إِلْجَامًا» [رواه مسلم].

ومع شدة أهوال هذا اليوم إلا أن هناك صنفًا كريمًا على الله تعالى له شأن آخر، قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ الله فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لاَ ظِلّ إِلّا ظِلُّهُ: الإِمَامُ العَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلّقٌ فِي المَسَاجِدِ، وَرَجُلاَنِ تَحَابّا فِي الله اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنّي أَخَافُ الله، وَرَجُلٌ تَصَدّقَ، أَخْفَى حَتّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ الله خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ» [رواه مسلم].

١٣- تكون من خير الناس

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة:٧-٨].

١٤- عدم الخوف والحزن عند الموت

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ أي: أخلصوا العمل لله، وعملوا بطاعة الله تعالى على ما شرع الله لهم.

عن عكرمة قال: سئل ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: أيُّ آيةٍ في كتاب الله أرخص؟ قال قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ على شهادة أن لا إله إلا الله.

وقال الزهري: تلا عمر هذه الآية على المنبر، ثم قال: استقاموا - والله - لله بطاعته، ولم يروغوا روغان الثعالب.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ على أداء فرائضه، وكذا قال قتادة، قال: وكان الحسن يقول: اللهم أنت ربنا، فارزقنا الإستقامة.

وقال أبو العالية: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ اخلصوا له العمل والدين.

وقوله: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، قال مجاهد، والسدي، وزيد بن أسلم: يعني عند الموت قائلين: ﴿أَلَّا تَخَافُواْ﴾ قال مجاهد، وعكرمة، وزيد بن أسلم: أي مما تقدمون عليه من أمر الآخرة، ﴿وَلَا تَحْزَنُواْ﴾ أي على ما خلفتموه من أمر الدنيا، من ولد وأهل، ومال أو دين، فإنا نخلفكم فيه، ﴿وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ فيبشرونهم بذهاب الشر وحصول الخير.

وقال زيد بن أسلم: يبشرونه عند موته، وفي قبره، وحين يبعث. وهذا القول يجمع الأقوال كلها، وهو حسن جدًا، وهو الواقع.

وقوله: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: تقول الملائكة للمؤمنين عند الإحتضار: نحن كنا أولياءكم، أي: قرناءكم في الحياة الدنيا، نسددكم ونوفقكم، ونحفظكم بأمر الله، وكذلك نكون معكم في الآخرة نؤنس منكم بالوحشة في القبور، وعند النفخة في الصور، ونؤمنكم يوم البعث والنشور، ونجاوز بكم الصراط المستقيم، ونوصيكم إلى جنات النعيم. ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ﴾ أي: في الجنة من جميع ما تختارون مما تشتهيه النفوس، وتقر به العيون، ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ أي: مهما طلبتم وجدتم، وحضر بين أيديكم، أي كما اخترتم، ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ أي: ضيافة وعطاء وإنعامًا من غفور لذنوبكم، رحيم بكم رءوف، حيث غفر، وستر، ورحم، ولطف.

١٥- الفرج من كل كرب والرزق

قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق:٢-٣].

١٦- السعة في الرزق

قال تعالى: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ﴾ [نوح:١٠-١٢].

* * *

٣٤- سد مدخل العين

فإن أعظم مدخل للشيطان إلى القلب هو العين وبذلك أمر الله بغضه، وقال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور:٣٠]، **وقال عبد الله بن مسعود**: النظرة سهم من سهام إبليس، وقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعلي: «**يا علي لَا تُتْبِعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ؛ فَإِنَّمَا لَكَ الْأُولَى وَلَيْسَتْ لَكَ الْآخِرَةُ**»، وسئل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن نظرة الفجاءة فقال: «**اصرف بصرك**»، وقال الشاعر: وكنت متي أبصرت طرفك رائدًا لقلبك يومًا أتعبتك المناظر، رأيت الذي لا كله أنت قادر عليه ولا عن بعضه أنت صابرًا.

فوائد غض البصر

أحدها- الإمتثال لأمر الله الذي هو غاية سعادة العبد في معاشه ومعاده، وليس للعبد في دنياه وآخرته أنفع من امتثال أوامر ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وما سعد مَنْ سعد في الدنيا والآخرة إلاَّ بامتثال أوامره، وما شَقِيَ من شقي في الدنيا والآخرة إلاَّ بتضييع أوامره.

الثانية- يمنع من وصول أثر السهم المسموم الذي لعل فيه هلاكه إلى قلبه.

الثالثة- أنه يورِّث القلب أُنسًا بالله وجمعية على الله، فإن إطلاق البصر يفرق القلب ويشتته ويبعده من الله، وليس على العبد شيء أضر من إطلاق البصر، فإنه يوقع الوحشة بين العبد وبين ربه.

الرابعة- يقوي القلب ويفرحه، كما أن إطلاق البصر يضعفه ويحزنه.

الخامسة- أنه يُكسِب القلب نورًا، كما أن إطلاقه يُكسبه ظُلمة، ولهذا ذكر الله آية النور عقيب الأمر بغض البصر، فقال: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾، ثم قال إثر ذلك: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور:٣٥]، أي: مثل نوره في قلب عبده المؤمن الذي امتثل أوامره واجتنب نواهيه.

السادسة- أنه يورِّث الفراسة الصادقة التي يميز بها بين المحق والمبطل، والصادق والكاذب، وكان شاه بن شجاع الكرماني يقول: «من عمَّر ظاهره باتباع السنة، وباطنه بدوام المراقبة، وغضَّ بصره عن المحارم، وكفَّ نفسه عن الشهوات، واعتاد أكل الحلال؛ لم تُخطئ له فراسة».

السابعة- أنه يورِّث القلب ثباتًا وشجاعة وقوة، ويجمع الله له بين سلطان البصيرة والحجة وسلطان القدرة والقوة، كما في (الأثر): «الذي يخالف هواه يفر الشيطان من ظله، وضد هذا تجده في المتبع هواه من ذل النفس ووضاعتها ومهانتها وخستها وحقارتها، وما جعل الله سبحانه فيمن عصاه»، وكما قال الحسن: «إنهم وإن طقطقت بهم البغال، وهملجت بهم البراذين، فإن ذل المعصية لا يفارق رقابهم، أبى الله إلا أن يذل من عصاه ومن أطاع الله فقد والاه فيما أطاعه، وله من العز بحسب طاعته، ومن عصاه فقد عاداه فيما عصاه فيه، وعليه من الذل بحسب معصيته».

الثامنة- أنه يسد على الشيطان مدخله من القلب، فإنه يدخل مع النظرة وينفذ معها إلى القلب أسرع من نفوذ الهواء في المكان الخالي، فيمثل له صورة المنظور إليه ويزينها، ويجعلها صنمًا يعكف عليه القلب، ثم يعده ويمنيه ويوقد على القلب نار الشهوة، ويلقي عليه حطب المعاصي التي لم يكن يتوصل إليها بدون تلك الصورة، فيصير القلب في اللهب، فمن ذلك تلد الأنفاس التي يجد فيها وهج النار، وتلك الزفرات والحرقات، فإن القلب قد أحاطت به النيران من كل جانب، فهو وسطها كالشاة في وسط التنور.

التاسعة- أنه يفرغ القلب للتفكر في مصالحه والاشتغال بها، وإطلاق البصر يشتت عليه ذلك ويحول بينه وبينها فتنفرط عليه أموره ويقع في اتباع هواه وفي الغفلة عن ذكر ربه. قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨]، وإطلاق النظر يوجب هذه الأمور الثلاثة بحسبه.

العاشرة- أن بين العين والقلب منفذًا أو طريقًا يوجب اشتغال أحدهما بما يشغل به الآخر، يصلح بصلاحه ويفسد بفساده، فإذا فسد القلب فسد النظر، وإذا فسد النظر فسد القلب [نزهة المشتاقين].

❊ ❊ ❊

٣٥- سد مدخل الأذن

فكل هذه المداخل يدخل منها الشيطان إلى القلب حتى يفسده فعلى العبد أن يغلق هذه المداخل حتى يصلح قلبه فلا يسمع الغيبة، ولا النميمة، والأغاني، وغيرها من الذنوب، والمعاصي، ولكن يسمع القرآن ودروس العلم وغيرها من الطاعات.

❊ ❊ ❊

٣٦- التقليل من الطعام

فقد قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا مِنْ وِعَاءٍ مَلَأَ ابْنُ آدَمَ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ، حَسْبُ ابْنِ آدَمَ أُكَلَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ، فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ، وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ**» [صحيح ابن حبان]، أو كما قال، وقال يحي بن معاذ، وإبراهيم الخواص: دواء القلب خمسة أشياء: قراءة القرآن بالتفكر، وخلاء البطن، وقيام الليل، والتضرع عند السحر، ومجالسة الصالحين، وقال لقمان لأبنه يا بني لا تملئ المعدة فإن ملئت المعدة غابت الفكرة، وكما قيل من أكل كثيرًا نام كثيرًا فاته خيرًا كثيرًا، ولذلك من فضائل الصيام أنه يضيق على الشيطان لأنه يجري من ابن آدم مجرى الدم في العروق فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ضيقوا عليه بالصوم**».

❊ ❊ ❊

٣٧- أكل الحلال

قال أحد العلماء: من أكل من الحلال أطاع الله تعالى بإرادته وبغير إرادته ومن أكل من الحرام عصى الله بإرادته أو بغير إرادته.

وقد قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَيُّ لَحْمٍ نَبَتَ مِنْ حَرَامٍ ، فَالنَّارُ أَوْلَى بِهِ**» [صحيح الجامع].

وفي رواية: «**لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ لَحْمٌ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ**» [صحيح البخاري].

قال الشيخ ابن باز: هذا وعيد وعيد من باب الوعيد والتحذير، الذي يعني ينبت جسمه على أكل الربا أو على غصب أموال الناس، أو السرقة متوعد بالنار نعوذ بالله، فالواجب الحذر، وأن يكون كسب المسلم حلالًا وليحذر ظلم الناس أو أكل الربا أو الغش في المعاملات أو سرقة أموال الناس أو ما أشبه ذلك نسال الله العافيه.

وقال أحد العلماء: الذي يربي نفسه وأولاده على أكل الحرام لابد أن يعصوا الله لأنهم أُعدو إلى جهنم لقول رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَيُّ لَحْمٍ نَبَتَ مِنْ حَرَامٍ، فَالنَّارُ أَوْلَى بِهِ**».

فلابد للعبد أن يتحرى أكل الحلال حتى يرضى ربه ويكون سببًا لطاعة الله وأكل الحلال أمر الله تعالى به عباده المرسلين، فقد قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ**»، فقال: ﴿ يَاأَيُّهَا

ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ [المؤمنون:٥١]، ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَا رَبِّ يَا رَبِّ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ» [صحيح مسلم].

ومعنى فأنى يستجاب لذلك: أي كيف يستجاب له وهو أكله ومشربه وملبسه من حرام.

* * *

٣٨- التقليل من النوم

فإن كثرة النوم تفسد القلب لأن النوم الكثير يصيب الأنسان بالكسل، والخمول فكيف يجتهد فى العبادة فلابد للعبد أن يعود نفسه على التقلل من النوم فلا ينام كثيرًا، ولايقلل من النوم بدرجة تؤذيه، ولكن يتوسط فينام من ست إلى ثمانى ساعات فى اليوم، ويتذكر أنه سينام كثيراً فى قبره، وعلى قدر تعبك فى الدنيا على قدر راحته فقد قال رسول الله ﷺ: «**مُسْتَرِيحٌ وَمُسْتَرَاحٌ**»، قال يا رسول الله: ما مستريح وما مستراح قال: «**العبد المؤمن إذا مات استراح من عناء الدنيا، والعبد الكافر إذا مات استراح منه العباد، والحجر، والشجر، والدواب**».

وسئل الأمام أحمد متى الراحة؟ فقال: عند أول موضع قدم فى الجنة، وقال أحد السلف لا تدرك الراحة بالراحة، وكان أحد السلف يطيل القيام فيقال له: أرح نفسك يقول راحتها أريد، وكان على بن أبى طالب يقول: اللهم رضنى باليسر من النوم وكثير من العلماء فى عصرًا هذا ينامون فى اليوم الليل ساعات أو ثلاث ولكن البركة.

❊ ❊ ❊

الفصل الثالث

الإكثار من أعمال القلوب

٣٩- الإفتقار إلى الله تعالى

يشهد العبدُ مشهدَ الذل والإنكسار والخضوع والافتقار للرب جَلَّجَلَالُهُ، فيشهد في كل ذرة من ذراته الباطنة والظاهرة ضرورة تامة، وافتقارًا تامًا إلى ربه ووليه، ومن بيده صلاحه وفلاحه، وهداه وسعادته، وهذه الحال التي تحصل لقلبه لا تنال العبارة حقيقتها، وإنما تُدرك بالحصول، فيحصل لقلبه كسرة خاصة لا يشبهها شيء، بحيث يرى نفسه كالإناء المرضوض تحت الأرض، الذي لا شيء فيه، ولا به ولا منه ولا فيه منفعة، ولا يرغب في مثله، وأنه لا يصلح للإنتفاع إلا بجبر جديد من صانِعِه وقَيِّمِهِ، فحينئذ يستكثر في هذا المشهد ما مَنَّ رَبُّهُ عليه من الخير، ويرى أنه لا يستحق قليلًا منه ولا كثيرًا، فأي خير ناله من الله استكثره على نفسه، وعلم أن قدره دونه، وأن رحمة ربه هي التي اقتضت ذكره به، وسياقته إليه، واستقل ما من نفسه من الطاعات لربه، ورآها - ولو ساوت طاعات الثقلين - من أقل ما ينبغي لربه عليه، واستكثر قليل معاصيه وذنوبه، فإن الكسرة التى حصلت لقلبه أوجبت له هذا كله، فما أقرب الجبر من هذا القلب المكسور! وما أدنى النصر والرحمة والرزق منه! وما أنفع هذا المشهد له وأجداه عليه! وذرة من هذا ونفسٌ منه أحبُّ إلى الله من طاعات أمثال الجبال من المدُلِّين المعُجَبين بأعمالهم وعلومهم وأحوالهم، وأحب القلوب إلى الله سبحانه: قلب قد تمكنت منه هذه الكسرة، وملكته هذه الذلة، فهو ناكس الرأس بين يدي ربه، لا يرفع رأسه إليه حياءً وخجلًا من الله.

قيل لبعض العارفين: أيسجد القلب؟ قال: نعم، يسجد سجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم اللقاء، فهذا سجود القلب.

ويحكى عن بعض العارفين أنه قال: دخلت على الله من أبواب الطاعات كلها، فما دخلت من باب إلا رأيت عليه الزحام، فلم أتمكن من الدخول، حتى جئت باب الذل والافتقار، فإذا هو أقرب باب إليه وأوسعه، ولا مزاحم فيه ولا معوق، فما هو إلا أن وضعت قدمي في عتبته، فإذا هو سبحانه قد أخذ بيدي وأدخلني عليه.

يا من ألوذ به فيما أؤمله ومن أعوذ به مما أحاذره

لا يجبر الناسُ أنت كاسِرُهُ ولا يهيضون عظمًا أنت جابره

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يقول: من أراد السعادة الأبدية فليلزم عتبة العبودية.

وقال بعض العارفين: لا طريق أقرب إلى الله من العبودية، ولا حجاب أغلظ من الدعوى، ولا ينفع مع الإعجاب والكبر عمل اجتهاد، ولا يضر مع الذل والافتقار بطالة، يعني بعد فعل الفرائض.

والقصد: أن هذه الذلة والكسرة الخاصة تدخله على الله، وترميه على طريق المحبة، فيفتح له منها باب لا يفتح له من غير هذه الطريق [مدارج السالكين].

قال الحسن البصري: إن العبد ليعمل الذنب فلا ينساه، ولا يزل متخوفًا منه حتى يدخل الجنة.

يــــا رب، أنــــت رجــــائي وفــــيــــك حــســنــت ظـنـي
يــــا رب، فـــاغــفــر ذنــــوبي وعافـــــــني واعــــف عــني
الـــعـــفـــو مـــنــــك إلـــهي والذنـــــب قـــد جــــاء مـني
والـــظـــن فـــيــــك جمـــيـل حــــقـــق بحـــقـــك ظــني

[لطائف المعارف]

وقال أحد السلف: طغيان الطاعة أشد من طغيان المعصية.

ومرَّ أحد الناس المشهورين بالمعاصي والذنوب على عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وطلبة العلم، فأشار عبد الله بن مسعود له وابتسم له، فقالوا له: أتبتسم له وهوفلان؟ فقال عبد الله بن مسعود: لعل الله اطلع في قلوبنا ورأى ما يكره من عجب وكبر، واطلع على قلبه فرأى ما يحب من انكسار.

إذا أراد الله بعبده خيرًا فتح له من أبواب التوبة، والندم، والانكسار، والذل، والافتقار، والاستعانة به، وصدق اللجأ إليه، ودوام التضرع، والدعاء، والتقرب إلي بما أمكن من الحسنات ما تكون تلك السيئة به رحمته حتى يقول عدو الله: يا ليتني تركته ولم أوقعه.

وهذا معنى قول بعض السلف: إن العبد ليعمل الذنب يدخل به الجنة، ويعمل الحسنة يدخل بها النار، قالوا: كيف؟ قال: يعمل الذنب فلا يزال نصب عينيه منه

مشفقًا وجلًا باكيًا نادمًا مستحيًا من ربه تعالى، ناكس الرأس بين يديه منكسر القلب له، فيكون ذلك الذنب أنفع له من طاعات كثيرة بما ترتب عليه من هذه الأمور التي بها سعادة العبد وفلاحه حتى يكون ذلك الذنب سبب دخوله الجنة ويفعل الحسنة فلا يزال يَمُنُّ بها على ربه ويتكبر بها ويرى نفسه ويعجب بها ويستطيل بها، ويقول: فعلت، وفعلت، فيورثه من العجب والكبر والفخر والاستطالة ما يكون سبب هلاكه، فإذا أراد الله تعالى بهذا المسكين خيرًا ابتلاه بأمر يكسره ويذل به عنقه ويصغر به نفسه عنده وإن أراد به غير ذلك خلاَّه وعجَبَه وكبرَهَ وهذا هو الخذلان الموجب لهلاكه.

فإن العارفين كلهم مجموعون على أن التوفيق أن لا يكلك الله تعالى إلى نفسك، والخذلان أن يكلك الله تعالى إلى نفسك، فمن أراد الله به خيرًا فتح له باب الذل والانكسار ودوام اللجأ إلى الله تعالى والافتقار إليه ورؤية عيوب نفسه وجهلها وعدوانها ومشاهدة فضل ربه وإحسانه ورحمته وجوده وبره وغناه وحمده، فالعارف سائر إلى الله تعالى بين هذين الجناحين لا يمكنه أن يسير إلا بهما فمتى فاته واحد منهما كالطير الذي فقد أحد جناحيه.

قال شيخ الإسلام: العارف يسير إلى الله بين مشاهدة المنة ومطالعة عيب النفس والعمل [الوابل الصيب].

❋❋❋

٤٠- الإنابة إلى الله تعالى

فإذا استقرت قدمه في منزل التوبة نزل بعده منزلة الإنابة، وقد أمر الله تعالى بها في كتابه، وأثنى على خليله بها، فقال: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ ﴾ [الزمر: ٥٤]، وقال: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ ﴾ [هود: ٧٥]، وأخبر أن آياته إنما تبصر بها ويتذكر أهل الإنابة، فقال تعالى: ﴿ أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ٦ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ٧ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ﴾ [ق: ٦-٧].

والإنابة إنابتان: إنابة لربوبيته- وهي إنابة المخلوقات كلها، يشترك فيها المؤمن والكافر والبر والفاجر، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرّٞ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ ﴾ [الروم: ٣٣]، فهذا عام في حق كل داعٍ أصابه ضر، كما هو الواقع، وهذه الإنابة لا تستلزم الإسلام، بل تجامع الشرك والكفر، كما قال تعالى في حق هؤلاء: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرّٞ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ٣٣ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٣-٣٤].فهذا حالهم بعد إنابتهم.

والإنابة الثانية- إنابة أوليائه، وهي إنابة لإلهيته، إنابة عبودية ومحبة.

وهي تتضمن أربعة رموز: محبته، والخضوع له، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه، فلا يستحق اسم المنيب إلا من اجتمعت فيه هذه الأربع، وتفسير السلف لهذه اللفظة يدور على ذلك.

وفي اللفظة معنى الإسراع والتقدم، والمنيب إلى الله المسرع إلى مرضاته، الراجع إليه كل وقت، المتقدم إلى محابِّهِ، وهي في اللغة: الرجوع، وهي ها هنا: الرجوع إلى الحق.

ومن علامات الإنابة: تركُ الاستهانة بأهلِ الغفلة والخوف عليهم، مع فتحك باب الرجاء لنفسك، فترجو لنفسك الرحمة، وتخشى على أهل الغفلة النقمةَ، ولكن ارْجُ لهم الرحمة، واخْشَ على نفسك النقمة، فإن كنت لابدَّ مستهينًا بهم ماقتًا لهم لانكشاف أحوالهم لك، ورؤية ما هم عليه، فكن لنفسك أشدَّ مقتًا منك لهم، وكن أرجى لهم لرحمة الله منك لنفسك.

قال بعض السلف: لن تفقه كل الفقه حتى تمقت الناس في ذات الله، ثم ترجع إلى نفسك فتكون لها أشد مقتًا.

وهذا الكلام لا يفقه معناه إلا الفقيه في دين الله، فإن من شهد حقيقة الخلق، وعجزهم وضعفهم وتقصيرهم، بل تفريطهم، وإضاعتهم لحق الله، وإقبالهم على غيره، وبيعهم حظهم من الله بأبخسِ الثمن من هذا العاجل الفاني لم يجد بدًّا من مقتهب مسام، ولا يمكنه غيرُ ذلك البتة، ولكن إذا رجع إلى نفسه وحاله وتقصيره، وكان على بصيرة من ذلك كان لنفسه أشدَّ مقتًا واستهانة، فهذا هو الفقيه.

* * *

٤١- الزهد في الدنيا

قال تعالى: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾ [النحل: ٩٦].

وقال تعالى: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [الحديد: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [الأعلى: ١٦-١٧].

وقال تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٣٣-٣٥].

والقرآن مملوء من التزهيد والإخبار بخستها وقلتها وانقطاعها وسرعة فنائها والترغيب في الآخرة والإخبار بشرفها ودوامها، فإذا أراد الله بعبد خيرًا أقام في قلبه شاهدًا يعاين به حقيقة الدنيا والآخرة ويؤثر منهما ما هو أولى بالإيثار.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول: الزهد ترك ما لا ينفع في الآخرة، والورع: ترك ما تخاف ضرره في الآخرة، وهذه العبارة من أحسن ما قيل في الزهد والورع وأجمعها.

وقال سفيان الثوري: الزهد في الدنيا قصر الأمل، ليس بأكل الغليظ ولا لبس العباء.

ذلك أن الزهد في الشيء في لغة العرب - التى هي لغة الإسلام -: الانصراف عنه احتقارًا له، وتصغيرًا لشأنه، للاستغناء عنه بخيرٍ منه.

وقال ابن الجلاء: الزهد هو النظر إلى الدنيا بعين الزوال، فتصغر في عينك، فيسهل عليك الإعراض عنها.

وقيل: هو عزوف عن الدنيا بلا تكلف.

وقال الجنيد: الزهد خلو القلب عما خلت منه اليد.

وقال الإمام أحمد: الزهد في الدنيا قصر الإمل، وقال أيضًا: أنه عدم فرحه بإقبالها ولا حزنه على إدبارها، فإنه سئل عن الرجل يكون معه ألف دينار هل يكون زاهدًا؟ فقال: نعم على شريطة أن لا يفرح إذا زادت ولا يحزن إذا انقصت.

وقال أبو سليمان الداراني: ترك ما يشغل عن الله.

وقال الإمام أحمد: الزهد على ثلاثة أوجه: **الأول**- ترك الحرام وهو زهد العوام، ، **والثاني**- ترك الفضول من الحلال وهو زهد الخواص، **والثالث**- ترك ما يشغل عن الله وهو زهد العارفين.

❊❊❊

درجات الزهد

الدرجة الأولى- الزهد في الشبهة بعد ترك الحرام

أما الزهد في الشبهة: فهو ترك ما يشتبه على العبد هل هو حلال أو حرام كما قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْحَلَالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ فَمَنْ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ» [البخاري ومسلم].

ثم يأنف لنفسه من نقصه عند ربه وسقوطه من عينه لا أنفه من نقصه عند الناس وسقوطه من أعينهم.

الدرجة الثانية- اغتنام التفرغ إلى عمارة الوقت:

وحسم الجأش والتحلي بحلية الأنبياء والصديقين وعمارة الوقت: الاشتغال في جميع آنائه بما يقرب إلى الله، أو يعين على ذلك من مأكل أو مشرب أو منكح أو منام أو راحة، فإنه متى أخذها بنية القوة على ما يحبه الله وتجنب ما يسخطه كانت من عمارة الوقت، بل لا تحسب أن عمارة الوقت بالصلاة ونحوها فحسب فإن عمارة الوقت بالعمل الصالح شكرًا لله بالزراعة والصناعة والعمل في عمارة الأرض، واستخراج كنوزها، وإصلاحها، وتنمية الثروات، وإعداد القوى والعدد، لتكون الأمة قادرة على تمكين دينها، وإقامة شرائع الإسلام ومد ظل عدله ورحمته على الناس، وإخراجهم من الظلمات إلى النور، وكذلك حسن العشرة مع الأهل

والولد والجار بكل ما يجعل العشرة حسنة من مأكل ومشرب وملبس وغير ذلك مما يُهيىءالحياو الرغيدة، والعيش السعيد للأسرة لتكون فى جو وبيئة صالحة كريمة لإنشاء جيل جديد من أبناء صالحين نافعين عاملين لقوة الأمة وعزتها، وكذلك التمهر في الصناعات والحرف التي تسبق الأمة غيرها في مضمار العمران، كل ذلك ونحوه شكرًا لله على نعمه فيها أعطى، وحسن الانتفاع به، وينبغي أن يعمر الوقت.

الدرجة الثالثة- الزهد في الزهد، وهو بثلاثة أشياء:

استحقار ما زهدت فيه، واستواء الحالات فيه عندك، والذهاب عن شهود الاكتساب.

احتقار ما زهد فيه: فإن من امتلأ قلبه بمحبة الله وتعظيمه لا يرى أن ما تركه لأجله من الدنيا يستحق أن يجعل قربانًا، لأن الدنيا بحذافيرها لا تساوي عند الله جناح بعوضة، فالعارف لا يرى زهده فيها كبير أمرٍ يعتد به ويحتفل له، فيستحي من صح له الزهد أن يجعل ما تركه لله قدرًا يلاحظ زهده ويستحي من ذكره بلسانه وشهوده بقلبه.

وأما استواء الحالات فيه عنده: فهو أن يرى ترك ما زهد فيه وأخذه متساويين عنده، وهذا من دقائق فقه الزهد فيكون زاهدًا في حال أخذه.

وأما الذهاب عن شهود الاكتساب: فمعناه أن يشاهد تفرد الله عَزَّوَجَلَّ بالعطاء والمنع، فلا يرى أنه ترك شيئًا ولا أخذ شيئًا، بل الله وحده هو المعطي المانع، فما

أخذه فهو مجرى لعطاء الله إياه كمجرى الماء في النهر، وما تركه لله فالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هو الذي منعه، فيذهب بمشاهدة الفعال وحده عن شهود كسبه وتركه.

* * *

٤٢- الورع

قال تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ﴾ [المدثر: ٤].

قال قتادة ومجاهد: نفسك فطهر من الذنب، فكَنَّى عن النفس بالثوب.

قال ابن عباس: لا تلبسها على معصية ولا غدر، ثم قال: أما سمعت قول غيلان ابن سلمة الثقفي:

وإني بحمد الله لا ثوب غادر لبست ولا من غدرة أتقنع

والعرب تقول في وصف الرجل بالصدق والوفاء: طاهر الثياب وتقول للغادر والفاجر: دنس الثياب.

وقال أبي بن كعب: لا تلبسها على الغدر والظلم والإثم، ولكن البسها وأنت بر طاهر.

والمقصود: أن الورع يطهر دنس القلب ونجاسته كما يطهر الماء دنس الثوب ونجاسته، وبين الثياب والقلوب مناسبة ظاهرة وباطنة، ولذلك تدل ثياب المرء في المنام على قلبه وحاله، ويؤثر كل منهما في الآخر، ولهذا نهي عن لباس الحرير والذهب وجلود السباع لما تؤثر في القلب من الهيئة المنافية للعبودية والخشوع، وتأثير القلب والنفس في الثياب أمر خفي يعرفه أهل البصائر من نظافتها ودنسها ورائحتها وبهجتها وكسفتها حتى إن ثوب البر ليُعرف من ثوب الفاجر وليس

عليهما، وقد جمع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الورع في كلمة واحدة، فقال: «**مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ**» [رواه الترمذي].

فهذا يعم الترك لما لا يعني من الكلام والنظر والاستماع والبطش والمشي والذكر وسائر الحركات الظاهرة والباطنة، فهذه الكلمة كافية شافية.

قال أبو سليمان الداراني: الورع أول الزهد كما أن القناعة أول الرضا.

وقال يحي بن معاذ: الورع الوقوف على حد العلم من غير تأويل، وقال: الورع على وجهين: ورع في الباطن، فورع الظاهر: أن لا يتحرك إلا لله، وورع الباطن: هو أن لا يدخل قلبك سواه.

وقال يونس بن عبيد: الورع الخروج من كل شبهة ومحاسبة في كل طرفة.

وقال سفيان الثوري: ما رأيت أسهل من الورع، ما حاك في نفسك فاتركه.

وقال أبو هريرة: جلساء الله غدًا أهل الورع والزهد.

وقال بعض السلف: لا يبلغ العبد حقيقة التقوى حتى يدع ما لا بأس به حذرًا مما لا بأس.

ويرتقي الورع بصاحبه حتى يؤدي به إلى حفظ الحدود عندما لا بأس به، إبقاء على الصيانة والتقوى، وتخلصًا من اقتحام الحدود.

فمن صعد إلى هذه الدرجة من الورع يترك كثيرًا مما ر بأس به من المباح، إبقاءً على صيانته، وخوفًا عليها أن يتكدر صفوها، ويطفأ نورها. فإن كثيرًا من المباح يكدر صفو الصيانة، ويذهب بهجتها، ويطفىء نورها، ويُخلق حسنها وبهجتها.

وقال لي يومًا شيخ الإسلام ابن تيمة - قدس الله روحه - في شيء من المباح: هذا ينافي المراتب العالية، وإن لم يكن تركه شرطًا في النجاة، أو نحو هذا من الكلام.

فالعارف يترك كثيرًا من المباح إبقاء على صيانته، ولا سيما إذا كان ذلك المباح برزخًا بين الحلال والحرام.

* * *

٤٣- التبتل

قال الله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا﴾ [المزمل: ٨].

التبتل: الإنقطاع، وهو تفعل من البتل وهو القطع، وسميت مريم (البتول) لانقطاعها عن الأزواج وعن أن يكون لها نظراء من نساء زمانها، ففاقت نساء الزمان شرفًا وفضلًا وقطعت منهن.

فالتبتل: الإنقطاع إلى الله بالكلية وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّ﴾ [الرعد: ١٤]. أي: التجرد المحض، أي: التبتل عن ملاحظة الأعواض، بحيث لا يكون المتبتل كالأجير الذي لا يخدم إلا لأجل الأجرة فإذا أخذها انصرف عن باب المستأجر، والاستشهاد بقوله: ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّ﴾ في هذا الموضوع فيه إرادة هذا المعنى، وأنه تعالى صاحب دعوة الحق لذاته وصفاته وإن لم يوجب لداعيه بها ثوابًا فإنه يستحقها لذاته، فهو أهل أن يُعبدَ وحده، ويُدعى وحده، ويُقصد ويُشكر ويُحمد ويُرجى ويُخاف ويتوكل عليه ويُستعان به ويُستجار به ويُلجأ إليه ويُصمد إليه فتكون الدعوة الإلهية الحق له وحده ومن قام بقلبه هذا معرفة وذوقًا وحالًا صح له مقام التبتل.

* * *

٤٥- الرجاء

قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

وقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ بِاللَّهِ الظَّنَّ**» [صحيح مسلم].

وفي الصحيح قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي فَلْيَظُنَّ بِي مَا شَاءَ**» [رواه الإمام أحمد].

الرجاء: حادٍ يحدو القلوب إلى بلاد المحبوب وهو الله والدار الآخرة، ويطيب له السير، وقيل: هو الاستبشار بجود وفضل الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، والإرتياح لمطالعة كرمه سبحانه، وقيل: هو الثقة بجود الرب تعالى.

الفرق بينه وبين التمني أن التمني يكون مع الكسل، ولا يسلك بصاحبه طريق الجد والاجتهاد، والرجاء يكون مع بذل الجهد وحسن التوكل.

فالأول- كحال من يتمنى أن يكون له أرض يبذرها ويأخذ زرعها.

والثاني- كحال من يشق أرضه ويفلحها ويبذرها ويرجو طلوع الزرع.

ولهذا أجمع العارفون على أن الرجاء لا يصح إلا مع العمل.

أنواع الرجاء

١- رجاء رجل عمل بطاعة الله على نور من الله فهو راجٍ لثوابه.

٢- رجاء رجل أذنب ذنوبًا ثم تاب منها، فهو راج لمغفرة الله تعالى وعفوه وإحسانه وجوده وحلمه وكرمه.

٣- رجاء رجل متمادٍ في الفريط والخطايا يرجو رحمة الله بلا عمل، فهذا هو الغرور والتمني والرجاء الكاذب.

رجاء المحسن ثواب إحسانه أم المذنب التائب

واختلفوا، أي الرجاءين أكمل: رجاء المحسن ثواب إحسانه، أو رجاء المسيء التائب مغفرة ربه وعفوه؟

فطائفة رجحت رجاء المحسن لقوة أسباب الرجاء معه، وطائفة رجحت رجاء المذنب لأن رجاءه مجرد عن علة رؤية العمل، مقرون بذلة رؤية الذنب.

وقال يحي بن معاذ: يكاد رجائي لك مع الذنوب يغلب رجائي لك مع الأعمال، لأني أجدني أعتمد في الأعمال على الإخلاص، وكيف أصفيها وأحرزها؟ وأنا بالآفات معروف، وأجدني في الذنوب أعتمد على عفوك، وكيف لا تغفرها وأنت بالجود موصوف؟

وقال أيضًا: إلهي، أحلى العطايا في قلبي رجاؤك، وأعذب الكلام على لساني ثناؤك، وأحب الساعات إليَّ ساعة يكون فيها لقاؤك.

٤٦- الخوف من الله

وهي من أَجَلِّ منازل الطريق وأنفعها للقلب، وهي فريضة على كل أحد، قال تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠].

ومدح أهله في كتابة وأثنى عليهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧-٦١].

وفي المسند عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قلت يا رسول الله، قول الله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، «أَهُوَ الَّذِي يَزْنِي وَيَسْرِقُ وَيَشْرَبُ الْخَمْرَ قَالَ لَا يَا بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ أَوْ يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ وَلَكِنَّهُ الرَّجُلُ يَصُومُ وَيَتَصَدَّقُ وَيُصَلِّي وَهُوَ يَخَافُ أَنْ لَا يُتَقَبَّلَ مِنْهُ» [رواه الحميدي، وحسنه الألباني].

قال الحسن: عملوا والله بالطاعات، واجتهدوا فيها، وخافوا أن تُرَدَّ عليها المؤمن جمع إحسانًا وخشية، والمنافقَ جمع إساءة وأمنًا.

والوجل والخوف والخشية والرهبة ألفاظ متقاربة غير مترادفة.

قال الجنيد: الخوف تَوَقُّعُ العقوبة على مجاري الأنفاس.

وقيل: الخوف اضطراب القلب وحركته من تذكر المخوف.

وقيل: الخوف هرب القلب من حلول المكروه عند استشعاره.

والخشية أخص من الخوف، فإن الخشية للعلماء بالله، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، فهي خوف مقرون بمعرفة، وقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَنَا أَعْلَمُكُمْ بِاللَّهِ وَأَشَدُّكُمْ لَهُ خَشْيَةً**» [صحيح البخاري].

وأما الرهبة فهي الإمعان في الهرب من المكروه، وهي ضد الرغبة التي هي سفر القلب في طلب المرغوب فيه.

وأما الوجل فرجفان القلب، وانصداعه لذكر من يخاف سلطانه وعقوبته، أو لرؤيته.

وأما الهيبة فخوفٌ مقارنٌ للتعظيم والإجلال، وأكثر ما يكون مع المحبة والمعرفة.

والإجلال: تعظيم مقرون بالحب.

فالخوف لعامة المؤمنين، والخشية للعلماء العارفين، والهيبة للمحبين، والإجلال للمقربين، وعلى قدر العلم والمعرفة يكون الخوف والخشية.

قال أبو حفص: الخوف سوط الله، يُقَوِّمُ به الشاردين عن بابه، وقال: الخوف سراج في القلب، به يبصر ما فيه من الخير والشر.

قال أبو سليمان: ما فارق الخوف قلبًا إلا خرب.

وقال إبراهيم بن سفيان: إذا سكن الخوف القلوب أحرق مواضع الشهوات منها، وطرد الدنيا عنها.

وقال ذو النون: الناس على الطريق ما لم يزل عنهم الخوف، فإذا زال عنهم الخوف ضلوا الطريق.

والخوف ليس مقصودًا لذاته، بل هو مقصود لذاته، بل هو مقصود لغيره قصد الوسائل، ولهذا يزول بزوال المخوف، فإن أهل الجنة لا خوف عليهم، ولا هم يحزنون.

والخوف المحمود الصادق: ما حال بين صاحبه وبين محارم الله عَزَّوَجَلَّ، فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول: الخوف المحمود ما حجزك عن محارم الله.

حال المؤمن

القلب في سيره إلى الله بمنزلة الطائر، فالمحبة رأسه والخوف والرجاء جناحاه، فمتى سلم الرأس والجناحان فالطائر جيد الطيران، ومتى قُطِعَ الرأسُ مات الطائر ومتى فُقِدَ الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر، ولكن السلف استحبوا أن يقوى في الصحة جناحُ الخوفِ على جناح الرجاء، وعند الخروج من الدنيا يقوى جناحُ الرجاء على جناح الخوف.

٤٧- مراقبة الله تعالى

قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤].

وقال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

وفي حديث جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه سأل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الإحسان فقال له: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» [صحيح مسلم].

ومن الحديث يتضح أن المراد (المراقبة) هي: دوام عم العبد وتيقنه بإصلاح الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على ظاهره وباطنه، فاستدامته لهذا العلم واليقين هي (المراقبة) وهي ثمرة علمه بأن الله سبحانه رقيب عليه ناظرٌ إليه سامه لقوله، وهو مطلع على عمله كل والمرقت وكل لحظة، وكل نفس وكل طرفة عين.

وقيل: من راقب الله في خواطره عصمه في حركات جوارحه.

وقال الجنيد: من تحقق في المراقبة خاف على فوات لحظة من ربه لا غير.

قال ذو النون: علامة المراقبة إيثار ما أنزل الله وتعظيم ما ما عظم الله وتصغير ما صغر الله.

وقال إبراهيم الخوَّاص: المراقبة خلوص السرّ والعلن لله عَزَّوَجَلَّ.

وقال أبو حفص لأبي عثمان النيسابوري: إذا جلست للناس فكن واعظا لقلبك ونفسك، ولا يغرنك اجتماعهم عليك، فإنهم يراقبون ظاهرك، والله يراقب باطنك.

والمراقبة هي التعبد باسمه الرقيب، الحفيظ، العليم، السميع، البصير، فمن عقل هذه الأسماء، وتعبد بمقتضاها: حصلت له المراقبة.

* * *

٤٨- الإخلاص

قال الفضيل بن عياض: ﴿ أَحۡسَنُ عَمَلٗا ﴾ هو أخلصه وأصوبه، قالوا: يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه؟ فقال: إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يُقبل وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يُقبل حتى يكون خالصًا صوابًا، والخالص: أن يكون لله والصواب: ما كان على السنة ثم قرأ قوله تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴾ [الكهف: ١١٠].

قال تعالى: ﴿ وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ ﴾ [النساء: ١٢٥].

فإسلام الوجه: إخلاص القصد والعمل لله، والإحسان فيه متابعة رسوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وسننه.

قال تعالى: ﴿ وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣].

وهي الأعمال التي كانت على غير السنة، وأريد بها غير وجه الله، وقد تنوعت عباراتهم في الإخلاص، فقيل: هو إفراد الحق سبحانه بالقصد في الطاعة، وقيل: تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين، وقيل: الإخلاص استواء أعمال العبد في الظاهر والباطن، والرياء: أن يكون ظاهره خيرًا من باطنه، والصدق في الإخلاص: أن يكون باطنه أعمر من ظاهره، وقيل: الإخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق، ومن تزين للناس بما ليس فيه سقط من عين الله.

وقال الفضيل: ترك العمل من أجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما.

وقال الجنيد: الإخلاص سر بين الله وبين العبد لا يعلمه ملك فيكتبه، ولا شيطان فيفسده ولا هوى فيميله.

وقيل لسهل: أس شيء أشد على النفس؟ فقال: الإخلاص، لأنه ليس لها فيه نصيب.

وقال بعضهم: الإخلاص أن لا تطلب على عملك شاهدًا غير الله، ولا مُجازيًا سواه.

وقال مكحول: ما أخلص عبد قط أربعين يومًا إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه.

وقال أبو سليمان الداراني: إذا أخلص العبد انقطعت عنه كثرة الوساوس والرياء.

كيف تُخلص العمل؟

فكل خير في العبد فهو مجرد فضل الله ومِنَّته وإحسانه ونعمته، وهو المحمود عليه والذي يخلص من رضاه بعمله وسكونه إليه أمران:

أحدهما- مطالعة عيوبه وآفاته وتقصيره فيه وما فيه من حظ النفس ونصيب الشيطان فقلَّ عملٌ من الأعمال إلا وللشيطان فيه نصيب وإن قَلَّ، وللنفس فيه حظ.

سُئِلَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن التفات الرجل في صلاته؟ فقال: «**هُوَ اخْتِلَاسٌ يَخْتَلِسُهُ الشَّيْطَانُ مِنْ صَلَاةِ الْعَبْدِ**» [صحيح البخاري].

فإذا كان هذا التفات طرفةٍ أو لحظةٍ فكيف التفات قلبه إلى ما سوى الله؟! هذا أعظم نصيب الشيطان من العبودية، وأما حظ النفس من العمل فلا يعرفه إلا أهل البصائر الصادقون.

الثاني- علمه بما يستحقه الرب من حقوق العبودية وآدابها الظاهرة والباطنة وشروطها، وأن العبد أضعف وأعجز وأقل من أن يوفيها حقًا وأن يرضى بها ربه، فالعارف لا يرضى بشيء من عمله وبغضه لها وكراهته لأنفاسه وصعودها إلى الله يحول بينه وبين الرضا بعمله والرضا عن نفسه، وقال بعضهم: آفة العبد رضاه عن نفسه، ومن لم يتهم نفسه على دوام الأوقات فهو مغرور.

* * *

٤٩- الحياء

قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الْحَيَاءُ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ**» [صحيح مسلم].

وقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ فَافْعَلْ مَا شِئْتَ**» [صحيح البخاري].

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قال: كان رسول الله أشد حياء من العذراء في خدرها فإذا رأى شيئًا يكرهه عرفناه في وجهه.

وفي الترمذي مرفوعًا: «**اسْتَحْيُوا مِنْ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ**» قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّا نَسْتَحْيِي وَالْحَمْدُ للهِ قَالَ: «**لَيْسَ ذَاكَ وَلَكِنَّ الِاسْتِحْيَاءَ مِنْ اللهِ حَقَّ الْحَيَاءِ أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى وَالْبَطْنَ وَمَا حَوَى وَلْتَذْكُرْ الْمَوْتَ وَالْبِلَى وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ اسْتَحْيَا مِنْ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ**».

حياة القلب في الحياء

والحياء من الحياة ومنه (الحيا) للمطر لكن هو مقصور، وعلى حسب حياة القلب يكون فيه قوة خُلُق الحياء، وقلة الحياء من موت القلب والروح، فكلما كان القلب أحيا كان الحياء أتم.

قال الجنيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الحياء رؤية الآلاء ورؤية التقصير فيتولد بينهما حالة تسمى الحياء، وحقيقته خُلُقٌ يبعث على ترك القبائح ويمنع من التفريط في حق صاحب الحق.

وقال الفضيل بن عياض: خمس من علامات الشقوة، القسوة في القلب، وجمود العين، وقلة الحياء، والرغبة في الدنيا، وطول الأمل، وفي أثر إلهي: ما أنصفني عبدي، يدعوني فأستحيي أن أرده، ويعصيني ولا يستحيي مني.

وقال يحي بن معاذ: من استحيا من الله مطيعًا استحيا الله منه وهو مذنب.

فحياء الله حياء كرم، وبر وجود وجلال، فإنه حيي كريم يستحي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفرًا ويستحيي أن يعذب ذا شيبة شاب في الإسلام.

أنواع الحياء

حياء الجناية: فمنه حياء آدم لما فر هاربًا في الجنة. قال الله تعالى: أفرارًا بني آدم؟ قال: لا يارب بل حياء منك.

وحياء التقصير: كحياء الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون فإذا كان يوم القيامة، قالوا: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك.

وحياء الإجلال: هو حياء المعرفة، وعلى حسب معرفة العبد بربه يكون حياؤه منه.

وحياء الكرم: كحياء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من القوم الذين دعاهم إلى وليمة زينب وطوّلوا الجلوس عنده فقام واستحيا أن يقول لهم: انصرفوا.

وحياء الحشمة: كحياء علي بن أبي طالب أن يسأل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يسأل رسول الله عن المذي لمكان منه.

وأما حياء الإستحقار وإستصغار النفس: كحياء العبد من ربه عَزَّوَجَلَّ حين يسأله وجه احتقار الشأن نفسه واستصغارًا لها.

وأما حياء العبودية: فهو حياء ممتزج من محبة وخوف ومشاهدة عدم صلاح عبوديته لمعبوده وأن قدره أعلى وأَجَلُّ منها، فعبوديته له توجب استحياءه منه لا محالة.

وأما حياء الشرف والعزة: فحياء النفس العظيمة الكبيرة إذا صدر منها ما هو دون قدرها من بذل أو عطاء وإحسان فإنه يستحي مع بذله حياء شرف نفس وعزة.

وأما حياء المرء من نفسه: فهو حياء النفوس الشريفة العزيزة الرفيعة من رضاها لنفسها بالنقص وقناعتها بالدون فيجد نفسه مستحييًا من نفسه، حتى كأن له نفسين يستحيي بإحداهما من الأخرى، وهذا أكمل ما يكون من الحياء فإن العبد إذا استحيا من نفسه فهو بأن يستحي من غيره أجدر.

❊ ❊ ❊

٥٠- محبة الله تعالى

وهي المنزلة التي فيها تنافس المتنافسون، وإليها شَخَصَ العاملون، وإلى علمها شمَّر السابقون، وعليها تفاني المحبون، وبروح نسيمها تروَّح العابدون، فهي قوت القلوب، وغذاء الأرواح، وقرة العيون، وهي الحياة التى من حرمها فهو من جملة الأموات، الذي من فقده في بحار الظلمات، والشفاء الذي من عدمه حلَّت بقلبه جميع الأسقام، واللذة التى من لم يظفربها فعيشه كله هموم وآلام.

وهي سمة هذه الطائفة المسافرين إلى ربهم الذين ركبوا جناح السفر إليه ثم لم يفارقوه إلى حين اللقاء وهم الذين قعدوا على الحقائق وقعد من سواهم على الرسوم.

وهي عنوان طريقتهم ودليلهم، فإن العنوان يدل على الكتاب، والمحبة تدل على صدق الطالب وأنه من أهل الطريق.

وهي روح الإيمان والأعمال والمقامات والأحوال التي متى خلت منها فهي كالجسد الذي لا روح فيه.

تحمل أثقال السائرين إلى بلاد لم يكونوا إلا بشق الأنفس بالغيها، وتوصلهم إلى منازل لم يكونوا بدونها أبدًا واصليها وتُبوؤهم من مقاعد الصدق مقامات لم يكونوا لولاها داخليها، وهي مطايا القوم التي مسراهم على ظهورها دائمًا إلى

الحبيب وطريقهم الأقوم الذي يبلغهم إلى منازلهم الأولى من قريب، تالله... لقد ذهب أهلها بشرف الدنيا والآخرة، إذ لهم من معية محبوبهم أوفر نصيب وقد قضى الله يوم قدر مقادير الخلائق بمشيئته وحكمته البالغة أن (المرء مع من أحب) فيالها من نعمة على المحبين سابغة! تالله لقد سبق القومُ السعاةَ وهم على ظهور الفرش نائمون، وقد تقدموا الركب بمراحل وهم في سيرهم واقفون.

مــن لي بـمــثـل ســيرك المـدلـل   تـمـشي رويـــدًا وتـــجي في الأول

أجابوا منادي الشوق إذ نادى بهم: حيَّ على الفلاح، وبذلوا نفوسهم في طلب الوصول إلى محبوبهم.

تالله لقد حمدوا عند الوصول سراهم، وشكروا مولاهم على ما أعطاهم، وإنما يحمد القومُ السرى عند الصباح.

الأسباب الجالبة لمحبة الله

أحدها- قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أُريد به.

الثاني- التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض، فإنها توصله إلى درجة المحبوبية بعد المحبة.

الثالث- دوام ذكره على كل حال باللسان والقلب والعمل والحال، فنصيبه من المحبة على قدر نصيبه من الذكر.

الرابع- إيثار محابه على محابك عند غلبات الهوى، والتَّنَسُّمُ إلى محابِّه وإن صعب المرتقى.

الخامس- مطالعة القلب لأسمائه وصفاته ومشاهدتها ومعرفتها وتقلبه في رياض هذه المعرفة ومباديها، فمن عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله أحبه لا محالة.

السادس- مشاهدة بره وإحسانه وآلائه ونعمه الظاهرة والباطنة.

السابع- وهو من أعجبها انكسار القلب بين يدي الله تعالى، وليس في التعبير عن هذا المعنى غير الأسماء والعبارات.

الثامن- الخلوة به وقت النزول الإلهي لمناجاته وتلاوة كلامه، والوقوف بالقلب والتأدب بأدب العبودية بين يديه، ثم ختم ذلك بالإستغفار والتوبة.

التاسع- مجالسة المحبين والصادقين، والتقاط أطايب ثمرات كلامهم كما ينتقي أطايب الثمر، ولا تتكلم إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام، وعلمت أن فيه مزيدًا لحالك ومنفعة لغيرك.

العاشر- مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله عَزَّوَجَلَّ.

فمن هذه الأسباب العشرة وصل المحبون إلى منازل المحبة، ودخلوا على الحبيب، **وملاك ذلك كله أمران:**

١- استعداد الروح لهذا الشأن.

٢- وانفتاح عين البصيرة وبالله التوفيق.

والكلام في هذه المنزلة معلق بطرفين: طرف محبة العبد لربه، وطرف محبة الرب لعبده.

والذي أجمع عليه العارفون: أنه يحبهم، وأنهم يحبونه، على إثبات الطرفين، وأن محبة العبد لربه فوق كل محبة تقدر، ولا نسبة لسائر المحاب إليها، وهي حقيقة (لا إله إلا الله) وكذلك عندهم محبة الرب لأوليائه ورسله: صفة زائدة على رحمته، وإحسانه وعطائه، فإن ذلك أثر المحبة وموجبها، فإنه بما أحبهم كان نصيبهم من رحمته وإحسانه وبره أتمَّ نصيب.

الشوق ثمرة المحبة

ومن آثار المحبة: الشوق.

قال الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖ﴾ [العنكبوت: ٥].

قيل هذا تعزية للمشتاقين وتسلية لهم، أي أنا أعلم أن من كان يرجو لقائي فهو مشتاق إليَّ فقد أجلت له أجلا يكون عن قريب فإنه آتٍ لا محالة وكل آتٍ قريب.

وفيه لطيفة أخرى وهي تعليل المشتاقين برجاء اللقاء.

لــولا التعلل بـالـرجـاء لقطعت نفس المـحُـب صـبـابـةً وتشوقًا

ولـقـد يـكـاد يـذوب منه قلبه ممــا يــقــاسي حــــسرةً وتحــرقًــا

حــتى إذا روحُ الــرجــاء أصـابـه سكنَ الحـريـقُ إذا تعلل باللقا

وقد كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول في دعائه: «**وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ**» [رواه النسائي].

وقيل: هو اهتياج القلوب إلى لقاء المحبوب، والمحبة أعلى منه لأن الشوق عنها يتولدوعلى قدرها يقوى ويضعف.

قال يحيي بن معاذ: علامة الشوق فطام الجوارح عن الشهوات.

ومنه: الشوق إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وتعليق القلب بصفاته المقدسة، وهذا الشوق لا ينافي الشوق إلى الجنة، فإن أطيب ما في الجنة قربه تعالى، ورؤيته وسماع كلامه ورضاه.

نعم الشوق إلى مجرد الأكل والشرب والحور العين في الجنة ناقص بالنسبة إلى شوق المحبين إلى الله تعالى، وإلى صفاته المختصه بالمنن والإحسان كالبر، والمنان، والمحسن، والجواد، والمعطي، والغفور، والوهاب، واللطيف، ونحوها.

* * *

الفصل الرابع

البعد عن أسباب قسوة القلب

أسباب قسوة القلب

٥١- كثرة الكلام بغير ذكر الله

قال تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الزمر:٢٢]، وفي الحديث أن كثرة الكلام بغير ذكر الله من أسباب قسوة القلب.

٥٢- نقض العهد مع اللّه

قال تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ﴾ [المائدة:١٣]، **قال ابن عقيل**: يا من يجد من قلبه قسوة أحذر أن تكون نقضت عهدًا [ذم قسوة القلوب لابن رجب].

٥٣- كثرة الضحك

عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا تُكْثِرُوا الضَّحِكَ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ الْقَلْبَ**» [أخرجه الترمذي].

٥٤- كثرة الأكل

ولا سيما إن كان من الشبهات، أو الحرام قال بشر بن الحارث: خصلتان تقسيان القلب كثرة الكلام، وكثرة الأكل، وقال لقمان لابنه وهو يعظه: يا بني لا تكثر من الطعام فإن المعدة إذا ملئت غابة الفكرة، وقيل من أكل كثيرًا ناما كثيرًا فاته خيرًا كثير.

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا تُكْثِرُوا الضَّحِكَ فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ الْقَلْبَ**» [رواه ابن ماجة، وحسنه الألباني].

ومر رجل من الصالحين على شباب يضحكون فنادى لأحدهم وقال له يا بني لماذا تضحك كل هذا الضحك، أضمنت دخول الجنة؟ قال الشاب: لا، فقال له: أضمنت النجاة من النار؟ قال: لا، فقال الرجل فلماذا تضحك؟

وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نادرًا إذا ضحك ولكن كان يتبسم.

❊ ❊ ❊

٥٥- كثرة الإختلاط

فأما ما تؤثره كثرة الخلطة: فامتلاء القلب من دخان أنفاس بني آدم حتى يسود، يوجب له تشتتًا وتفرقًا، وهمًا، وغمًا، وضعفًا، وحملًا لما يعجز عن حمله من مؤنة قرناء السوء، وإضاعة مصالحه، والإشتغال عنها بهم وبأمورهم، وتقسم فكرة في أودية مطالبهم وإرادتهم، فماذا يبقى منه لله والدار الآخرة؟

هذا، وكم جلبت خلطة الناس من نقمة، ودفعت من نعمة؟ وأنزلت من محنة؟ وهل كان على (أبي طالب) عند الوفاة أضر من قرناء السوء؟ لم يزالوا به حتى حالوا بينه وبين كلمة واحدة له سعادة الأبد.

وهذه اللحظة التى تكون على نوع مودة في الدنيا، وقضاء وطر بعضهم من بعض تنقلب إذا حقت الحقائق عداوة، وبعض المخلط عليها يديه ندمًا، كما قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩]، قال تعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧]، وقال خليله إبراهيم لقومه: قال تعالى: ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ [العنكبوت: ٢٥]، وهذا شأن كل مشتركين في غرض، يتوادون ما داموا متساعدين على حصوله، فإذا

انقطع ذلك الغرض، أعقب ندامة وحزنًا وألمًا، وعذابًا، كما يشاهد في هذه الدار من أحوال المشتركين في خزيه، إذا أخذوا وعوقبوا، فكل متساعدين على باطل، متوادين عليه لابد أن تنقلب مودتهما بغضًا وعداوة.

والضابط النافع في أمر الخلطة أن يخالط الناس في الخير كالجمعة والجماعة والأعياد والحج وتعلم العلم والجهاد والنصيحة، ويعتزلهم في الشر وفضول المباحات، فإن دعت الحاجة إلى خلطتهم في الشر، ولم يمكنه اعتزالهم فالحذر الحذر أن يوافقهم، وليصبر على أذاهم، فإنهم لابد أن يؤذوه إن لم يكن له قوة ولا ناصر، ولكن أذى يعقبه عز ومحبة له وتعظيم، وثناء عليه منهم ومن المؤمنين ومن رب العالمين، وموافقتهم يعقبها ذل وبغض له، ومقت، وذم منهم ومن المؤمنين، ومن رب العالمين.

فالصبر على أذاهم خير وأحسن عاقبة، وأحمد مآلًا، وإن دعت الحاجة إلى خلطتهم في فضول المباحات، فليجتهد أن يقلب ذلك المجلس طاعة لله إن أمكنه، ويشجع نفسه ويقوي قلبه، ولا يلتفت إلى الوارد الشيطاني القاطع له عن ذلك، بأن هذا رياء ومحبة لإظهار علمك وحالك، ونحو ذلك، فليحاربه، وليستعن بالله، ويؤثر فيهم من الخير ما أمكنه، فإن أعجزته المقادير عن ذلك، فليسهل قلبه من بينهم كسل الشعرة من العجين، وليكن فيهم حاضرًا غائبًا، قريبًا بعيدًا، نائمًا يقظانًا، ينظر إليهم ولا يبصرهم، ويسمع كلامهم ولا يعيه، لأنه قد أخذ قلبه من

بينهم، ورقى به إلى الملأ الأعلى، يسبح حول العرش مع الأرواح العلوية الزكية، وما أصعب هذا وأشقه على النفوس، وإنه ليسير على من يسره الله عليه، فبين العبد وبينه أن يصدق الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ويديم اللجأ إليه، ويلقي نفسه على بابه طريحًا ذليلًا، ولا يعين على هذا إلا محبةٌ صادقةٌ، والذكر الدائم بالقلب واللسان، وتجنب المفسدات الأربع الباقية الآتي ذكرها، ولا يُنال هذا إلا بعُدةٍ صالحةٍ ومادة قوةٍ من الله عَزَّوَجَلَّ، وعزيمة صادقة، وفراغ من التعلق بغير الله تعالى، والله تعالى أعلم.

[مدارج السالكين]

* * *

٥٦- كثرة الأمنيات

ويفسد القلب أيضًا بركوبه بحر التمني وهو بحر لا ساحل له، وهو البحر الذي يركبه مفاليس العالم، كما قيل: إن المُنى رأس أموال المفاليس، وبضاعة ركابه مواعيد الشيطان وخيالات المحال والبهتان، فلا تزال أمواج الأماني الكاذبة، والخيالات الباطلة تتلاعب براكبه وكل بحسب حاله: من متمن للقدرة والسلطان، وللضرب في الأرض والتطواف في البلدان، أو للأموال والأثمان فيمثل المتمني صورة مطلوبه في نفسه وقد فاز بوصولها، والتذ بالظفر بها، فبينا هو على هذه الحال، إذ استيقظ، فإذا يده والحصير!!

وصاحب الهمة العالية أمانيه حائمة حول العلم والإيمان، والعمل الذي يقربه إلى الله، ويدنيه من جواره.

فأماني هذا إيمان ونور وحكمة وأماني أولئك خدع وغرور.

وقد مدح النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ متمني الخير، وربما جعل أجره في بعض الأشياء كأجر فاعله كالقاتل: لو أن لي مالًا لعملت بعمل فلان الذي يتقى في ماله ربه ويصل فيه رحمه ويخرج منه حقه وقال: «**هُمَا فِي الْأَجْرِ سَوَاءٌ**» [صحيح الجامع].

[المصدر السابق]

❊ ❊ ❊

٥٧- التعلق بغير الله

المفسد الثالث من مفسدات القلب: التعلق بغير الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى وهذا أعظم مفسداته على الإطلاق.

فليس عليه أضر من ذلك ولا أقطع له عن مصالحه وسعادته منه فإنه إذا تعلق بغير الله وكَلَه الله إلى ما تعلق به، وخذله من جهة ما تعلق به، وفاته تحصيل مقصوده من الله عَزَّوَجَلَّ بتعلقه بغيره والتفاته إلى سواه، فلا على نصيبه من الله حصل، ولا إلى ما أمله ممن تعلق به وصل.

قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١-٨٢]، وقال الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا﴾ [يس: ٧٤-٧٥].

فأعظم الناس خذلانًا من تعلق بغير الله، فإنَّ ما فاته من مصالحه وسعادته وفلاحه، أعظم مما حصل له ممن تعلق به، وهو مُعرض للزوال والفوات، ومثل المتعلق بغير الله كمثل المستظل من الحر والبرد ببيت العنكبوت، أوهن البيوت.

وبالجملة: فأساس الشرك وقاعدته التي بنى عليها التعلق بغير الله، ولصاحبه الذم والخذلان، كما قال تعالى: ﴿لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومًا مَّخۡذُولًا﴾ [الإسراء: ٢٢]، مذمومًا: لا حامد لك، مخذولًا: لا ناصر لك، إذ قد يكون بعض الناس

مقهورًا محمودًا كالذي قُهر بباطل، وقد يكون مذمومًا منصورًا كالذي قهر وتسلط بباطل، وقد يكون محمودًا منصورًا كالذي تمكن وملك بحق، والمشرك المتعلق بغير الله قسمه أردأ الأقسام الأربعة، لا محمود ولا منصور.

[المصدر السابق]

* * *

٥٨- كثرة الطعام

ومن مفسدات القلب: الطعام، والمفسد له من ذلك نوعان:

أحدهما- ما يفسده لعينه وذاته كالمحرمات، وهي نوعان: محرمات لحق الله، كالميتة والدم، ولحم الخنزير، وذي الناب من السباع والمخلب من الطير، ومحرمات لحق العباد، كالمسروق والمغصوب والمنهوب، وما أخذ بغير رضا صاحبه، إما قهرًا وإما حياءً وتذممًا.

والثاني- ما يفسده بقدره، وتعدي حده، كالإسراف في الحلال، والشبع المفرط، فإنه يثقله عن الطاعات، ويشغله بمزاولة مؤنة البطن ومحاولتها، حتى يظفر بها، فإذا ظفر بها شغله بمزاولة تصرفها ووقاية ضررها، والتأذي بثقلها، وقوى عليه مواد الشهوة، وطرق مجاري الشيطان ووسعها، فإنه يجري من ابن آدم مجرى الدم، فالصوم يضيق مجاريه ويسد عليه طرقه، والشبع يطرقها ويوسعها، ومن أكل كثيرًا شرب كثيرًا، فنام كثيرًا فخسر كثيرًا، وفي الحديث المشهور: «**مَا مَلَأَ ابْنُ آدَمَ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ حَسْبُ ابْنِ آدَمَ أُكُلَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ فَثُلُثُ طَعَامٍ وَثُلُثُ شَرَابٍ وَثُلُثٌ لِنَفْسِهِ**» [رواه الإمام أحمد].

[المصدر السابق]

* * *

٥٩- فضول النظر

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا عَلِيُّ، لَا تُتْبِعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ؛ فَإِنَّ لَكَ الْأُولَى وَلَيْسَتْ لَكَ الْآخِرَةُ»[١].

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ النَّظْرَةَ سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ مَسْمُومٌ، مَنْ تَرَكَهَا مَخَافَتِي أَبْدَلْتُهُ إِيمَانًا يَجِدُ حَلَاوَتَهُ فِي قَلْبِهِ»[٢].

وعن جرير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سألت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن نظر الفجأة، فقال: «اصرف بصرك»[٣].

ولقد قال أحد الحكماء: «الصبر على غض البصر أيسر من الصبر على ألم ما بعده».

وقال الشاعر:

كل الحـــوادث مبدؤها مـن النظر ومعظم النار من مستصغر الشرر
كم نظرة بلغت من قلب صاحبها كمبلغ السهم بين القوس والوتر

والنظرة تفعل في القلب ما يفعل السهم في الرَّمية؛ فإن لم تقتله جرحته، وهي بمنزلة الشرارة من النار تُرمى في الحشيش اليابس؛ فإن لم تحرقه كله أحرقت بعضه، كما قيل:

(١) (مسند الإمام أحمد)، (سنن الترمذي)، (سنن أبو داود)، (صحيح ابن حبان)، وغيرها.
(٢) (مسند الإمام أحمد)، (المعجم الكبير) للطبراني، (المستدرك على الصحيحين) للحاكم.
(٣) أخرجه أبو داود، والدارمي، وقال الألباني: (صحيح).

كْم نظرةٍ فعلتْ في قلب صاحبها لــســهــامِ بــلا قـــوسٍ ولا وتـــرِ
والمـــرءُ مــا دامَ ذا عــينٍ يُقَلِبُها في أَعــينِ الغِيرِ موقوفٌ على خَطرِ
يَــسرُّ مُقلَتَهُ مــا ضرَّ مُهجَـتَهُ لا مـرحــبًـا بـــسرورٍ عادَ بـالـضررِ

والناظر يرمي من نظره بسهام غرضها قلبه وهو لا يشعر فهو إنما يرمي قلبه، ولي من أبياتٍ:

يا رامــيًّــا بسهامِ اللَّحظِ مُجتهدًا أنـتَ القتيلُ بما تَـرْمي فلا تُصِبِ
وبَاعِثُ الطَّرفِ يَـرْتَـادُ الشِّفاءَ لَهُ احْبِسْ رَسُولكَ لا يَأْتِيكَ بالعطَبِ

***

٦٠- طول الأمل

قال تعالى: ﴿ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [الحديد:١٦]، فإن طول الأمل من أعظم أسباب قسوة القلب لأنه ينسي العبد الله والدار الآخرة والعمل والأستعداد للأخرة.

* * *

٦١- عدم الإستجابة لأمر الله ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال:٢٤]، توعد الله تعالى لمن لم يستجيب لأمره وأمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأن الله يحول بينه وبين قلبه فلا يدخله الإيمان، ولا يخرج منه الكفر، ولا يدخله الطاعة، ولا يخرج منه المعاصي والذنوب، وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف:٥]، وقال تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ ﴾ [الأنعام:١١٠]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾.

* * *

٦٢- حب الدنيا والركون إليها

قال الشافعى: من إدَّعى أنه جمع بين حب الدنيا وخالقها فى قلبه فقد كذب [إحياء علوم الدنيا].

وقال يحيى بن معاذ الرازى: «الدنيا خمرُ الشيطانِ من سكر منها فلا يفيقُ إلا فى عسكر الموتى نادمًا بين الخاسرين».

وقال عيسى بن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ: «رأس الخطيئة حبُّ الدنيا، والنساء، حبالةُ الشيطان، والخمر جماعُ كلِّ شر» [رواه ابن أبى الدنيا].

وقال على بن أبى طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الدنيا والأخرة ضرتنا فإن أرضيت إحدهما أغضبت الأخرى وكان أحد السلف إذا رأى السائل قال تعالَ يا من تحمل زادى إلى الأخرة.

وعن سفيان قال كان عيسى بن مريم يقول: «حُبُ الدنيا أصلُ كل خطيئة، والمالُ فيه داءٌ كثير»، **قالوا**: وما داؤه؟ قال «لا يسلمُ صاحبه من الفخر والخيلاء»، قالوا: فإن سلم؟ قال: «يشغله إصلاحُه عن ذكر الله عَزَّوَجَلَّ» [أخرجه أحمد فى الزهد].

وقال: «أجعلوا كنوزكم فى السماء فإن قلب المرء عند كنزه».

[رواه البيقهى فى شعب الإيمان]

وقال: «اتقوا فضول الدنيا، فإن فضول الدنيا عند الله رجز» [أخرجه ابن أبى الدنيا].

وقال: «يا بنى إسرائيل، اجعلوا بيوتكم كمنازل الأضياف فما لكم فى العالم من منزل إن أنتم إلا عابر سبيل» [أخرجه ابن أبى شيبة].

وقال: «يا معشر الحواريين أيكم يستطيع أن يبنى على موج البحر دارًا؟ قالوا: يا روح الله من يقدرُ على ذلك؟ قال: إياكم والدنيا فلا تتخذوها قرارًا» [ابن أبى الدنيا].

وقال: «حلاوةُ الدنيا مرارةُ الآخرة، ومرارة الدنيا حلاوةُ الآخرة».

[ابن أبى الدنيا][عدة الصابرين، دار ابن الجوزى، القاهرة]

وسأل رجل أحد السلف فقال: كيف أعرف أنى من أهل الدنيا أم من أهل الأخرة؟ فقال له إذا أتاك رجلين رجل يعطيك هدية ورجل يسألك صدقة، فإذا فرحت بالذى يعيطيك الهدية فأنت من أهل الدنيا وإذا فرحت بالذى يطلب الصدقة فأنتا من أهل الأخرة.

حقارة الدنيا

قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى:١٦-١٧].

وقال تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ [الأنفال:٦٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [يونس:٧-٨].

قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴾ [الرعد:٢٦].

وقال تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص:٨٣].

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلاَ إِنَّ الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلاَّ ذِكْرُ اللهِ وَمَا وَالاَهُ وَعَالِمٌ أَوْ مُتَعَلِّمٌ» [حسنه الألباني، الترمذي].

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ» [الترمذي: الصحيحة].

وعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ بالسُّوقِ وَالنَّاسُ كَنَفَيْهِ، فَمَرَّ بِجَدْيٍ أَسَكَّميت، فَتَنَاوَلَهُ فَأَخَذَ بِأُذُنِهِ ثُمَّ قَالَ: «أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنَّ هَذَا لَهُ بِدِرْهَمٍ؟» فَقَالُوا: مَا نُحِبُّ أَنَّهُ لَنَا بِشَيْءٍ، وَمَا نَصْنَعُ بِهِ؟ قَالَ: «أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ؟» قَالُوا: واللهِ، لَوْ كَانَ حَيًّا لَكَانَ عَيْبًا فِيهِ، لِأَنَّهُ أَسَكُّ فَكَيْفَ وَهُوَ مَيِّتٌ؟ قَالَ: «وَاللهِ، لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مَنْ هَذَا عَلَيْكُمْ»

[صحيح مسلم]

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ فِي الْيَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمَاذَا يَرْجِعُ» [صحيح مسلم].

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَمَنْ تَشَعَّبَتْ بِهِ الْهُمُومُ فِي أَحْوَالِ الدُّنْيَا لَمْ يُبَالِ اللهُ فِي أَيِّ أَوْدِيَتِهَا هَلَكَ» [صحيح الجامع].

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ كَانَتِ الْآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ» [صحيح الجامع].

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ، وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلاَ انْتَقَشَ» [صحيح البخاري].

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ، وَجَنَّةُ الْكَافِرِ» [صحيح مسلم].

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللَّهُمَّ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ» [صحيح البخاري].

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ»، وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ، يَقُولُ: «إِذَا أَمْسَيْتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ الْمَسَاءَ» [صحيح البخاري].

عن ابن مسعود قال: نام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَالِي وَلِلدُّنْيَا مَا أَنَا وَالدُّنْيَا إِنَّمَا أَنَا وَالدُّنْيَا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا» [السلسلة الصحيحة].

وعن عائشة قالت: «مَا شَبِعَ آلُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ خُبْزِ شَعِيرٍ يَوْمَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ، حَتَّى قُبِضَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **وقال رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» [صحيح مسلم].

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللهَ لَيَحْمِي عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ مِنَ الدُّنْيَا وَهُوَ يُحِبُّهُ، كَمَا تَحْمُونَ مَرِيضَكُمْ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ، تَخَافُونَ عَلَيْهِ» [صحيح مسلم].

حب الدنيا رأس الخطايا ومفسدا للدين من وجوه

أحدهما- أن حُبَّها يقتضى تعظيمَها وهى حقيرةُ عند الله، ومن أكبَرِ الذّنوب تعظيمُ ما حَقَّرَ الله.

وثانيها- أن الله لَعَنَها وَمَقَتَها وَأَبْغَضَها إلا ما كان له فيها، ومن أحَبَّ ما لَعَنَهُ الله وَمَقَتَه وأبْغضَهُ فقد تَعَرَّض لِلفْتَنِةِ وَمَقْتِهِ وَغَضَبِه.

وثالثها- أنه إذا أَحَبَّها صَيَّرها غايتَه وتوسَّلَ إليها بالأعمالِ الَّتِى جعلَها الله وسائِلَ إليه وإلىَ الدارِ الآخرة، فَعَكَس الأَمرَ، وَقَلَبَ الحِكْمَةَ فانتكسَ قلبهُ، وأنعكسَ قلبهُ، وأنعكس سَيْرُه إلىَ وراءٍ.

❊ ❊ ❊

٦٣- كيف تجعل الآخرة همك

هذه تجارات العلماء وطلبة العلم، فكان معاذ بن جبل رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يقول: إني لأحتسب نومتي كما أحتسب قومتى، أي أنه يحتسب الأجر على نومه لأنه ينوي بنومه التقّوِّي لى قيام الليل وصلاة الفجر، فأصبح نومُه عبادًة.

وكذلك تناوُل الطعام بنية التقَوِّي على طاعة الله، وإذا نويتَ بعملك أن تعف زوجتك وأولادك عن السؤال صار عملُك عبادةُ، ما لم تُضيِّع الفرائض بسبب الإنشغال بالعمل أو يكون العملُ فيما حرَّم اللهُ تعالى، فعن كعب بن عُجرّة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: مرَّ على النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ رجلٌ فرأّى أصحابُ رسولِ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من جلَدِه ونشاطِهِ، فقالوا: يا رسو الله! لو كان هذا في سبيلي الله فقال رسولُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «إِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى وَلَدِهِ صِغَارًا، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى أَبَوَيْنِ شَيْخَيْنِ كَبِيرَيْنِ، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَإِنْ كَانَ يَسْعَى عَلَى نَفْسِهِ يُعِفُّهَا، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى رِيَاءً وَتَفَاخُرًا، فَهُوَ فِي سَبِيلِ الشَّيْطَانِ» [رواه الطبراني، وصححه الألباني].

وقال رسولُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «إِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللهِ إِلَّا أُجِرْتَ عَلَيْهَا، حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِي فَمِ امْرَأَتِكَ» [رواه مسلم].

وإذا جامع الرجلُ امرأته ونوى إعفافها وإعفاف نفسه كان له بذلك أجر، فقد قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيَأتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟ قَالَ: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ» [رواه مسلم].

قال رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى» [رواه البخاري]، فعلى قدر إخلاصك ونياتك يكون أجرُك عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

النية تحول العادة إلى عبادة

قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا أَنْفَقَ المُسْلِمُ نَفَقَةً عَلَى أَهْلِهِ، وَهُوَ يَحْتَسِبُهَا، كَانَتْ لَهُ صَدَقَةً» [رواه البخاري].

وقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللهِ إِلَّا أُجِرْتَ عَلَيْهَا، حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِي فَمِ امْرَأَتِكَ» [رواه البخاري].

وقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيَأتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟ قَالَ: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ» [رواه مسلم].

وقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَفْضَلُ دِينَارٍ يُنْفِقُهُ الرَّجُلُ، دِينَارٌ يُنْفِقُهُ عَلَى عِيَالِهِ، وَدِينَارٌ يُنْفِقُهُ الرَّجُلُ عَلَى دَابَّتِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَدِينَارٌ يُنْفِقُهُ عَلَى أَصْحَابِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ» [رواه مسلم].

وقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا أَطْعَمْتَ نَفْسَكَ، فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ، وَمَا أَطْعَمْتَ وَلَدَكَ، فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ، وَمَا أَطْعَمْتَ زَوْجَتَكَ، فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ، وَمَا أَطْعَمْتَ خَادِمَكَ، فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ» [رواه أحمد، وصححه الألباني].

وقال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا إِلَّا كَانَ مَا أُكِلَ مِنْهُ لَهُ صَدَقَةً، وَمَا سُرِقَ مِنْهُ لَهُ صَدَقَةٌ، وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ مِنْهُ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ، وَمَا أَكَلَتِ الطَّيْرُ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ، وَلَا يَرْزَؤُهُ أَحَدٌ إِلَّا كَانَ لَهُ صَدَقَةٌ» [رواه مسلم].

* * *

٦٤- اتباع الهوى

قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات:٣٧-٤١].

قال الإمام ابن كثير: ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴾ **أي:** تمرد وعتى، ﴿ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ **أي:** قدمها على أمر دينه وأخراه، ﴿ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾، ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴾ **أي:** خاف القيام بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ وخاف حكم الله فيه ونهى نفسه عن هواها وردها إلى طاعة مولاها، ﴿ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ **أي:** منقلبة ومصيره ومرجعه إلى الجنة الفيحاء.

وقال تعالى: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ [ص:٢٦].

ذم الهوى

وأما الهوى فهو عن الخير صادٌّ، وللعقل مضادٌّ، لأنه ينتج من الأخلاق قبائحها، ويظهر من الأفعال فضائحها، ويجعل ستر المروءة مهتوكًا، ومدخل الشر مسلوكًا.

قال عبد الله بن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: الهوى إله يعبد من دون الله، ثم تلا: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ [الجاثية:٢٣].

وقال عكرمة في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الحديد: ١٤]، يعني: بالشهوات ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾، يعني: بالتوبة ﴿وَارْتَبْتُمْ﴾، يعني: في أمر الله، ﴿وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ﴾ يعني: بالتسويف، ﴿حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ يعني: الموت، ﴿وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾، يعني: الشيطان.

وقال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اقدَعوا[1] هذه النفوس عن شهواتها فإنها طَلَاَّعة تَنْزِعُ إلى شر غاية، إن هذا الحق ثقيل مُرِّيٌّ، وإن الباطل خفيف وَبِيٌّ، وترك الخطيئة خير من معالجة التوبة، ورُبَّ نظرةٍ زرعت شهوة، وشهوةٍ ساعة أورثت حزنًا طويلًا».

وقال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أخاف عليكم اثنين: اتباع الهوى وطول الأمل، فإن اتباع الهوى يصد عن الحق، وطول الأمل ينسي الآخرة.

وقال الشعبي: إنما سمي الهوى هوى؛ لأنه يهوي بصحبه.

وقال أعرابي: الهوى هوانٌ ولكن غلط باسمه.

فأخذه الشاعر وقال:

إن الهــوان هو الهــوى قُــلِـبَ اسمُهُ   فــإذا هَــوَيْــتَ فقد لَقِيتَ هوانًا

وقيل في منثور الحكم: من أطاع هواه؛ أعطى عدوه مناه.

وقال بعض الحكماء: العقل صديق مقطوع، والهوى عدو متبوع.

---

(١) اقدعوا: مثل امنعوا: لفظًا ومعنى.

وقال بعض البلغاء: أفضل الناس من عصى هواه، وأفضل منه من رفض دنياه.

وقال هشام بن عبد الملك بن مروان:

إذا أنت لم تعصِ الهوى قادك الهوى ... إلى كلِّ ما فيه عليك مقالُ

قال ابن المعتز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لم يقل هشام بن عبد الملك سوى هذا البيت.

وقال الشاعر:

إذا ما رأيتَ المرءَ يقْتَادُه[1] الهوى ... فقد ثَكِلَتْهُ[2] عند ذاك ثواكُلهْ

وقد أشمتَ الأعداءَ جَهْلًا بنفسه ... وقد وجدتْ فيه مقالًا عوادلُهْ

وما يردِعُ النفسَ اللجوجَ عن الهوى ... من الناس إلا حازمُ الرأي كاملُهْ

فلما كان الهوى غالبًا وإلى سبيل المهالك موردًا؛ جعل العقل عليه رقيبًا مجاهدًا يلاحظ عثرة غفلته، ويدفع بادرة سطوته، ويدفع خداع حيلته؛ لأن سلطان الهوى قوي، ومدخل مكره خفي، ومن هذين الوجهين يُؤتى العاقل حتى تنفذ أحكام الهوى عليه، أعني بأحد الوجهين: قوة سلطانه، وبالآخر خفاء مكره.

فأما الوجه الأول فهو: أن يقوى سلطان الهوى بكثرة دواعيه حتى يستولي عليه مغالبة الهوات فيَكِلُّ عن دفعها، ويضعف عن منعها، مع وضوح قبحها في العقل

---

(١) إقتاد الدابة: سحبها من أمامها. وساقها: دفعها من خلفها.
(٢) ثكلته: فقدته.

المقهور بها، وهذا يكون في الأحداث أكثر وعلى الشباب أغلب؛ لقوة شهواتهم، وكثرة دواعي الهوى المتسلط عليهم، وإنهم ربما جعلوا الشباب عذرًا لهم، كما قال محمد بن بشير:

كلٌّ يرى أن الشبابَ له في كل مبلغ لذة عذْرُ

كلٌّ يرى أن الشبابَ له في كل مبلغ لذة عرا

ولذلك قال بعض الحكماء: الهوى ملك غشوم، ومتسلط ظلوم.

وقال بعض الأدباء: الهوى عسوف، والعدل مألوف.

وقال بعض الشعراء:

يا عاقلًا أردى الهوى عقلَهُ مالك قد ستدَّتْ عليك الأمورْ

أتجعلُ العقلَ أسيرَ الهوى إنما العقلُ عليه أميرْ

وحسم ذلك: أن يستعين بالعقل على النفس النفورة فيشعرها ما فى عواقب الهوى من شدة الضرر، وقبح الأثر، وكثرة الإجرام، وتراكم الآثام، فقد قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**حُفَّتِ الجنة بالمكاره، وحُفَّتِ النار بالشهوات**»(١)، أخبر أن الطريق إلى الجنة إحتمال المكاره، والطريق إلى النار إتباع الشهوات.

(١) البخاري [٦٤٨٧]، مسلم [٢٨٢٢].

قال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إياكم وتحيكم الشهوات لى أنفسكم، فإن عاجلها ذمي، وآجلها وخيم، فإن لم ترها تنقاد بالتحذير والإرهاب، فسوِّفها بالتاميل والإرغاب، فإن الرغبة والرهبة إذا اجتمعا ذلَّتْ لهما وإنقادت.

وقد قال ابن السماك: كن لهواك مسوِّفًا، ولعلك مُسْعِفًا، وانظر إلى ما تسوء عاقبته فوطِّنْ نفسك على مجانبته، فإن ترك النفس وما تهوى داؤها، وترك ما تهوى دواؤها، فاصبر على الدواء، كما تخاف من الداء.

وقال الشاعر:

صبرتُ على الأيامِ حتى تولَّتِ ... وألزمتُ نفسى صبرَها فاستمرتِ

وما النفسُ إلا حيثُ يجعلُها الفتى ... فإن أُطْمِعتْ تاقتْ وإلا تسلَّتِ

فإذا انقادت النفس للعقل بما قد أُشْعِرتْ من عواقب الهوى لم يلبث الهوى أن يصير بالعقل مدحورًا، وبالنفس مقهورًا، ثم له الحظ الوفى فى ثواب الخالق وثناء المخلوقين، قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات:٤٠-٤١].

وقال الحسن البصري: أفضل الجهاد جهاد الهوى.

وقال بعض الحكماء: أعز العز الإمتناع من ملك الهوى.

وقال بعض البلغاء: خير الناس من أخرج الشهوة من قلبه، وعصى هواه في طاعة ربه.

وقال بعض الأدباء: من أمات شهوته؛ فقد أحيا مروءته.

وقال بعض العلماء: ركب الله الملائكة من عقل بلا شهوة، وركب البهائم من شهوة بلا عقل، وركب ابن آدم من كليهما، فمن غلب عقله على شهوته؛ فهو خير من الملائكة، ومن غلبت شهوته على عقله؛ فهو شر من البهائم.

وقيل لبعض الحكماء: من أشجع الناس، وأحرهم بالظفر في مجاهدته؟ قال: من جاهد الهوى طاعة لربه، وإحترس في مجاهدته من ورود خواطر الهوى على قلبه.

وقال بعض الشعراء:

قد يدركُ الحازمُ ذو الرأي المنى بطاعةِ الحزم وعصيانِ الهوى

وأما الوجه الثاني- فهو أن يُخفي الهوى مَكْرَه حتى تتموه أفعاله على العقل فيتصور القبيح حسنًا والضرر نفعًا.

وهذا يدعو إليه أحد شيئين:

إما أن يكون للنفس ميل إلى ذلك الشيء، فيَخْفَى عنها القبيح لحسن ظنها، وتتصوره حسنا لشدة ميلها، ولذلك قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**حبُّك الشيء يُعْمِي ويُصِمّ**»[1]، **أي**: يعمي عن الرشد ويصم عن الموعظة.

(١) ضعيف: رواه أبو داود [٥١٣٠]، وضعفه الألباني في (الضعيفة) [١٨٦٨].

وقال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الهوى عمى.

قال الشاعر:

حَـسَــنٌ في كلِّ عــينٍ مــن تَــوَدُّ

وقال عبيد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

ولستُ بــراءٍ عيبَ ذي الــوُدِ كله   ولا بعضَ ما فيه إذا كنتُ راضيا
فعينُ الـرضى عن كلِّ عيب كليلةٌ   ولكنَّ عينَ السُّخْطِ تبْدِي المساويا

وأما السبب الثاني فهو: اشتغال الفكر في تمييز ما اشتبه، فيطلب الراحة في إتباع ما استسهل حتى يظن أن ذلك أوفق أمريه، وأحمد حاليه؛ إغترارًا بأن الأسهل محمود والأعسر مذموم، فلن يَعدِمَ أن يتورط بخُدِعَ الهوى وريبة المكر في كل مَخُوفٍ حَذِر، ومكروه عَسِرٍ، ولذلك قال عامر بن الظَرِبِ: الهوى يقظان والعقل راقد، فمن ثم غلب.

وقال سليمان بن وهب: الهوى أمنع، والرأي أنفع.

وقيل في المثل: العقل وزير ناصح، والهوى وكيل فاضح.

وقال الشاعر:

إذا المرءُ أعطى نفسَهُ كلما اشتهتْ   ولـم يَنْهَهَا تـاقـتْ إلى كل باطلِ
وسـاقـتْ إليـه الإثـمَ والـعـارَ بالذي   دعــتْــهُ إله مــن حـــلاوةِ عاجــلِ

وحسم السبب الأول: أن جعل فكر قلبه حكمًا على نظر عينه، فإن العين رائد[١] الشهوة، والشهوة من دواعي الهوى، والقلب رائد الحق والحق من دواعي العقل.

وقال بعض الحكماء: نظر الجاهل بعينه وناظره، ونظر العاقل بقلبه وخاطره.

ثم يتهم نفسه في صواب ما أحبت وتحسين ما اشتهت؛ ليصح له الصواب ويتبين له الحق، فإن الحق أثقل محملًا، وأصعب مركبًا، فإن أشكل عليه أمران؛ إجتنب أحبهما إليه، وترك أسهلهما عليه، فإن النفس عن الحق أنفر، وللهوى آثر، وقد قال العباس بن عبد المطلب: إذا اشتبه عليك أمران؛ فدع أحبهما إليك، وخذ أثقلهما عليك.

وعلة هذا القول هو: أن الثقيل يبطىء النفس عن التشره إليه فيتضح مع الإبطاء وتطاول الزمان صواب ما استُعْجَم، وظهور ما استُبْهَم[٢].

وقد قال علي بن أبي طالب: من تفكر أبصر، والمحبوب أسهل شيء تسرع النفس إليه، وتعجل بالإقدام عليه، فيقصر عن تصفّحه ويفوت إستدراكه لتقصير فعله، فلا ينفع التصفح[٣] بعد العمل، ولا الإستبانة بعد الفوت.

وقال بعض الحكماء: ما كان عنك مُعرِضًا، فلا تكن له مُتَعِّرضًا.

---

(١) الرائد: هو الذي يتقدم القوم، يطلب لهم مرعى ومنزلًا.
(٢) استبهم واستعجم: أشكل وغمض.
(٣) التصفح: إمعان النظر، وطول التأمل في صفحات الشيء ووجوهه.

وقال الشاعر:

أليس طــلابُ ما قد فــات جهلا   وذكـــــرُ المـــرء مــا لا يستطيعُ

ولقد وصف بعض البلغاء حال الهوى وما يقارنه من محن الدنيا فقال: الهوى مطية الفتنة، والدنيا دار المحنة، فأنزل عن الهوى تسلم، وأعرض عن الدنيا تغنم، ولا يغرنك هواك بطيب الملاهى، ولا تفتنك دنياك بحسن العواري، فمدة اللهو تنقطع، وعارية الدهر تُرْتَجع، ويبقى عليك ما ترتكبه من المحارم، وتكتسبه من المآثم.

وقال علي بن عبد الله الجعفري: سمعتني إمرأة بالطواف، وأنا أنشد:

أهوى هوى الدين والــلذاتُ تُعْجِبُني   فكيف لي بهوى الـــلذاتِ والديــنِ

فقالت: هما ضرتان، فذر أيهما شئت وخذ الأخرى.

فأما الفرق ما بين الهوى والشهوة مع إجتماعهما في العلة والمعلول، وإتفاقهما في الدلالة والمدلول فهو: أن الهوى مختص بالآراء والإعتقادات، والشهوة بنيل اللذة، فصارت الشهوة من نتائج الهوى وهي أخص، والهوى أصل هو أعم، ونحن نسأل الله تعالى أن يكفينا دواعي الهوى، ويصرف عنا سُبُلَ الرَّدَى، ويجعل التوفيق لنا قائدًا، والعقل لنا مرشدًا، فقد روي أن الله تعالى أوحى إلى عيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ عِظْ نفسَك، فإن اتعظت؛ فعظ الناس، وإلا فاستحي مني.

وقال محمد بن كُناسة:

مـا مَـنْ روى أدبًـا فـم يعملْ به ويـكـفَّ عـن زيـغ الهـوى بأديبِ
حـتى يـكـونَ بما تـعـلَّـمَ عامـلا مـن صـالـحٍ فيكوَنُ غـيرَ معيبِ
ولـقـلـمـا تُـغـِني إصـابـةُ قـائـلٍ أفـعـالـه أفـعـالُ غـيـرِ مصيبِ

وقال آخر:

يـا أيـهـا الـرجـلُ المـعـلّـمُ غـيَرُ هـلاَّ لنفسك كان إذا ذا التعليمُ
تصف الدواءَ لذي السِّقَام وذي الضنى كيما يـصـحُّ بـه وأنـتَ سقيمُ
ابـدأ بنفسك فانَهـَا عن غيِّها فـإذا انتهتْ عنه فـأنـتَ حكيمُ
فهناك تعذرُ إنْ وعظتَ ويُقْتدَى بالقول منك ويُـقْـبَـلُ التعليمُ
لا تـنْـهَ عـن خُـلُـقٍ وتـأتي مثلَهُ عارٌ عليك إذا فعلتَ عظيمُ

حكى أبو فروة أن طارقًا صاحب شرطة خالد القسري مر بابن شُبْرُمة وطارق في موكبه فقال ابن شبرمة:

أراهـــا وإن كانـت تُحَـبُّ كأنها سحابةُ صيفٍ عن قريبٍ تَقَشَّعُ[١]

اللهم لي ديني ولهم دنياهم، فاستُعمل ابن شُبرمة بعد ذلك على القضاء فقال له ابنه أبو بكر: أتذكر قولك يوم كذا إذ مر بك طارق في موكبه؟ فقال: يا بني إنهم يجدون مثل أبيك ولا يجد أبوك مثلهم، إن أباك أكل من حلوئهم، فحُطَّ في أهوائهم،

(١) تقشع: تنكشف وتضمحل.

أما ترى هذا الدين الفاضل كيف عوجل بالتقريع وقوبل بالتوبيخ من أخص ذويه، ولعله من أبر بنيه، فكيف بنا ونحن أطلق منه عنانًا، وأقلق منه جنانًا؟! إذا رمقتنا أعين المتتبعين، وتناولتنا ألسن المتعتبين، هل نجد غير توفيق الله تعالى مَلاذًا، وسوى عصمته مَعاذًا؟ [أداب الدنيا والدين].

❊ ❊ ❊

٦٥-أصحاب السوء

كما قيل: «الصاحب ساحب، إما يسحبك إلى طاعة الله، أو الهلاك عياذًا بالله».

وقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلْ» فقل لي من صاحبك أقل لك من أنت.

وقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوْءِ كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً وَنَافِخُ الْكِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً» [صحيح البخاري].

وتأمل حديث الرجل الذي قتل مائة نفس، وذهب إلى العالم يسأله: هل له من توبة؟ فقال له: «نَعَمْ وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ انْطَلِقْ إِلَى أَرْضِ كَذَا وَكَذَا فَإِنَّ بِهَا أُنَاسًا يَعْبُدُونَ اللَّهَ فَاعْبُدِ اللَّهَ مَعَهُمْ وَلاَ تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أَرْضُ سَوْءٍ» [صحيح مسلم].

فانظر إلى وصية هذا العالم الرباني لهذا التائب أن إذا أراد التوبة والإستقامة والصلاح أن تذهب إلى أرض بها أناسٌ صالحون يعبدون الله فيعبد اللهَ عهم، ويترك بيئة المعاصي والذنوب التي كانت تعينه على القتل والمعاصي والذنوب، فلا بد لك من تغيير البيئة التي تعصي الله فيها ببيئة إيمانية.

وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾ [الفرقان:٢٧-٢٩].

قال السهيلي: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ ﴾ هو عقبة بن أبي معيط، وكان صديقًا لأمية بن خلف الجُمحي وروى لأبي بن خلف أخى أمية، وكان قد صنع وليمة فدعا إليها قريشًا، ودعا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأبى أن يأتيه إلا أن يسلم، وكره عقبة أن يتأخر عن طعامه، من أشراف قريش أحد فأسلم ونطق الشهادتين، فأتاه رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأكل من طعامه، فعاتبه خليله أمية بن خلف، أو أبي بن خلف وكان غائبًا، فقال عقبة: رأيت عظيمًا أن يتأخر عن طعامه من أشراف قريش فقال له خليله: لا أرضى حتى ترجع وتبصق في وجهه وتطأ عنقه وتقول كيت وكيت، ففعل عدوّ الله ما أمره خليله فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ ﴾ وعضه يديه فعل النادم الحزين لأجل طاعته خليليه ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾ في الدنيا، يعني طريقًا إلى الجنة ﴿ يَٰوَيْلَتَىٰ ﴾ دعاء بالويل والثبور على مخالفة الكفار ومتابعته ﴿لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴾ يعنى أمية، وكنى عنه ولم يصرح باسمه لئلا يكون هذا الوعد مخصوصًا به ولا مقصورًا عليه **وقال مجاهد**: الظالم عام فى كل ظالم.

ولقد أحسن القائل:

تجنب قرين السُّوء واصرم حباله ... فإن لم تجد عنه محيصًا فداره

وأحب حبيب الصدق وأحذر مراؤة تنل منه صفو الود ما لم تماره.

وقال آخر:

أصحب خيار الناس حيث لقيتهم خير الصحابة من يكون عفيفًا

والنـــاس مـثـل دراهـــمٍ ميزتها فـوجـدت مـنـهـا فـضـة وزيـوفًـا

وقال ملك بن دينار: إنك إن تنقل الأحجار مع الأبرار خير لك من أن تأكل الخبيص (نوع الحلواء تصنع من التمر والسمن) مع الفجار وأنشد:

وصاحب خيار الناس تَنْجُ مسلَّمًا وصاحب شرار النـاس يومًا فتندما

[تفسير القرطبي]

وقال تعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف:٦٧].

أي كل صداقة وصحابة لغير الله فإنها تنقلب يوم القيامة عداوة إلا ما كان لله عَزَّوَجَلَّ فلإنه دائم بدوامه.

قال ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا وغيره: صارت كل خلة عداوة يوم القيامة إلا المتقين.

[تفسير ابن كثير]

والخليل هو الحبيب والصاحب الحميم فاحذر كل الحذر من شياطين الإنس فشيطان الجن إذا إستعاذت بالله منه هرب وولا مدبرًا، أما شيطان الإنس إذا قرأت عليه القرآن لا يتركك.

فكم من عفيفه أصبحت من البغايا بسبب صاحبة السوء، وكم من ملتزم أصبحا من الفاسقين بسبب الصاحب السوء.

* * *

٦٦- الشرك بالله

فإن أعظم شيء يميت قلب الإنسان هو الإشراك بالله تعالى لأنه يجعل العبد يعظم في قلبه غير الله ويحبه كمحب الله أشد حبًا ويرجوه من دون الله ويخافه حتى يمتلأ قلبه بهذا المعبود من دون الله فيصير قلبه مظلمة أشد من سواد الليل ولا حول ولا قوة إلا بالله نسأل الله تعالى العافية.

وقد ذكرنا أنواع الشرك الأكبر والشرك الأصغر في أول الكتاب.

* * *

٦٧- الرياء

والرياء عمل قلبي وهو من أعظم أسباب فساد القلوب لأنه يعمل العمل من أجل الناس وهو عمل يتقرب به إلى الله تعالى.

وهو سبب عذاب الله تعالى للعبد يوم القيامة بل أول من يصعر بهم النار يوم القيامة أهل الرياء كما قال رسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا قَالَ قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ قَالَ كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ جَرِيءٌ فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا قَالَ تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ قَالَ كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا قَالَ مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ قَالَ كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ» [صحيح مسلم].

أنواع الرياء

النوع الأول

أن يكون من جهة البدن بإظهار التحول والصفار، ليريهم بذلك شدة الاجتهاد وغلبة خوف الآخرة، وكذلك يرائي بتشعث الشعر ليظهر أنه مستغرق في هم الدين لا يتفرغ لتسريح شعره.

ويقرب من هذا خفض الصوت، وإغارة العينين وذبول الشفتين؛ ليدل بذلك على أنه مواظب على الصوم، ولهذا قال عيسى ابن مريم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «إذا صام أحدكم فليدهن رأسه، ويرجل شعره»، وذلك لما يخاف على الصائم من آفات الرياء، فهذا الرياء من جهة البدن لأهل الدين.

النوع الثاني

الرياء من جهة الزي، كالإطراق حالة المشي، وإبقاء أثر السجود على الوجه، وغلظ الثياب، ولبس الصوف، وتشمير الثياب كثيرًا، وتقصير الأكمام، وترك الثوب مخرقًا غيرَ نظيف؛ لطلب المنزلة عند أهل الصلاح، بإظهار التزهد.

النوع الثالث

الرياء بالقول، ورياء أهل الدين بالوعظ والتذكير، وحفظ الأخبار والآثار، لأجل المحاورة، وإظهار غزارة العلم والدلالة على شدة العناية بأحوال السلف، وتحريك الشفتين بالذكر في محضر الناس، وإظهار الغضب للمنكرات بين الناس، وخفض الصوت وترقيقه بقراءة القرآن، ليدل بذلك على الخوف والحزن ونحو ذلك.

وأما أهل الدنيا فمراءتهم بحفظ الأشعار والأمثال والتفاصح في الكلام، ونحو ذلك.

النوع الرابع

الرياء بالعمل، كمراءات المصلى بطول القيام، وتطويل الركوع والسجود، وإظهار الخشوع، ونحو ذلك، وكذلك بالصوم والغزو والحج والصدقة ونحو ذلك، وأما أهل الدنيا فمراءتهم، بالتبختر، والاختيال، وتحريك اليدين، وتقريب الخطى، والأخذ بأطراف الذيل، وإمال العطفين، ليدلوا بذلك على الحشمة.

النوع الخامس

المراءاة بالأصحاب والزائرين، كالذي يتكلف أن يستزير عالمًا أو عابدًا، ليقال: إن فلانًا قد زار فلانًا، وإن أهل الدين يترددون إليه، ويتبركون به، وكذلك من يرائي بكثرة الشيوخ، ليقال: لقي شيوخًا كثيرة، واستفاد منهم، فيباهي بذلك، فهذه مجامع ما يرائي به المراؤون، يطلبون بذلك الجاه والمنزلة في قلوب العباد.

[جامع العلوم والحكم]

* * *

درجات الرياء

١- الدرجة الأولى

أن يكون رياءٌ محضًا، بحيثُ لا يُرادُ به سوى مراء المخلوقين لغرضٍ دُنيويٍّ، كحالِ المنافقين في صلاتهم، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء:١٤٢].

وهذا الرِّياءُ لا يكاد يصدُرُ من مُؤمنٍ في فرض الصَّلاةِ والصِّيامِ، وقد يصدُرُ في الصَّدقةِ الواجبةِ أو الحجِّ، وغيرهما من الأعمال الظاهريةِ، أو التي يتعدَّى نفعُها، فإنَّ الإخلاص فيها عزيزٌ، وهذا العملُ لا يشكُ مسلمٌ أنَّه حابِطٌ، وأنَّ صاحبه يستحقُّ المقتَ مِنَ الله والعُقوبةِ.

٢- الدرجة الثانية

أن يكون العملُ لله، ويُشاركه الرِّياءُ، فإنْ شارَكَهُ مِنْ أصله، فالنُّصوص الصَّحيحة تدلُّ على بُطلانِهِ وحبوطه أيضًا، وخرَّج الإمام أحمد عن شدّاد بن أوسٍ عنِ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مَنْ صَلَّى يُرَائِي فَقَدْ أَشْرَكَ، وَمَنْ صَامَ يُرَائِي فَقَدْ أَشْرَكَ، وَمَنْ تَصَدَّقَ يُرَائِي فَقَدْ أَشْرَكَ»، وإن الله عَزَّوَجَلَّ يقول: «أَنَا خَيْرُ قَسِيمٍ لِمَنْ أَشْرَكَ بِي، مَنْ أَشْرَكَ بِي شَيْئًا فَإِنَّ حَشْدَهُ عَمَلَهُ قَلِيلَهُ وَكَثِيرَهُ لِشَرِيكِهِ الَّذِي أَشْرَكَهُ بِهِ، وَأَنَا عَنْهُ غَنِيٌّ» [رواه أحمد].

قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [هود:١٥-١٦].

وقال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء:١٨-١٩].

الدرجة الثالثة

أن يكون العمل لله في الأصل ثم طرأت عليه نية الرياء، فإن كان خاطرًا ودفعه فلا يضره بغير خلاف بين العلماء. وإن استرسل مع الرياء ولم يدفعه فاختلف العلماء فيه؛ منهم من قال: يحبط العمل كله، ومن العلماء من قال يجزى على أصل نيته للعمل.

وقال ابن جرير: إن هذا الإختلاف إنما هو في عمل يرتبط بأوله كالصلاة والصيام والحج، فأما ما لا يرتبط فيه كالقراءة والذكر وإنفاق المال ونشر العلم، فإنه ينقطع بنية الرياء الطارئة عليه ويحتاج إلى تجديد نية، وقال سليمان بن داود الهاشمي: ربما أحدث بحديث ولي نية، فإذا أتيت على بعضه تغيرت نيتي، فإذا الحديث الواحد يحتاج إلى نيات.

وقال يوسف بن الحسن الرزازي: أعز شيء في الدنيا الإخلاص، وكم اجتهد في إسقاط الرياء عن قلبي وكأنه ينبت فيه على لون آخر [جامع العلوم والحكم].

٦٨- الغضب

وحقيقة الغضب: غليان دم القلب لطلب الإنتقام، فمتى غضب الإنسان ثارت نار الغضب ثورانًا يغلي به دم القلب، وينتشر في العروق، ويرتفع إلى أعالي البدن، كما يرتفع الماء الذي يغلي في القدر، ولذلك يحمر الوجه والعين والبشرة وكل ذلك يحكي لون ما وراءه من حمرة الدم، كما تحكي الزجاجة لون ما فيها، وإنما ينبسط الدم إذا غضب على من دونه واستشعر القدرة عليه.

فإن كان الغضب صدر ممن فوقه، وكان معه يأس من الإنتقام، تولد منه انقباض الدم من ظاهر الجلد إلى جوف القلب قصر حزنًا، ولذلك يصفر اللون.

والناس في قوة الغضب على درجات ثلاث: إفراط، وتفريط، واعتدال.

والتفريط في هذه القوة أيضًا مذموم، لأنه لا حمية له ولا غيره، ومن فقد الغضب بالكلية، عجز عن رياضة نفسه، إذا الرياضة إنما تتم بتسلط الغضب على الشهوة، فيغضب على نفسه عند الميل إلى الشهوات الخسيسة، فقد الغضب مذموم، فينبغي أن يطلب الوسط بين الطريقين.

واعلم: أنه متى قويت نار الغضب والتهبت، أعمت صاحبها، وأصمته عن كل موعظة، لأن الغضب يرتفع إلى الدماغ.

واعلم: أن الغضب شعلة من النار، وأن الإنسان ينزع فيه عند الغضب عرق إلى الشيطان اللعين، حيث قال: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]، فإن شاء الطيب السكون والوقار، وشأن النار التلظي والإشتعال، والحركة والإضطراب.

ومن نتائج الغضب: الحقد والحسد ووما يدل على ذم الغضب قول النبي ﷺ: «**أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ** ﷺ **أَوْصِنِي. قَالَ: لَا تَغْضَبْ فَرَدَّدَ مِرَارًا. قَالَ: لَا تَغْضَبْ**» [صحيح البخاري].

وكان يقول: اتقوا الغضب؟ فإنه يفسد الإيمان كما يفسد الخل العسل، والغضب عدو العقل.

[منهاج القاصدين بإختصار للإمام ابن قدامة]

❊ ❊ ❊

٦٩- ٧٠- الحقد والحسد

اعلم: أن الغيظ إذا كظم لعجز عن التشفي في الحال رجع إلى الباطن، فاحتقن فيه فصار حقدًا.

وعلامته دوام بغض الشخص، واستثقاله والنفور منه، فالحقد ثمرة الغضب، والحسد من نتائج الحقد.

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا تَبَاغَضُوا وَلَا تَقَاطَعُوا وَلَا تَدَابَرُوا وَلَا تَحَاسَدُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا**» [رواه الإمام أحمد].

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ الْحَسَدُ وَالْبَغْضَاءُ وَالْبَغْضَاءُ هِيَ الْحَالِقَةُ حَالِقَةُ الدِّينِ لَا حَالِقَةُ الشَّعَرِ**» [رواه الإمام أحمد].

وقال ابن سيرين: ما حسدت أحدًا على شيء من أمر الدنيا، لأنه إن كان من أهل الجنة، فكيف أحسده على شيء من أمر الدنيا، وهو يصير إلى الجنة، وإن كان من أهل النار، فكيف أحسده على شيء من أمر الدنيا وهو يصير إلى النار.

واعلم: أن الله تعالى إذا أنعم على أخيك نعمة فلك فيها حالتان.

إحداها- أن تكره تلك النعمة وتحب زوالها، فهذا هو الحسد.

الثانية- ألا تكره وجودها ولا تحب زوالها - ولكنك تشتهي لنفسك مثلها، فهذا يسمى غبطة.

أسباب الحسد

العداوة والتكبر، والعجب، وحب الرياسة، وخبث النفس، وبخلها.

سبب كثرة الحسد

واعلم: أنما يكسر الحسد بين أقوام تكثر بينهم الأسباب التى ذكرناها ويقع ذلك غالبًا بين الأقران، والأمثال، والإخوة، وبني العم، لأن سبب التحاسد توارد الأغراض على مقاصد يحصل التناقض فيها، فيثور التنافر والتباغض.

ولذلك ترى العالم يحسد العالم دون العابد، والعابد يحسد العابد دون العالم، والتاجر يحسد التاجر.

فأصل العداوة التزاحم على غرض واحد، ومنشأ جميع ذلك حب الدنيا، فإن الدنيا هى التي تضيق على المتزاحمين، وأما الآخرة فلا تضيق فيها، فإن من أحب معرفة الله تعالى، وملائكته، وأنبياءه، وملكوت أرضه، وسماءه، ولم يحسد غيره إذا عرف ذلك، لأن المعرفة لا تضيق على العارفين، بل المعلوم الواحد يعرفه ألف عالم، ويفرح بمعرفته غيره، فذلك لا يكون بين علماء الدين محاسدة، لأن مقصودهم معرفة الله سبحانه وهو بحر واسع لا ضيق فيه، وغرضهم المنزلة عند الله، ولا ضيق فيما عند الله، لأن أجل ما عند الله من النعيم لذة لقائه، وليس فيه مما نعت ولا مزاحمة، ولا يضيق بعض الناظرين على بعض، بل يزيد الأنس بكثرتهم، إلا أنه إذا قصد العلماء بالعلم المال والجاه تحاسدوا [منهاج القاصدين].

٧١- ٧٢- الحرص والبخل

وقال سليمان: إذا مات السخي، قالت الأرض والحفظة: رب تجاوز عن عبدك في الدنيا بسخائه، وإذا مات البخيل قالت: اللهم احجب هذا العبد عن الجنة، كما حجب عبادك عما جعلت في الدنيا.

وقال بعض الحكماء: من كان بخيلًا ورث ماله عدوه.

فضل ومدح القناعة

ينبغي للفقير أن يكون قانعًا، منقطع الطمع عن الخلق، غير ملتفت إلى ما في أيديهم، ولا حريص على اكتساب المال كيف كان، ولا يمكنه ذلك إلا بأن يقنع بقدر الضرورة من المطعم والملبس.

وقال رسول الله صَلَّالِلَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ وَرُزِقَ كَفَافًا وَقَنَّعَهُ اللَّهُ بِمَا آتَاهُ**» [صحيح مسلم].

وقال أبو حازم: ثلاث من كن فيه كمل عقله، من عرف نفسه، وحفظ لسانه، وقنع بما رزقه الله عَزَّوَجَلَّ.

وقرأ بعض الحكماء: أنت أخو العز ما التخفت بالقناعة أما الحرص، فقد نهى عنه رسول الله صَلَّالِلَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أيها الناس، أجملوا في الطلب، فإنه ليس للعبد إلا ما كتب له**» [رواه ابن ماجه وابن حبان وسنده صحيح].

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أجمع اليأس مما في أيدي الناس**» [الإمام أحمد].

وقال بعضهم: لو قيل للطمع: من أبوك؟ قال: الشك في المقدور، ولو قيل له، ما حرفتك؟ قال: اكتساب الذل، ولو قيل له: ما غايتك؟ قال: الحرمان.

وقيل: الطمع يذل الأمير، واليأس يعز الفقير.

[منهاج القاصدين]

* * *

٧٣- ٧٤ - حب الجاه والشهرة

قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الرِّيَاءُ وَالشَّهْوَةُ الْخَفِيَّةُ» [صحيح الجامع].

والشهوة الخفية يعجز عن الوقوف على غوائلها كبار العلماء والعباد، وإنما يبتلى بها العلماء والعباد المشمرون عن ساق الجد لسلوك سبيل الآخرة، فإنهم لما قهروا المعاصي الظاهرة، الواقعة على الجوارح، فاستراجت إلى التظاهر بالعلم والعمل، ووجدت مخلصًا من شدة المجاهدة في لذة القبول عند الخلق، ونظرهم إليها بعين الوقار والتعظيم، فأصابت النفس في ذلك لذة عظيمة، فاحتقرت فيها ترك المعاصي لله عَزَّوَجَلَّ وقد أثبت في ديوان المنافقين، وهذه مكيدة عظيمة لا يسلم منها إلا المقربون ولذلك قيل: آخر ما يخرج من رؤوس الصديقين حب الرياسة، وإذا كان هو الداء الدفين، الذي هو أعظم شبكة للشياطين، وحب شرح القول في سببه وحقيقته وأقسامه.

اعلم: أن أصل الجاه هو حب انتشار الخبث والإشتهار، وذلك خطر عظيم والسلامة في الخمول، وأهل الخير لم يقدوا الشهرة، ولم يتعرضوا لها ولا لأسبابها، فإن وقعت من قبل الله، فروا عنها، وكانوا يؤثرون الخمول، كما روي عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه خرج من منزله، فتبعه جماعة، فالتفت إليهم وقال: علام تتبعوني؟ فو الله لو علمتم ما أغلق عليه بابي ما اتبعني منكم رجلان وفي لفظ آخر أنه قال: ارجعوا، فإنه ذلة للتابع وفتنة للمتبوع.

وكان أبو العالية رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذا جلس إليه وكان خالدًا بن معدان رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذا عظمت حلقته، قام وانصرف كراهة الشهرة.

وقال الزهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ما رأينا الزهد في شيء أقل منه في الرياسة، نرى الرجل يزهد في المطعم والمشرب والمال، فإذا نوزع الرياسة حامى عليها وعادى.

وقال رجل لبشر الحافي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أوصني، فقال: أخمل ذكرك، وطيب مطعمك، وقال: لا يجد حلاوة الآخرة رجل يحب الدنيا أن يعرفه الناس.

وقد روى في صحيح مسلم أن عمر بن سعد انطلق إلى أبيه سعد، وهو في غنم له خارجًا عن المدينة، فلما رآه قال: أعوذ بالله من شر هذا الراكب، فلما أتاه قال: يا أبت أنزلت في إبلك وغنمك وتركت الناس يتنازعون في الملك بينهم؟ فضرب سعد صدره وقال: اسكت، إني سمعت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِيَّ الْغَنِيَّ الْخَفِيَّ**» [صحيح مسلم].

وكان ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يوصي أصحابه، فيقول: كونوا ينابيع العلم، مصابيح الهدى: أحلاس البيوت، سرج الليل، جدد القلوب، خلقان الثياب، تُعرفون في السماء، وتخفون على أهل الأرض.

فإن قيل: هذا فيه فضيلة الخمول، وذم الشهرة، وأي شهرة أكثر من شهرة الأنبياء، وأئمة العلماء؟ قلنا: المذموم طلب الإنسان الشهرة، وأما وجودها من جهة الله تعالى من غير طلب الإنسان فليس بمذموم، غير أن في وجودها فتنة على

الضعفاء، فإن مثل الضعيف كالغريق القليل الصنعة في السباحة، إذا تعلق به أحد غرق، وغرقه، فأما السابح النحرير، فإن تعلق الغرقى به سبب لنجاتهم.

واعلم: أن من غلب على قلبه حب الجاه، صار مقصور الهم على مراعاة الخلق، مشغوفًا، بالتردد إليهم، والمراءات لهم، ولا يزال في أقواله وأفعاله ملتفًا إلى ما يعظم منزلته عندهم، وذلك بذر النفاق، وأصل الفساد، لأن كل من طلب المنزلة في قلوب الناس اضطر أن ينافقهم بإظهار ما هو خال عنه، ويجر ذلك إلى المراءات بالعبادات واقتحام المحظورات والتوصل إلى اقتناص القلوب.

لذلك شبه الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حب المال والشرف وإفسادهما للدين بذئين صار بين أرسلا في غنم.

فحب الجاه إذا من المهلكات، يجب علاجه، وعلاجه مركب من علم وعمل، أما الأول فهو أن يعلم أن السبب الذي لأجله أحب الجاه، هو كمال القدرة على أشخاص الناس وقلوبهم، وذلك إذا صفا وسلم يكون في آخره الموت فينبغي أن يتفكر في نفسه في الأخطار خائفين على الدوام من زوال جاههم، محترزين من تغيير منزلتهم في القلوب.

والقلوب أشد تغييرًا من القِدْرَ في غليانها، فالإشتغال بمراعاة ذلك عموم عاجلة، مكدرة لحفظ الجاه، فلا يفي مرجو الدنيا بمخوفها، فضلًا عما يفوت في الآخرة، فهذا من حيث العلم.

وأما العلاج من حيث العمل، فهو إسقاط الجاه من قلوب الخلق بأفعال توجب ذلك، كما روي أن بعض الملوك قصد زيارة الرجل زاهد، فلما قرب منه، استدعى طعامه وبقلا ولبنا وجعل يأكل بشره، ويعظم اللقمة فلما نظر إليه الملك سقط من عينه.

ولما أريد إبراهيم النخعي على القضاء لبس قميصًا أحمر وقعد في السوق.

واعلم: أن انقطاع الزاهد عن الناس يوجب جاها له عندهم، فإذا خاف تلك الفتنة، فليخالطهم على وجه السلامة، وليمشي في الأسواق، وليشتري حاجته ويحملها، وليقطع طمعه من دنياهم، وقد تم مراده [كتاب منهاج القاصدين].

* * *

٧٥- حب المال

اعلم: أن المال لا يذم لذاته بل يقع الذم لمعنى من الآدمي، وذلك المعنى إما شدة حرصه أو تناوله من غير حله، أو حسبه عن حقه، أو إخراجه في غير وجعه، أو المفاخرة به، ولهذا قال تعالى: ﴿أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٢٨].

قال رسول الله ﷺ: «**مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلَا فِي غَنَمٍ بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ**» [رواه الترمذي وسنده صحيح].

وقد كان السلف يخافون من فتنة المال، وكان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا رأى الفتوح يبكي يقول: ما حبس الله هذا عن نبيه ﷺ وعن أبي بكر لشر أراده بهما، وأعطاه عمر إرادة الخير له.

وقال يحي بن معاذ: الدرهم عقرب، فإن لم تحسن رقيته فلا تأخذه، فإنه إن لدغك قتلك سمه، قيل: ما رقيته؟ قال: أخذه من حله ووضعه في حقه، وقال: مصيبتان للعبد في ماله عند موته لا تسمع الخلائق بمثلهما، قيل: ما هما؟ قال: يؤخذ منه كله، ويسأل عنه كله.

وقد بينا أن المال لا يذم لذاته بل ينبغي أن يمدح، لأنه سبب للتوصل إلى مصالح الدين والدنيا وقد سماه الله تعالى خيرًا وهو قوام الآدمي، قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ [النساء: ٥].

وقال سعيد بن المسيب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا خير فيمن لا يريد جمع المال من حله، يكف به وجهه عن الناس، ويصل به رحمه، ويعطي منه حقه وحاصل الأمر أن المال مثل حية فيها سم وترياق، فترياقه فوائده، وغوائله سمه، فمن عرف فوائده وغوائله، أمكنه أن يحترز من شره، ويستدر من خيره.

أما فوائده، فتنقسم إلى دنيوية ودينية: أما الدنيوية، فالخلق يعرفونها، ولذلك تهالكوا في طلبها.

وأما الدينية فتنحصر في ثلاثة أنواع:

أحدها- أن ينفقه على نفسه، إما في عبادة كالحج والجهاد، وإما في الإستعانة على العبادة، كالمطعم والملبس والمسكن، وغيرها من ضرورات المعيشة، فإن هذه الحاجات إذا لم تتيسر، لم يتفرغ القلب للدين والعبادة، وما لا يتوصل إلى العبادة إلا به، فهو عبادة، فأخذ الكفاية من الدنيا للأستعانة على الدين من الفوائد الدينية، ولا يدخل في هذا التنعم والزيادة على الحاجة، فإن ذلك من حظوظ الدنيا.

النوع الثاني- ما يصرفه إلى الناس، وهو أربعة أقسام: **أحدها**- الصدقة وفضائلها كثيرة ومشهورة، **القسم الثاني**- المرؤة، ونعني بها صرف المال إلى الأغنياء والأشراف في ضيافة وهدية وإعانة ونحو ذلك، وهذا من الفوائد الدينية، إذ به يكتسب العبد الإخوان والأصدقاء.

القسم الثالث- وقاية العرض نحو بذل المال لدفع هجو الشعراء، وثلب السفهاء، وقطع ألسنتهم، وكف شرهم، فهو من الفوائد الدينية.

وهذا لأنه يمنع المغتاب من معصية الغيبة، ويحرر مما يثير كلامه من العداوة التى تحمل في الانتقام على مجاوزة حدود الشريعة.

القسم الرابع- ما يعطيه أجر على الإستخدام فإن الأعمال التى يحتاج إليها الإنسان لمهنة أسبابها كثيرة، ولو تولاها بنفسه ضاعت أوقاته، وتعذر عليه سلوك الآخرة بالفكر والذكر اللذين هما أعلى مقامات السالم، ومن لا مال له يفتقر إلى أن يتولى خدمة نفسه بنفسه، فكل ما يتصور أن يقوم به غيرك، ويحصل بذلك غرضك، فإن تشاغلك به غبن، لأن احتياجك إلى التشاغل بها لا يقوم به غيرك من العلم والذكر والفكر أشد.

النوع الثالث- ما لا يصرف الإنسان إلى معين، لكن يحصل به خيرًا عامًا، كبناء المساجد، والقناطر والوقوف المؤيدة، فهذه جملة فوائد المال في الدنيا، سوى ما يتعلق بالخطوط والقناطر، والوقوف المؤبدة، فهذه جملة فوائد المال في الدين سوى ما يتعلق بالحظوظ العاجلة من الخلاص من ذل السؤال، وحقارة الفقر، والعز بين الخلق، والكرامة في القلوب، والوقارة.

وأما غوائل المال وآفاته، فتنقسم أيضًا إلى دينية ودنيوية.

أما الدينية فثلاث فئات:

الأولى- أنه يجر إلى المعاصي غالبًا، لأنه من استشعر القدرة على المعصية انبعث داعيته إليها.

والمال نوع من القدرة يحرك داعيته إلى المعاصي، ومتى يأس الإنسان من المعصية، لم تتحرك داعية إليها، ومن العصمة ألا تجد، وإن صبر لقي شدة في مكانات الصبر مع القدرة، وفتنة السراء أعظم من فتنة الضراء.

الثانية- أنه يحرك إلى التنعم في المباحات، حتى تصير له عادة إلفًا، فلا يصبر عنها، وربما لم يقدر على استدامتها إلا بكسب فيه شبهة، فيقتحم الشبهات، ويترقى إلى آفات من المداهنة، والنفاق، لأن من كثر ماله خالط الناس، وإذا خالطهم لم يسلم من نفاق وعداوة وحسد وغيبة، وكل ذلك من الحاجة إلى إصلاح المال.

الثالثة- وهي لا ينفك عنها أحد، وهو أن يلهيه ما له عن ذكر الله تعالى، وهذا هو الداء الفعال، فإن أصل العبادات ذكر الله تعالى، والتفكير فى جلاله وعظمته، وذلك يستدعي قلبًا فارغًا.

وصاحب الضيعة يمسى ويصبح متفكرًا في خصومة الفلاحين ومحاسبتهم وخيانتهم، ويتفكر في منازعة شركائه في الحدود والماء، وأعوان السلطان في الخراج في كيفية حفظه، وفي الخوف عليه.

ومن له قوت يوم بيوم فهو في سلامة من جميع ذلك، وهذا سوى ما يقاسيه أرباب الأموال في الدنيا، من الخوف والحزن والهم والغم والتعب.

فإذًا ترياق المال أخذ القوت منه، وصرف الباقي إلى الخيرات، وما عدا ذلك سموم [منهاج القاصدين].

* * *

٧٦- عدم استقامة اللسان

قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**لَا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ**» [صحيح الترغيب والترهيب].

أفات اللسان

١- دعاء غير الله من الأموات.

٢- النذر لغير الله.

٣- الإستغاثة بغير الله.

٤- الإستعاذة بغير الله.

٥- الإستعانة بغير الله.

٦- الحلف بغير الله.

٧- أن تقول ما شاء الله وشئت.

وهذه العناصر ذكرت بالتفصيل في الشرك في سبب قسوة القلوب وهو الشرك.

٨- القول على الله بغير علم

فالله تعالى قرن الشرك مع القول على الله بغير علم فقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف:٣٣].

وكان السلف يتورعون عن الفتيا، قال عبد الرحمن بن أبي ليلى: «أدركت عشرين ومائة من الأنصار من أصحاب رسول الله ﷺ ما منهم رجل يُسأل عن شيئ إلا ودَّ أنَّ أخاه كفاه، ولا يحدث حديثًا إلا ودَّ أنَّ أخاه كفاه».

وقال ابن عباس: «إن كل من أفتى الناس في كل ما يسألونه عنه لمجنون».

وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ أُفْتِيَ بِغَيْرِ عِلْمٍ، كَانَ إِثْمُهُ عَلَى مَنْ أَفْتَاهُ»

[حسنه الألباني] [انظر: إعلام الموقعين لابن القيم]

٩- الغيبة:

قال الله تعالى: ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ [الحجرات:١٢].

قال مجاهد: لما قيل لهم: ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا ﴾ قالوا: لا: قيل : ﴿ فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ أي: فكما كرهتم هذا فاجتنبوا ذكره بالسوء غائبًا.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَتَدْرُونَ مَا الْغِيبَةُ؟» قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ»، قِيلَ أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي

أَخِي مَا أَقُولُ؟ قَالَ: «**إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ، فَقَدِ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهَتَّهُ**» [رواه مسلم].

وعن عمر بن شعيب عن أبيه عن جده أنهم ذكروا عند رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجلًا فقالوا: لا يأكل حتى يُطعم، ولا يرحل حتى يُرحل، فقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اغتبتوه**»، فقالوا: إنما حدثنا بما فيه! قال: «**حَسْبُكَ إِذَا ذَكَرْتَ أَخَاكَ بِمَا فِيهِ**» [الترغيب والترهيب].

وعن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: قلت للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**حسبُك من صفية كذا ولذا**» - قال بعض الرواة: تعني قصيرة - فقال: «**لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته**»، أي: غيرت طعمه من ريحها ونتنها وقبحها، فما بالك بالذين يغتابون المسلمين ليلًا نهارًا، سِرًّا وجِهارًا.

قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ، وَلَمْ يَدْخُلِ الْإِيمَانُ قَلْبَهُ لَا تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ، وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ؛ فَإِنَّهُ مَنْ يَتَّبِعْ عَوْرَةَ أَخِيهِ يَتَّبِعِ اللهُ عَوْرَتَهُ حَتَّى يَفْضَحَهُ فِي بَيْتِهِ**» [رواه أحمد، صحيح الجامع].

ما هي الغيبة؟

أن تذكر أخاك الغائب بما يكرهه إذا بلغه سواء كان نقصًا في بدنه؛ كالعمش والحور والعور والقرع والطول والقصر، ونحو ذلك، أو في نسبه كقولك: أبوه نبطي أو هندي أو فاسق، أو خسيس، ونحو ذلك، أو في خلقه كقولك هو: سيئ الخلق بخيل متكبر ونحو ذلك، أو في ثوبه.

واعلم أن كل ما يفهم منه مقصود الذم فهو داخل في الغيبة، سواء كان بكلام أو بغيره؛ كالغمز والإشارة والكتابة بالقلم، فإن القلم أحد اللسانين.

أعظم الغيبة غيبة العلماء:

أعلم أن غيبة المؤمن المطيع أشد عند الله من المسلم العاصي، وأعظم الغيبة غيبة العلماء؛ لأنهم أقرب الناس إلى الله، وهم ورثة الأنبياء، وهم الوسيط بين الله وخلقه بعد الرسل والأنبياء، **يقول الإمام الشافعي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن لم يكن العلماء أولياء الله فليس لله وليٌّ»، ويحكي الإمام ابن عساكر أن عادة الله في منتقصهم معلومة، وأن من ابتلى بالسب في أعراضهم مات قلبه قبل أن يموت جسده، **وقال الإمام أحمد:** «لحوم العلماء مسمومه من شمها مرض ومن أكلها مات».

تحريم سماع الغيبة:

إن المستمع للغيبة كالذي يغتاب، فهو شريك إلا أن ينكر بلسانه، فإن لم يقدر ترك المجلس، أو قطع الكلام بكلام آخر.

قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ حَمَى مُؤْمِنًا مِنْ مُنَافِقٍ يَعِيبُهُ، بَعَثَ اللهُ إِلَيْهِ مَلَكًا يَحْمِي لَحْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ**» [رواه أبي داود، صحيح الجامع].

ولما رجم رسولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ماعزًا في الزنا قال رجل لصاحبه: هذا رُجم رَجم الكلب، فمر رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهما معه بجيفة فقال: «**انهشا منها**»، فقالا: نهش جيفة؟ فقال: «**مَا أَصَبْتُمَا مِنْ أَخِيكُمَا أَنْتَنُ مِنْ هَذِهِ**» [النسائي السند صحيح].

والشاهد قوله: «ما أصبتما»، فحكم على المستمع أنه إن لم يدفع الغيبة عن أخيه فهو والمغتاب في الوزر سواء [انظر: منهاج القاصدين الحقوق الإسلامية للشيخ محمودالمصري].

يجب الرد عن عرض المسلم:

قال الله تعالى عن المؤمنين: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾ [القصص:٥٥].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنعام:٦٨].

وقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ رَدَّ عَنْ عِرْضِ أَخِيهِ رَدَّ اللهُ عَنْ وَجْهِهِ النَّارَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» [صحيح الجامع] [انظر: شرح رياض الصالحين للشيخ ابن عثيمين].

عقوبة الذي يغتاب:

قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَمَّا عَرَجَ بِي رَبِّي مَرَرْتُ بِقَوْمٍ لَهُمْ أَظْفَارٌ مِنْ نُحَاسٍ، يَخْمُشُونَ وُجُوهَهُمْ وَصُدُورَهُمْ. فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لُحُومَ النَّاسِ، وَيَقَعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ» [صحيح الجامع].

الأسباب الباعثة على الغيبة:

السبب الأول- تشفي الغيظ؛ بأن يجري من إنسان في حق آخر سبب يوجب غيظه، فكلما هاج غضبه تشفى بغيبة صاحبه.

السبب الثاني- موافقة الأقران ومجاملة الرفقاء ومساعدتهم، فإنهم إذا كانوا يتفكهون في الأعراض رأى هذا أنه إذا أنكر عليهم أو قطع كلامهم استثقلوه ونفروا عنه فيساعدهم، ويرى ذلك من حسن المعاشرة.

السبب الثالث– إرادة رفع نفسه بتنقيص غيره، فيقول فلان جاهل، وفهمه ركيك، ونحو ذلك. وكذلك الحسد في ثناء الناس على شخص وحبهم له وإكرامهم، فيقدح فيه ليقصد زوال ذلك.

السبب الرابع– اللعب والهزل، فيذكر غيره بما يضحك الناس به على سبيل المحاكاة. حتى إن بعض الناس يكون كسبه من هذا [انظر: منهاج القاصدين].

علاج الغيبة:

فليعلم المغتاب أنه بالغيبة متعرض لسخط الله تعالى ومشقته، وأن حسناته تنقل إلى من يغتابه، وإن لم يكن له حسنات نقل إليه من سيئات خصمه، فمن استحضر ذلك لم يطلق لسانه بالغيبة.

وينبغي إذا عرضت له الغيبة أن يتفكر في عيوب نفسه، ويشتغل بإصلاحها، ويستحيي أن يعيب وهو معاب، كما قال بعضهم:

فإن عبت قومًا بالذي فِيك مثْلُه ... فكيف يعيبُ الناسِ مَن هو أعور

وإن عبت قومًا بالذي ليس فيهم ... فذلك عند الله والنَّاس أكبرُ

[انظر: منهاج القاصدين]

الأعذار المرخصة في الغيبة:

الأول– التظلم، فإن للمظلوم أن يذكر الظالم إذا استعداه إلى من يستوفي حقه.

الثاني– الإستعانة على تغيير المنكر ورد العاصي إلى منهاج الصلاح.

الثالث- الإستفتاء، مثل أن يقول للمفتي: ظلمني فلان أو أخذ حقي فكيف طريقي في الخلاص.

والدليل على إباحة التعين حديث هند بنت عتبة حين قالت: إن أبا سفيان رجل شحيح وليس يعطيني ما يكفيني وولدي إلا ما أخذت منه وهو لا يعلم؟ فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**خُذِي مَا يَكْفِيكِ وَوَلَدَكِ بِالْمَعْرُوفِ**» [متفق عليه]. فلم ينكر عليها الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قولها: «**رجل شحيح**».

وكذلك إذا سُئلت عن رجل يريد أن يتقدم لامرأة وتعلم سوء خُلقه، وكذلك المرأة التي يريد خطبتها فتأثم إذا كتمت شيئًا يضر أحد الطرفين، فعن فاطمة بنت قيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: أتيت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقلت: إن أبا الجهم ومعاوية خطباني؟ فقال رسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أما معاية فصعلوك لا مال له، وأما أبو الجهم فلا يضع العصا عن عاتقه**» [رواه البخاري].

وفي رواية لمسلم: «**وأما أبو الجهم فضراب للنساء**».

الرابع- تحذير المسلمين من مبتدع ينشر البدع في المسلمين فيفسد عليهم دينهم، أو من فاسق.

الخامس- أن يكون معروفًا بلقب كالأعرج أو الأعمش، فلا إثم على من يذكره به.

السادس- أن يكون مجاهرًا بالفسق ومصادرة الناس، وكان ممن يتظاهر به فلا إثم.

وقد قيل للحسن: الفاجر المعلن بفجوره ذِكْري له بما فيه غيبة؟ قال: لا، ولا كرامة [انظر: منهاج القاصدين].

وقد جمع الأحوال الستة قول الشاعر:

القدح ليس بغيبة في ستة ... متظلم ومعرف ومحذر
ومجاهر فسقًا ومستفت ومن ... طلب الإعانة في إزالة منكر

كفارة الغيبة

اعلم أن المغتاب قد جنى جنايتين:

إحداهما- في حق الله تعالى؛ إذ فعل ما نهاه عنه، فكفارة ذلك التوبة والندم.

والجناية الثانية- في عرض المخلوق، فإن كانت الغيبة قد بلغت الرجل جاء إليه وتحلله وأظهر له الندم على فعله.

وقد روى أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ مَظْلَمَةٌ فِي مَالٍ أَوْ عِرْضٍ، فَلْيَأْتِهِ فَلْيَسْتَحِلَّهَا مِنْهُ قَبْلَ أَنْ يُؤْخَذَ - أَوْ تُؤْخَذَ - وَلَيْسَ عِنْدَهُ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ، فَإِنْ كَانَتْ لَهُ حَسَنَاتٌ، أُخِذَ مِنْ حَسَنَاتِهِ فَأُعْطِيَهَا هَذَا، وَإِلَّا أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ هَذَا فَأُلْقِيَتْ عَلَيْهِ**» [رواه أحمد، صحيح الجامع].

وإن كانت الغيبة لم تبلغ الرجل جعل مكان استحلاله الاستغفار له؛ لئلا يخبره بما لا يعلمه فيوغر صدره.

قال مجاهد: «كفارة أكلك لحم أخيك أن تثني عليه، وتدعو له بخير، وكذلك إن كان قدمات [انظر: منهاج القاصدين].

وقال عبدالله بن المبارك وشيخ الإسلام في كفارة الغيبة: لا تخبره حتى لا تؤذه مرتين مرة عندما اغتبته ومرة عندما تقول له أنك اغتبته، ولكن تتصدق له بصدقات وتستغفر له وتدعو له وتثني عليه في المكان الذي اغتبته.

١٠- النميمة:

وقال تعالى: ﴿ هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ﴾ [القلم:١١].

وقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يدخل الجنة نمام**» [رواه البخاري ومسلم].

وعن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مر بقبرين فقال: «**أَمَا إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِهِ**» [رواه مسلم].

قوله: «**وما يعذبان في كبير**»، أي: ليس بكبير عليهم تركه.

والنَّمام: هو الذي ينقل الكلام من شخص إلى شخص حتى يوقع العداوة والبغضاء بينهما، وإن لم يكن هذا الكلام صحيح صار فاسقًا، كما قال تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴾ [الحجرات:٦].

قال أحد السلف: «من نم لك نم عليك».

كيف تتعامل مع النمام؟

الأول– أن لا تصدقه؛ لأن النمام فاسق مردود الشهادة.

الثاني– أن تنهاه عن ذلك وتنصحه.

الثالث– أن تبغضه في الله، فإنه بغيض عند الله.

الرابع– أن لا تظن بأخيك الغائب السوء.

الخامس– أن لا يحملك ما حكى لك على التجسس والبحث لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجَسَّسُواْ ﴾ [الحجرات:١٢].

السادس– أن لا ترضى لنفسك ما نهيت النمام عنه، فلا تحكي نميمته.

ويروى أن سليمان بن عبد الملك قال لرجل: بلغني أنك وقعت فيَّ وقلت كذا وكذا. **فقال الرجل:** ما فعلت، **فقال سليمان:** إن الذي أخبرني صادق، **فقال الرجل:** لا يكون النمام صادقًا، **فقال سليمان:** صدقت اذهب بسلام .

وقال يحي بن كثير: «يفسد النمام في ساعة ما لايفسد الساحر في شهر»

[انظر: منهاج القاصدين].

قصة عجيبة:

وقد حكي أن رجلًا اشتري عبدًا، فجعل العبد يقول لمولاه إن امرأتك تبغي وتفعل، وإنها تريد أن تقتلك، ويقول للمرأة: إن زوجك يريد أن يتزوج عليك ويتسرى، فإن أردت أن أعطفه عليك فلا يتزوج ولا يتسرى فخذى الموس واحلقي شعرة من حلقه إذا نام، وقال للزوج: إنها تريد أن تقتلك إذا نمت. قال: فذهب فتناوم لها فجاءت بموس لتحلق شعرة من حلقه، فأخذ بيدها فقتلها، فجاء أهلها فاستعدوا عليه فقتلوه [انظر: منهاج القاصدين].

قصة مخيفة:

يحكي الشيخ محمد الصاوي حَفِظَهُ اللهُ قصة عن فتاة كانت عاصية لله، وتخرجت من الثانوية فماتت هذه الفتاة، وجاءت المغسلة لتغسلها فوجدت جسدها أسودًا، وعندما بدأت الغسل وجدت غائطًا يخرج من فمها، فكلما غسلت الغائط نزل غيره حتى وضعت قطنًا لتسد فمها، فسألت المغسلة إحدى صحيباتها عن هذه الميتة هل كانت تشتهر بمعصية معينة؟ قالت لها: نعم كانت تشتهر بالنميمة بين الناس [من شريط اللحظات الأخيرة].

١١- الكذب:

قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ كَذَّابًا**» [رواه البخاري ومسلم].

وأعظم الكذب الكذب على الله قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ [النحل:١١٦].

ثم الكذب على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث قال: «**مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**» [رواه البخاري ومسلم].

والويل لمن يُضحك الناس بالكذب، فقد قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَيْلٌ لِلَّذِي يُحَدِّثُ بِالحَدِيثِ لِيُضْحِكَ بِهِ القَوْمَ فَيَكْذِبُ، وَيْلٌ لَهُ وَيْلٌ لَهُ**» [صحيح الترغيب والترهيب].

ومن كذب في الحلم، فقد قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ تَحَلَّمَ بِحُلْمٍ لَمْ يَرَهُ كُلِّفَ أَنْ يَعْقِدَ بَيْنَ شَعِيرَتَيْنِ، وَلَنْ يَفْعَلَ، وَمَنِ اسْتَمَعَ إِلَى حَدِيثِ قَوْمٍ، وَهُمْ لَهُ كَارِهُونَ، أَوْ يَفِرُّونَ مِنْهُ، صُبَّ فِي أُذُنِهِ الآنُكُ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَمَنْ صَوَّرَ صُورَةً عُذِّبَ، وَكُلِّفَ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا، وَلَيْسَ بِنَافِخٍ**» [رواه البخاري]

[انظر: الحقوق الإسلامية للشيخ المصري].

ويباح الكذب للإصلاح بين الناس، والحرب، وبين الزوجين.

١٢- شهادة الزور:

قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ ﴾ [الفرقان:٧٢].

وعن أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ألا أُنبئكم بأكبر الكبائر؟**»، قلنا: بلى يا رسول الله قال: «**الإشراك بالله وعقوق الوالدين**»، وكان متكئًا فجلس فقال: «**ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور**»، فما زال يكررها حتى قلنا ليته يسكت [متفق عليه].

١٣- لعن إنسان بعينه:

قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَلَعْنُ الْمُؤْمِنِ كَقَتْلِهِ» [رواه البخاري].

وقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَنْبَغِي لِصِدِّيقٍ أَنْ يَكُونَ لَعَّانًا» [رواه مسلم].

وقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَكُونُ اللَّعَّانُونَ شُفَعَاءَ وَلَا شُهَدَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» [رواه مسلم].

وقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَّانِ، وَلَا اللِّعَانِ، وَلَا الْفَاحِشِ وَلَا الْبَذِيءِ» [صحيح الجامع].

١٤- سباب المسلم:

قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ».
[رواه البخاري ومسلم]

وقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَرْمِي رَجُلٌ رَجُلًا بِالْفِسْقِ، وَلَا يَرْمِيهِ بِالْكُفْرِ، إِلَّا ارْتَدَّتْ عَلَيْهِ إِنْ لَمْ يَكُنْ صَاحِبُهُ كَذَلِكَ» [متفق عليه].

وقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ» [رواه البخاري ومسلم].

وقال: «الْمُسْتَبَّانِ شَيْطَانَانِ يَتَهَاتَرَانِ، وَيَتَكَاذَبَانِ» [صحيح الجامع].

١٥- قولك للمسلم يا كافر:

قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا قَالَ الرَّجُلُ لِأَخِيهِ يَا كَافِرُ فَإِنْ كَانَ كَمَا قَالَ، وَإِلَّا رَجَعَتْ عَلَيْهِ» [رواه البخاري ومسلم].

وقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا قَالَ الرَّجُلُ لِأَخِيهِ يَا كَافِرُ، فَقَدْ بَاءَ بِهِ أَحَدُهُمَا» [رواه البخاري].

١٦- سبب الأموات:

قال رسول الله :صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «لَا تَسُبُّوا الْأَمْوَاتَ، فَإِنَّهُمْ قَدْ أَفْضَوْا إِلَى مَا قَدَّمُوا» [رواه البخاري] [انظر: شرح رياض الصالحين].

١٧- سوء الظن بالمسلمين:

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾[الحجرات:١٢].

وقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ» [رواه البخاري ومسلم] [انظر: المصدر السابق].

١٨- احتقار المسلمين:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ﴾ [الحجرات:١١]

وقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ» [رواه مسلم].

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ» [رواه مسلم] [انظر: المصدر السابق].

١٩- سب الدهر:

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قال الله تعالى: يَسُبُّ بَنُو آدَمَ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِي اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ»، وفي رواية: «أُقلب ليله ونهاره، وإذا شئت قبضتهما» [رواه مسلم].

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تَقُولُوا: خَيْبَةَ الدَّهْرِ، فإِنَّ اللهَ هُوَ الدَّهْرُ». [رواه البخاري]

٢٠- سب الله أو الدين أو الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

فسب الله تعالى أو الدين أو الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كفر، قال الله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [التوبة:٦٥].

٢١- سب الديك:

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَسُبُّوا الدِّيكَ، فَإِنَّهُ يُوقِظُ لِلصَّلَاةِ» [صحيح الجامع].

٢٢- رمي المحصنات:

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ»، وذكر منهم: «وَقَذْفُ المُحْصَنَاتِ المُؤْمِنَاتِ الغَافِلاَتِ» [رواه البخاري ومسلم]. وقوله: «المُوبِقَاتِ»؛ أي المهلكات.

وقال رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «وَإِنَّ أَكْبَرَ الْكَبَائِرِ عِنْدَ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، وذكر منهم: «وَرَمْيُ الْمُحْصَنَةِ» [ابن حبان].

وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النور:١٩]

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور:٢٣].

وقال رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «مَنْ قَذَفَ مَمْلُوكَهُ بِالزِّنَا أَقَامَ عَلَيْهِ الْحَدَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ كَمَا قَالَ» [البخاري ومسلم].

٢٣-اليمين الكذب:

قال رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ بِمِلَّةٍ غَيْرِ الْإِسْلَامِ كَاذِبًا فَهُوَ كَمَا قَالَ» [رواه البخاري ومسلم].

وقال رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «مَنْ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنَ الْإِسْلَامِ، فَإِنْ كَانَ كَاذِبًا، فَهُوَ كَمَا قَالَ، وَإِنْ كَانَ صَادِقًا لَمْ يَعُدْ إِلَى الْإِسْلَامِ سَالِمًا» [صحيح الجامع].

وقال رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ: الشِّرْكَ بالله، وَعُقُوقَ الْوَالِدَيْنِ، وَالْيَمِينَ الْغَمُوسَ، وَمَا حَلَفَ حَالِفٌ بالله يَمِينًا صَبْرًا، فَأَدْخَلَ فِيهَا مِثْلَ جَنَاحِ بَعُوضَةٍ، إِلَّا جَعَلَهُ اللهُ نُكْتَةً فِي قَلْبِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» [رواه أحمد، صحيح الجامع].

وجاء أعرابي إلى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا رسول الله ما الكبائر؟ قال: «**الإشرك بالله**» قال: ثم ماذا؟ قال: «**اليمين الغموس**» قال: وما اليمين الغموس؟ قال: «**الذي يقتطع مال امريء مسلم**» يعني بيمين هو فيها كاذب» [رواه البخاري].

٢٤- أن تقول فلان لا يُغفر له:

وهذه من أعظم آفات اللسان، أن تقول فلان لا يدخل الجنة، وفلان لا يُغفر له، وفلان سيدخل النار.

فعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**كَانَ رَجُلَانِ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مُتَآخِيَيْنِ، فَكَانَ أَحَدُهُمَا يُذْنِبُ، وَالْآخَرُ مُجْتَهِدٌ فِي الْعِبَادَةِ، فَكَانَ لَا يَزَالُ الْمُجْتَهِدُ يَرَى الْآخَرَ عَلَى الذَّنْبِ، فَيَقُولُ: أَقْصِرْ فَوَجَدَهُ يَوْمًا عَلَى ذَنْبٍ، فَقَالَ لَهُ: أَقْصِرْ، فَقَالَ: خَلِّنِي وَرَبِّي، أَبُعِثْتَ عَلَيَّ رَقِيبًا؟، فَقَالَ: والله لَا يَغْفِرُ اللهُ لَكَ أَوْ لَا يُدْخِلُكَ اللهُ الْجَنَّةَ، فَقَبَضَ اللهُ أَرْوَاحَهُمَا، فَاجْتَمَعَا عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَقَالَ لِهَذَا الْمُجْتَهِدِ: أَكُنْتَ بِي عَالِمًا؟، أَوْ كُنْتَ عَلَى مَا فِي يَدِي قَادِرًا؟، وَقَالَ لِلْمُذْنِبِ: اذْهَبْ فَادْخُلْ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، وَقَالَ لِلْآخَرِ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ**» [صحيح جامع].

٢٥- التكلم بلغة غير العربية:

وذلك من غير ضرورة، فإذا ذهب إلى دول الغرب فإنهم لا يتركون لغتهم، وأنت تُكلمهم بلغتهم، ومن الأولى أن لا تتكلم إلا باللغة العربية؛ لغة القرآن ولغة أهل الجنة.

قال أحد العلماء: من تكلم بكلام غير اللغة العربية ولو يسير بغير ضرورة فيه شيئ من النفاق.

٢٦-إخلاف الوعد وإفشاء السر:

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ**» [رواه البخاري ومسلم].

وفي الحديث «**المجالس بالأمانة**»، فإذا كنت في مجلس فلا تتكلم كلامًا سمعته في المجلس، إلا بإذن صاحبه.

٢٧- إفشاء السر بين الزوجين:

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ مِنْ أَشَرِّ النَّاسِ عِنْدَ اللهِ مَنْزِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الرَّجُلَ يُفْضِي إِلَى امْرَأَتِهِ، وَتُفْضِي إِلَيْهِ، ثُمَّ يَنْشُرُ سِرَّهَا**» [رواه مسلم].

٢٨- الكلام فيما لا يعنيك:

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مِنْ حُسْنِ إِسْلامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ**».

[صحيح الترمذي]

اعلم أن من عرف قدر زمانه، وأنه رأس ماله لم ينفقه إلا في فائدة ، وهذه المعرفة توجب حبس اللسان عن الكلام فيما لا يعني لأنه من ترك ذكر الله تعالى واشتغل فيما لا يعني كان كمن قدر على أخذ جوهرة، فأخذ عوضها قطعة طين وهذا خسران العمر.

وقيل للقمان الحكيم: ما بلغ من حكمتك؟ قال: لا أسأل عما كفيته، ولا أتكلم بما لا يعنيني [منهاج القاصدين بتصرف].

٢٩- التكلف في الكلام:

وذلك يكون بالتشدق وتكلف السجع، قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ القِيَامَةِ الثَّرْثَارُونَ وَالمُتَشَدِّقُونَ وَالمُتَفَيْهِقُونَ**» [صحيح الجامع].

ولا يدخل في كراهة السجع والتصنع ألفاظ الخطيب، والتذكير من غير إفراط ولا إغراب، لأن المقصود من ذلك تحريك القلوب وتشويقها [منهاج القاصدين].

٣٠- كثرة المزاح:

فكثرة المزاح من آفات اللسان، واليسير منه لا بأس إذا كان صدقًا، فإن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يمزح ولا يقول إلا حقًّا فقال لأنس: «**يا ذا الأذنين**»، وقال لآخر: «**إنا حاملوك على ولد الناقة**»، وقال للعجوز: «**إنه لا يدخل الجنة عجوز**» ثم قرأ: ﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴾ [الواقعة:٣٥-٣٦]، وقال لامرأة: «**زوجك الذي في عينيه بياض؟**»، فقد اتفق في مزحه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثلاثة أشياء: **أحدها**- كونه حقًّا، **والثاني**- كونه مع النساء والصبيان ومن يحتاج إلى تأديبه من ضعفاء الرجال، **والثالث**- كونه نادرًا، فلا ينبغي أن يحتج به من يريد الدوام عليه [انظر: منهاج القاصدين].

٣١- ذي الوجهين:

قال رسول الله ﷺ: «تَجِدُونَ شَرَّ النَّاسِ ذَا الْوَجْهَيْنِ، يَأْتِي هَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ وَهَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ» [رواه البخاري ومسلم].

وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَانَ لَهُ وَجْهَانِ فِي الدُّنْيَا، كَانَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِسَانَانِ مِنْ نَارٍ» [صحيح الجامع].

٣٢- المدح:

إن من آفات اللسان المدح، وكثير من الناس يُبالغون في المدح حتى ولو بالكذب، وهذا نفاق وإن من الممكن أن تكون سبب في هلاك الممدوح بأن يحدث له كبرًا أو إعجابًا وهما مهلكا للعبد لهذا قال النبي ﷺ لما سمع رجلًا يمدح رجلًا: «وَيْلَكَ، قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ» [رواه البخاري ومسلم].

ولأن الإنسان إذا أثنيَ عليه بالخير رضيَ عنه نفسه وظن أنه قد بلغ المقصود فيفتر عن العمل ، ولهذا قال النبي ﷺ: «قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ».

فإذا سلم المدح من هذه الآفات لم يكن به بأس، فقد أثنى النبي ﷺ على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم.

وعلى الممدوح أن يكون شديد الإحتراز من آفة الكبر والعجب والفتور عن العمل، ولا ينجو من هذه الآفات إلا أن يعرف نفسه، ويتفكر في أن المادح لو عرف منه ما يعرف من نفسه ما مدحه، وعندما أثنوا على أبي بكر الصديق رضي الله عنه وهو

من هو قال: «اللّٰهُمَّ لا تؤاخذني بما يقولون، وأغفر لي ما لايعلمون، وأجعلني أحسن مما يظنون»، وقد روي أن رجلًا من الصالحين أثني عليه فقال: «اللّٰهُمَّ هؤلاء لا يعرفوني وأنت تعرفني» [انظر: منهاج القاصدين].

٣٣- من آفات اللسان الغناء:

فإن الغناء بلاء ابتلي به كثير من المسلمين ولا حول ولا قوة إلا بالله، وقد حرمه الله في كتابه وحرمه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سنته، قال الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٦ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [لقمان:٦-٧].

قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صاحب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قول الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ ﴾: «**والله الذي لاإلٰه غيره هو الغناء**» ورددها ثلاث مرات.

وقال ابن عباس ابن عم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في نفسير هذه الآية: «**هو الرجل يشتري الجارية تغنيه ليلًا ونهارًا**».

وقال مجاهد: «هو اشتراء المغني والمغنية بالمال الكثير والاستماع إليه».

وقال الله تعالى: ﴿ أَفَمِنۡ هَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ تَعۡجَبُونَ ٥٩ وَتَضۡحَكُونَ وَلَا تَبۡكُونَ ٦٠ وَأَنتُمۡ سَٰمِدُونَ ﴾ [النجم:٥٦-٦١]

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**السمود هو الغناء**»، تقول العرب: اسمدي لنا، أي غني لنا».

وقال عكرمة عن الكفار إذا سمعوا القرآن تغنوا فنزلت الآية.

وقال الله تعالى: ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ ﴾ [الإسراء:٦٤].

قال مجاهد: «صوت الشيطان أن يستنزل منهم من استطاع بالغناء والباطل».

وقال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴾. [الفرقان:٧٢]

قال محمد بن الحنفية: «الزور هنا الغناء».

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَيَكُونَنَّ مِنْ أُمَّتِي قومٌ يَسْتَحِلُّونَ الْحِرَ وَالْحَرِيرَ وَالْخَمْرَ وَالْمَعَازِفَ**» [رواه البخاري].

وتأمل كلمة يستحلون أي: أنها حرام ويريدون أن تكون حلال، وتأمل جمع المعازف مع الحر الذي هو الزنا والخمر والحرير.

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يكون في أمتي قذف وخسف ومسخ**»، فقال رجل من المسلمين متى ذاك يا رسول الله؟ قال: «**إِذَا ظَهَرَتِ الْقِيَانُ وَالْمَعَازِفُ، وَاسْتُحِلَّتِ الْخُمُورُ**» [رواه الترمذي]. والقيان: هي المغنيات.

وقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَى أُمَّتِي الْخَمْرَ، وَالْمَيْسِرَ وَالْكُوبَةَ وَالْغُبَيْرَاءَ وكل مسكر حرام**» [رواه أحمد وأبو داود]. والكوبة هي الطبلة، قاله سفيان.

وقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَيَشْرَبَنَّ نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي الْخَمْرَ، يُسَمُّونَهَا بِغَيْرِ اسْمِهَا، يُعْزَفُ عَلَى رُءُوسِهِمْ بِالْمَعَازِفِ، وَالْمُغَنِّيَاتِ، يَخْسِفُ اللهُ بِهِمُ الْأَرْضَ، وَيَجْعَلُ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ**» [صحيح ابن ماجة].

قال أبو بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن الغناء: «**مزمار من مزامير الشيطان**».

وقال عثمان بن عفان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**لا يجتمع قلب فيه قرآن وغناء لا بد أن يخرج أحدهما الآخر**».

وقال عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «الغناء ينبت النفاق في القلب».

وقال الإمام أبو حنيفة وأصحابه: «سماع الأغاني فسق».

وقال الإمام مالك: «لا يفعله عندنا إلا الفساق».

وقال الإمام الشافعي: «برد شهادة من يغني».

* * *

٧٧- الكبر

قال الله تعالى: ﴿ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ ﴾ [النحل: ٢٣].

وقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ**» [صحيح مسلم].

وقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «**فَقَالَتْ النَّارُ أُوثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ**» [صحيح البخاري].

وقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «**يُجَاءُ بِالْجَبَّارِينَ وَالْمُتَكَبِّرِينَ رِجَالًا فِي صُوَرِ الذَّرِّ يَطَؤُهُمُ النَّاسُ مِنْ هَوَانِهِمْ عَلَى اللَّهِ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ ثُمَّ يُذْهَبُ بِهِمْ إِلَى نَارِ الْأَنْيَارِ**» [تحفة الأحوذي].

وقال سفيان بن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: من كانت معصيته في شهوة، فارج له التوبة، فإن آدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ عصى مشتهيًا فغفر له، فإذا كانت معصيته من كبر، فاخش عليه اللعنة، فإن إبليس عصى مستكبر فلعن.

وقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خُيَلَاءَ لَمْ يَنْظُرْ اللَّهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**». **فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّ أَحَدَ شِقَّيْ ثَوْبِي يَسْتَرْخِي إِلَّا أَنْ أَتَعَاهَدَ ذَلِكَ مِنْهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّكَ لَسْتَ تَصْنَعُ ذَلِكَ خُيَلَاءَ**» [صحيح البخاري ومسلم].

واعلم: أن الكبر خلق باطن تصدر عنه أعمال هي ثمرته، فيظهر على الجوارح، وذلك الخلق هو رؤية النفس على المتكبر عليه، يعني يرى نفسه فوق الغير في صفات الكمال، فعند ذلك يكون متكبرًا.

والتكبر على العباد هو احتقارهم، واستعظام نفسه عليهم، وذلك أيضًا يدعوا إلى التكبر على أمر الله تعالى، كما حمل إبليس كبره على آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن امتنع من امتثال أمر ربه في السجود.

وقد شرح رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الكبر فقال: «**الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ**» [صحيح مسلم].

ومعنى غمط الناس: الإزدراء بهم، واستحقارهم.

تقسيم آفات الكبر

واعلم: أن العلماء والعباد في آفة الكبر على ثلاث درجات.

الأولى- أن يكون الكبر مستقرًا في قلب.

الإنسان منهم، فهو يرى نفسه خيرًا من غيره، إلا أنه يجتهد ويتواضع، فهذا في قلبه شجرة الكبر مغروسة، إلا أنه قد قطع أغصانها.

الثانية- أن يظهر لك بأفعاله من الترفع في المجالس، والتقدم على الأقران، والإنكار على من يصعر خده للناس، كأنه معرض عنهم والعابد يعيش ووجهه

كأنه مستقذر لهم، وهذان قد جهلا ما أدب الله به نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حين قال: ﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٥].

الدرجة الثانية- أن يظهر الكبر بلسانه، كالدعاوي والمفاخر، وتزكية النفس، وحكاية الأحوال في معرض المفاخرة لغيره، وكذلك التكبر بالنسب، فالذي له نسب شريف، يستحضر من ليس له ذلك النسب وإن كان أرفع منه عملًا.

قال ابن عباس: يقول الرجل للرجل، أنا أكرم منك، وليس أحد أكرم من أحد إلا بالتقوى قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ ﴾ [الحجرات:١٣]، وكذلك التكبر بالمال والجمال، وكثرة الأتباع، ونحو ذلك.

فالكبر بالمال أكثر ما يجرى بين الملوك والتجار، والتكبر بالجمال أكثر ما يكون بين النساء، ويدعوهن إلى التنقص والغيبة وذكر العيوب، وأما أثرالتكبر بالأتباع والأنصار، فيجرى بين الملوك بالمكاثرة بكثرة الجنود وبين العلماء بالمكاثرة بالمستفيدين.

واعلم: أن التكبر يظهر في شمائل الإنسان كصغر وجهه، ونظره شزرًا، وإطراق رأسه وجلوسه متربعًا، ومتكئًا، وفي أقواله حتى في صوته ونغمته، وصبغة إيراده الكلام، ويظهر ذلك أيضًا في مشيه وتبختره، وقعوده وحركاته، وسكناته وسائر تقلباته.

ومن صور الكبر أن يحب قيام الناس له، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَتَمَثَّلَ لَهُ الرِّجَالُ قِيَامًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**» [صحيح رواه الترمذي].

[كتاب منهاج القاصدين]

❊ ❊ ❊

٧٨- العجب

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَتَبَخْتَرُ يَمْشِي فِي بُرْدَيْهِ قَدْ أَعْجَبَتْهُ نَفْسُهُ فَخَسَفَ اللَّهُ بِهِ الْأَرْضَ فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» [صحيح البخاري ومسلم].

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ: شُحٌّ مُطَاعٌ، وَهَوًى مُتَّبَعٌ، وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ مِنَ الْخُيَلَاءِ» [الطبراني].

وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الهلاك في شيئين: العجب والقنوط، وإنما جمع بينهما لأن السعادة لا تنال إلا بالطلب والتشمير، والقانط لا يطلب، والمعجب يظن أنه قد ظفر بمراده فلا يسعى.

قال مطرف رَحِمَهُ اللَّهُ: لأن أبيت نائمًا وأصبح نادمًا، أحبُّ إلي من أبيت قائمًا وأصبح معجبًا.

واعلم: أن العجب يدعوا إلى الكبر، لأنه أحد أسبابه، فيتولد من العجب الكبر، ومن الكبر الآفات الكثيرة، وهذا مع الخلق.

فأما مع الخالق، فإن العجب نتيجة استعظامها فكأنه يمن على الله تعالى بفعلها، وينسى نعمته عليه وبتوفيقه لها، ويعمى عن آفاتها المفسدة لها.

وإنما يتفقد آفات الأعمال من خاف ردها دون من رضيها وأعجب بها.

واعلم: أن الله سبحانه هو المنعم عليك بإيجادك وإيجاد أعمالك، فلا معنى لعجب عامل بعمله، ولا عالم بعلمه، ولا جميل بجماله، ولا غنى بغناه، إذ كل ذلك من فضل الله تعالى، وإنما الآدمي محل لفيض النعم عليه، وكونه محلا له نعمة أخرى.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**لَا يُنَجِّي أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ**» فَقَالَ رَجُلٌ وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ الله. فَقَالَ: «**وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ وَلَكِنْ سَدِّدُوا**» [صحيح البخاري ومسلم].

[كتاب منهاج القاصدين]

❊ ❊ ❊

٧٩- الغفلة عن أسباب صلاح القلوب

فإن العبد إذا غفل عن أسباب صلاح قلبه كان ذلك سببًا في هلاكه في الدنيا والآخرة وهذا أمر مشاهدة ومعروف ولا حول ولا قوة إلا بالله.

* * *

٨٠- الذنوب والمعاصي

قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ فِي قَلْبِهِ فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ صُقِلَ قَلْبُهُ فَإِنْ زَادَ زَادَتْ فَذَلِكَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين: ١٤]» [صحيح البخاري ومسلم].

أضرار الذنوب والمعاصي

قال الإمام ابن القيم: ينبغي أن يُعلم، أن الذنوب والمعاصي تضر ولابد، وأن ضررها في القلب كضرر السموم في الأبدان على اختلاف درجاتها في الضرر، وهل في الدنيا والآخرة شر وداء إلا سببه الذنوب والمعاصي؟!

فما الذي أخرج الأبوين من الجنة، دار اللذة والنعيم والبهجة والسرور إلى دار الآلام والأحزان والمصائب؟

وما الذي أخرج إبليس من ملكوت السماء وطرده ولعنه، ومسخ ظاهره وباطنه فجعل صورته أقبح صورة وأشنعها، وباطنه أقبح من صورته وأشنع، وبُدِّلَ بالقرب بُعدًا، وبالرحمة لعنةً، وبالجمال قُبحًا، وبالجنةِ نارًا تلظى، وبالإيمانِ كفرًا، وبموالاة الوليِّ الحميدِ أعظمَ عداوة ومشاقة، وبزَجَلِ التسبيح والتقديس والتهليل زَجَلَ الكفر والشرك والكذب والزور والفحش، وبلباسِ الإيمان لباسَ الكفر والفسوق والعصيان، فهانَ على الله غاية الهوان، وسقط من عينه غاية السقوط، وحل عليه غضب الرب تعالىٰ فأهواه، ومقته، فصار قوَّادًا لكل فاسق

ومجرم، رضي لنفسه بالقيادة بعد تلك العبادة والسيادة، فعياذًا بك اللهم من مخالفة أمرك وارتكاب نهيك.

وما الذي أغرق أهل الأرض كلهم حتى علا الماء فوق رأس الجبال؟

وما الذي سلط الريح العقيم على قوم عاد حتى ألقتهم موتى على وجه الأرض كأنهم أعجاز نخل خاوية، ودمرت ما عليه من ديارهم وحروثهم وزروعهم ودوابهم، حتى صاروا عبرة للأمم إلى يوم القيامة؟

وما الذي أرسل على قوم ثمود الصيحة حتى قطعت قلوبهم في أجوافهم وماتوا على آخرهم؟

وما الذي رفع قرى اللوطية حتى سمعت الملائكة نبيح كلابهم، ثم قلبها عليهم، فجعل عاليها سافلها، فأهلكهم جميعا، ثم أتبعهم حجارة من السماء أمطرها عليهم، فجمع عليهم من العقوبة ما لم يجمعه على أمة غيرهم، ولإخوانهم أمثالها، وما هي من الظالمين ببعيد؟

وما الذي أرسل على قوم شعيب سحاب العذاب كالظلل، فلما صار فوق رؤسهم أمطر عليهم نارًا تلظى؟

وما الذي أغرق فرعون وقومه في البحر، ثم نقلت أرواحهم إلى جهنم، فالأجساد للغرق، والأرواح للحرق؟

وما الذي خسف بقارون وداره وأهله؟

أليس كل ذلك سببه هو معصية الله تعالىٰ ومعصية رسله؟ قال تعالى: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت:٤٠].

عقوبات الذنوب في الدنيا

١- سبب في الإمراض التى لم تكن في الماضي:

قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ، حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا، إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ، وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا، وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ، إِلَّا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ، وَشِدَّةِ الْمَئُونَةِ، وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ، إِلَّا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ، وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا، وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللهِ، وَعَهْدَ رَسُولِهِ، إِلَّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ، فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ، وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ، وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللهُ، إِلَّا جَعَلَ اللهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ» [رواه ابن ماجة، وحسنه الألباني].

٢- العقاب يعم الكل:

قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا مِنْ قَوْمٍ يُعْمَل فِيهِمْ بِالْمَعَاصِي، هُمْ أعَزّ وَأَكْثَرُ مِمَّنْ يَعْمَلُهُ، لَمْ يُغَيِّرُوهُ، إِلَّا عَمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ» [رواه أحمد، وصححه الألباني].

٣- سبب هلاك العبد:

قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُهْلِكْنَهُ»، وَإِنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضَرَبَ لَهُنَّ مَثَلا «كَمَثَلِ قَوْمٍ نَزَلُوا أَرْضَ فَلَاةٍ

فَحضَرَ صَنِيعُ الْقَوْمِ فَجعَلَ الرَّجُلُ يَنْطَلِقُ فَيَجِيءُ بِالْعُودِ وَالرَّجُلُ يَجِيءُ بِالْعُودِ حَتَّى جَمَعُوا سَوَادًا وَأَجَّجُوا نَارًا وَأَنْضَجُوا مَا قَذَفُوا فِيهَا» [رواه أحمد، وصححه الألباني].

وقال أنس للتابعين: إنكم لتعملون أعمالًا هي أدق في أعينكم من الشعر، وإن كنا لنعدها على عهد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الموبقات [رواه البخاري].

٤- سبب سواد القلب:

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءَ فِي قَلْبِهِ، فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ صُقِلَ قَلْبُهُ مِنْهَا، وَإِنْ زَادَ زَادَتْ، فَذَلِكَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللهُ فِي كِتَابِهِ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:١٢٢]»

[رواه ابن ماجة، وحسنه الألباني].

وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إن للسيئة سوادًا في الوجه، وظُلمَة في القلب، ووهنًا في البدن، ونقصًا في الرزق، وبغضة في قلوب الخلق.

٥- سبب في حرمان العلم الشرعي:

كما قال الشافعي:

شكوتُ إلى وكيعٍ سوءَ حفظي　　فأرشدني إلى ترك المعاصي

وقال أعلم بأن العلم نور　　ونور الله لا يُهدَى لعاصي

وقد قال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة:٢٨٢]، فأخبر الله تعالىٰ أن سبب حصول العلم الشرعي هو التقوى، وأن ترك التقوى سبب لحرمان العلم الشرعي، والتقوى هي فعل الواجبات وترك المحرمات.

٦- حرمان الطاعات:

فكما أن من ثواب الحسنةِ الحسنة بعدها، ومن عقاب المعصيةِ المعصية بعدها، كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ [الصف:٥].

وقال سفيان الثوري: حُرِمْتُ قيام الليل خمسة أشهر بذنب أذنبته.

٧- هوان العاصي عند ربّه:

فإن المعصية سبب لهوان العبد على ربه وسقوطه من عينه، فقد قال الحسن البصري: هانوا عليه فعصوه، ولو عزوا عليه لعصمهم، وإذا هان العبد على الله لم يكرمه أحدٌ، كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍ ﴾ [الحج:١٨].

٨- سبب الذل:

إن المعصية تورث الذل كما أن الطاعة سبب العز، وقد قال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ [فاطر:١٠]، أي: فليطلبها بطاعة الله، فإنه لا يجدها إلا في طاعته.

قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «**وَجُعِلَ الذُّلُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي**».

[رواه أحمد، وحسنه الألباني]

وكان من دعاء بعض السلف: اللهم أعزني بطاعتك ولا تُذِّلني بمعصيتك:

رأيتُ الذنوبَ تميتُ القلوبَ   وقد يورث الذلَّ إدمانُها
وترك الذنوب حياة القلوب   وخير لنفسك عصيانُها
وهل أفسد الدين إلا الملوك   وأحبارُ سوءٍ ورُهبانُها

٩- تُعمي القلب:

قال تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

قال الحسن: هو الذنب على الذنب حتى يعمى القلب.

وقال غيره: لما كثرت ذنوبهم ومعاصيهم أحاطت بقلوبهم.

١٠- سبب انتكاس القلب:

فيصير القلب مقلوبًا لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا، فصار المنكر عنده معروفًا والمعروف عنده منكرًا، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تُعْرَضُ الفِتَنُ عَلَى القلوْبِ كالحصِيرِ عُوْدًا عُوْدًا، فأَيُّ قلبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيْهِ نُكتَة سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى تَصِيرَ عَلى قلبَيْنِ عَلى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفا فلا تَضُرُّهُ فِتْنَة مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ، وَالآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا، كالكوْزِ مُجَخِّيًا، لا يَعْرِفُ مَعْرُوْفا وَلا يُنْكِرُ مُنْكرًا، إلا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاه**»

[رواه مسلم].

١١- سبب اللعن:

واللعن هو الطرد من رحمة الله، فقد لعن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحاب الذنوب، مثل: الواشمة والمستوشمة، والواصلة، والمستوصلة (الباروكة)، والنامصة والمتنمصة، ولعن آكل الربا ومؤكله وكاتبه وشاهدَيْهِ، ولعن المحلِّل والمحلَّل له، ولعن السارق، ولعن شارب الخمر وساقيها وعاصرها ومعتصرها وبائعها وآكل ثمنها ومشتريها وحاملها والمحمولة إليه، ولعن من غيَّر منار الأرض - وهي أعلامها وحدودها -، ولعن من لعن والديه، ولعن المخنثين من الرجال والمترجلات من النساء، ولعن من ذبح لغير الله، ولعن من أحدث حدثًا أو آوى محدِثًا، ولعن المصورين، ولعن من عَمِلَ عَمَل قوم لوط، ولعن من أفسد امرأة على زوجها، ولعن من أتى امرأة في دبرها، وأخبر أن من باتت مهاجرة فراش زوجها لعنتها الملائكة حتى تصبح، ولعن من أشار إلى أخيه بحديدة، ولعن من سب الصحابة، ولعن من يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات بالفاحشة، ولعن من كتم ما أنزل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من البينات والهدى، ولعن الراشي والمرتشي والرائش، وغيرها من المعاصي.

١٢- سبب الفساد:

قال تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم:٤١].

١٣- تكسو العبدَ أسماءَ الذم:

بدلاً من أن يُقال عنه: صالح، عابد، برٌّ، تقيٌّ، مؤمن طاهر، واصل الرحم، فيقال له: فاسد، فاجر، فاسق، منافق، نجس، عاق لوالديه، قاطع للرحم.

١٤- تُذهِبُ النّعَم وتَجلِبُ النّقَمَ:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الرعد:١١].

وقال **علي بن أبي طالب** رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: ما نزل بلاءٌ إلا بذنب ولا رُفِع إلا بتوبة.

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى:٣٠].

ولقد أحسن القائل:

إذا كنتَ في نعمةٍ ترعاها ... فإن الذنوب تزيل النعم
وحُطها بطاعة رب العباد ... فربُّ العباد سريعُ النَّقَم
وإياكَ والظلمَ مهما استطعت ... فظلم العباد شديد الوخم
وسافر بقلبِك بين الورى ... لتبصر آثار من قد ظلم

١٥- محو البركة:

فكما أن الطاعة سبب لجلب البركة في العمر والمال والزوجة والأولاد، فكذلك المعاصي تمحق البركة فلا يجد بركة في العمر والمال والزوجة والأولاد، قال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف:٩٦].

١٦- الوحشة بينه وبين الله:

فإنها سبب في وحشةٍ يجدها العاصي في قلبه بينه وبين الله، لا توازنها ولا تقاربها لذة أصلًا، ولو اجتمعت له لذات الدنيا بأسرها لم تَفِ بتلك الوحشة، وهذا أمر لا يحس به إلا من في قلبه حياة، وما لِجُرحٍ بميِّتٍ إيلامُ، شكا رجلٌ إلى بعض العارفين وحشةً يجدُ في نفسه، **فقال له:**

إذا كُنتَ قد أوحشَتْكَ الذنوبُ　　فدَعْها إذا شئتَ واستأنسِ

١٧- المعيشة الضنك:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه:١٢٤]، فقد قدر الله وقضى أن كل من أعرض عن دينه فهو في معيشة ضنك، ولو كان أغنى الناس، ولو كان مشهورًا، ولو كان ذا مكانة عالية ومركز مرموق، هذا أمر يعرفه كل ذي بصيرة، وتأمَّلْ كلمة ﴿ضَنكًا﴾ فقد جمعت كلَّ ألوانَ البؤس والهم والغم والحزن والشقاء.

١٨- أنها قد تؤدي إلى الكفر:

إن كثرة الذنوب والمعاصي يُخشَى على فاعلِها أن يقع في الكفر، كما قال أحد السلف: المعاصي بريد الكفر، كما أن القُبْلة بريد الجِماع، والغناء بريد الزنا، والنظر بريد العشق، والمرض بريد الموت.

١٩- سوء الخاتمة:

وهذا أخطر ما في المعاصي أنها تخون العبدَ عند الموتِ فلا يوفق لحسن الخاتمة، وتَحُولُ بينه وبين لا إله إلا الله عند الموت.

فإذا كن العبد في حال حضور ذهنه وقوته وكمال إدراكه قد تمكن منه الشيطان، واستعمله فيما يريده من معاصي الله، وقد أغفل قلبه عن ذكر الله تعالى، وعطل لسانه عن ذكره وجوارحه عن طاعته، فكيف الظن به عند سقوط قواه واشتغال قلبه ونفسه بما هو فيه من ألم النزع؟

وجمع الشيطان له كل قوته وهمته، وحشد عليه بجميع ما يقدر عليه لينال منه فرصته، فإن ذلك آخر العمل، فأقوى ما يكون عليه شيطانه ذلك الوقت، وأضعف ما يكون هو في تلك الحال، فمن ترى يَسْلَمُ على ذلك؟

٢٠- تُنسي العبد نفسَه:

وإذا نسي العبدُ نفسَه أهملَها وأفسدَها وأهلكَها، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ [الحشر:١٩]، فلما نَسِيَ العبدُ ربّه سبحانه نسيه الله تعالى، أي أهمله وأضاعه، فالهلاك أدنى إليه من اليد للفم، وأنساه نفسه بأن أنساه حظوظها العالية وأسباب سعادتها وفلاحها وصلاحها وما تكمل به، وينسيه عيوب نفسه ونقصها وآفاتها فلا يخطر بباله إزالتها وإصلاحها، ويُنسيهِ أمراض قلبِه فلا يسعى لشفاء قلبه من هذه الأمراض التي هي سبب هلاكه.

٢١- تُذهِبُ الحياءَ:

الحياء هو مادة حياة القلب، وهو أصل كل خير، وذهابُ الخير أجمعه.

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الْحَيَاءُ خَيْرٌ كُلُّهُ**» [رواه مسلم].

وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ الْأُولَى: إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ فَافْعَلْ مَا شِئْتَ**» [رواه البخاري].

٢٢- تُبعِدُ العبدَ عن أولياء الله:

فكلما ازداد العبدُ في المعاصي ازدادت الوحشة بينه وبين الصالحين، وكان قريبًا من أولياء الشياطين.

٢٣- تحرم دعوة الملائكة:

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ٧ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [غافر: ٧-٩].

يا نفسُ قد أزِفَ الرحيلُ ... وأظلَّكِ الخطبُ الجليلُ
فتأهَّبي يا نفسُ لا يلْـ ... ـعَبْ بكِ الأَمَلُ الطويلُ
فلَتَنْزِلَنَّ بمَنْزِلٍ يَنْسى ... الخليلَ به الخليلُ

ولَــــيَركـــــبَنَّ عـلـيـلـكى فـيـهِ   مـــن الــــثرى ثِــقْــلٌ ثَـقـيـلُ

قُـــرِنَ الـفـنـاءُ بـنـا جـمـيـعًـا فما   يـبـقى الـعـزيـزُ ولا الذليـــلُ

[الداء والدواء بتصرف]

❊ ❊ ❊

٨١- التوبة من الذنوب والمعاصي

فإن من أعظم الأسباب لصلاح القلوب هى التوبة الصادقة النصوح فهي تنير القلب من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد ومن ظلمات البدع إلى نور السُنة ومن ظلمات الذنوب والمعاصي إلى نور الطاعة ومن ظلمات الغفلة إلى نور الذكر والتفكر.

كيف أتوب؟

التوبة هي مشروع العمر؛ يبدأ المكلف بها وتظل معه طيلة حياته، وينتقل بالتوبة إلى غيرها من العبادات والمنازل، ويُنْهِي عُمُرَه بالتوبة فقد قال سيد التوابين صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَاللهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً» [رواه البخاري].

وآخر ما نزل من القرآن: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [النصر:١-٣].

وفي الصحيح عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: مَا رَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُنْذُ نَزَلَ عَلَيْهِ ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ يُصَلِّى صَلاَةً إِلاَّ دَعَا أَوْ قَالَ فِيهَا: «سُبْحَانَكَ رَبِّى وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِى».

وتأمل قول الله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور:٣١]، فلم يقل: أيها العاصون أو الفاسقون؛ لأن العبد لا ينفك عن التوبة؛ لأنه مهما وصل في العبادة فهو مقصر في حق الله تعالى؛ لذلك شُرِع الأستغفار عقب الطاعات كما في المأثور بعد الوضوء: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ»، وبعد قيام الليل في وقت السحر، وبعد الانتهاء من مناسك الحج: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:١٩٩].

فما بالك إذا كانت العبادات مختلطة بالرياء والعجب والكبر التي هي أسباب حبوط العمل.

فضائل التوبة

١- حب الله للتائبين:

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة:٢٢٢].

٢- دخول الجنة:

قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [مريم:٦٠].

٣-الخروج من الظلم:

قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحجرات:١١].

٤- كأنه لم يذنب:

قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ، كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ».

[رواه ابن ماجة، وحسنه الألباني]

٥- سبب الفلاح في الدنيا والآخرة:

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور:٣١].

٦- تبديل السيئات حسنات:

قال تعالى: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان:٧٠].

٧- فرح الله بعبده التائب:

قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ رَجُلٍ حَمَلَ زَادَهُ وَمَزَادَهُ عَلَى بَعِيرٍ"، ثُمَّ سَارَ حَتَّى كَانَ بِفَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ، فَأَدْرَكَتْهُ الْقَائِلَةُ، فَنَزَلَ، فَقَالَ: تَحْتَ شَجَرَةٍ، فَغَلَبَتْهُ عَيْنُهُ، وَانْسَلَّ بَعِيرُهُ، فَاسْتَيْقَظَ فَسَعَى شَرَفًا فَلَمْ يَرَ شَيْئًا، ثُمَّ سَعَى شَرَفًا ثَانِيًا فَلَمْ يَرَ شَيْئًا، ثُمَّ سَعَى شَرَفًا ثَالِثًا فَلَمْ يَرَ شَيْئًا، فَأَقْبَلَ حَتَّى أَتَى مَكَانَهُ الَّذِي قَالَ فِيهِ، فَبَيْنَمَا هُوَ قَاعِدٌ إِذْ جَاءَهُ بَعِيرُهُ يَمْشِي، حَتَّى وَضَعَ خِطَامَهُ فِي يَدِهِ، فَاللهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ، مِنْ هَذَا حِينَ وَجَدَ بَعِيرَهُ عَلَى حَالِهِ» [رواه مسلم].

شروط التوبة

إن العلماء ذكروا شروطًا للتوبة لابد وأن تتوفر في التوبة حتى تكون صحيحة، وهي:

١- الإخلاص في التوبة:

بأن يتوب العبدُ خوفًا من عقاب الله ورجاء رحمة الله، وليس من أجل الدنيا كمنصب أو جاه، أو يكون ضَعُفَ عن فعل الذنب، أو ليس معه مالٌ ليعصي ربه، وغير ذلك من الموانع.

٢- الإقلاع عن الذنب:

بأن يترك الذنب فورًا ولا يُمهل ولا يسوِّف.

٣- الندم على الذنب:

بأن يندم على كل معصية فعلها في حق الله تعالى، قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**النَّدَمُ تَوْبَةٌ**» [رواه ابن ماجة، وصححه الألباني].

قال ابن القيم: فرحُك بالذنب أشد عند الله من الذنب، وضحك، وأنت تفعل الذنب أشد عند الله من الذنب، وحرصك على أن تستر نفسك وأنت تذنب ولا يضطر قلبك لِنَظَرِ الله إليك أشد عند الله من الذنب.

٤- العزم على عدم العودة للذنب:

إذا وقعت في المعصية فاتركها وتُبْ وارجع إلى الله الكريم التواب، وكن صادقًا مع الله تعالى: بقلبك ألا تعود إلى الذنب وأن تبتعد عن أسبابه، وإن تكرر الذنبُ منك فلا تيأس من رحمة الله، وعاود التوبةَ مرةً أخرى؛ فإن الله يحب التوابين.

٥- رد المظالم:

لقول رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ شَيْءٍ، فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ اليَوْمَ، قَبْلَ أَنْ لاَ يَكُونَ دِينَارٌ وَلاَ دِرْهَمٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ»

[رواه البخاري].

٦- التوبة قبل الغرغرة:

قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ».

[رواه الترمذي، وحسنه الألباني]

«مَا لَمْ يُغَرْغِرْ» أي: قبل أن تصل الروح إلى الحلقوم، لأن ذلك وقت المعاينة الذي يرى فيه ملائكة الموت ويتيقن بالموت والرحيل.

أيَا عبدُ كم يراك الله عاصيا حريصا على الدنيا وللموت ناسيا
أنسيتَ لقاءَ اللهِ واللحدَ والثرى ويومًا عبوسًا تشيبُ فيه النواصيا
إذا المرء لم يلبس ثيابًا من التقى تجرَّد عُريانًا ولو كان كاسيا

ولــو كانــت الدنــيــا تــدوم لأهلها لــكان رســـولُ الله حــيًّـا وباقيا
ولكنها تــفــنى ويــفــنى نعيمُها وتبقى المعاصي والذنـــوب كما هيا

[صور من حياة الأنبياء والصحابة والتابعين]

علامات قبول التوبة

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فالتوبة المقبولة الصحيحة لها علامات:

منها: أن يكون بعد التوبة خيرا مما كان قبلها.

ومنها: أنه لا يزال الخوف مصاحبًا له لا يأمن مكر الله طرفة عين، فخوفه مستمر إلى أن يسمع قولَ الرسل لقبض روحه: ﴿ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت:٣٠]، فهناك يزول الخوف.

ومنها: انخلاع قلبه وتقطعه ندمًا وخوفًا، وهذا على قدر عظم الجناية وصغرها، وهذا تأويل ابن عيينة لقوله تعالى: ﴿ لَا يَزَالُ بُنۡيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوۡاْ رِيبَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡ ﴾ [التوبة:١١٠]، قال: تقطُّعها بالتوبة.

ولا ريب أن الخوف الشديد من العقوبة العظيمة يوجِبُ انصداعَ القلب وانخلاعَه، وهذا هو تقطُّعُه، وهذا حقيقة التوبة؛ لأنه يتقطع قلبه حسرةً على ما فرط منه، وخوفًا من سوء عاقبته، فمن لم يتقطع قلبُه في الدنيا على ما فرط حسرةً وخوفًا تقطَّعَ في الآخرة إذا حقَّت الحقائق وعاين ثوابَ المطيعين وعقابَ العاصين، فلابد من تقطع القلب إما في الدنيا وإما في الآخرة.

كيف أتوب؟

١- أن تسأل الله التوبة: قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة:١١٨]، لأنه إذا لم يتب الله على العبد فلن يتوب أبدًا، وهذا معنى لا حول ولا قوة إلا بالله، أي لا أتحول من معصية الله إلى طاعته إلا بحول الله وقوته.

بك أستجيرُ ومن يُجيرُ سواكا   فأجر ضعيفًا يحتمي بحماكا
إني ضعيفٌ أستعينُ على قوي   ذنبي ومعصيتي ببعض قواكا
أذنبت يا ربي وآذتني ذنوبٌ   ما لها من غافرٍ إلا كا
دنياي غرتني وعفوك غرني   ما حيلتي في هذه أو ذاكا

٢- **أن تدعو الله في كل وقت**: خصوصًا أوقات إجابة، فيدعو الله: اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك، اللهم يا مصرف القلوب صرف قلبي على طاعتك، اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك، يا حي يا قيوم برحمتك أصلح لي شاني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين.

وليجتهد العبد في الدعاء في ثلث الليل الآخرة؛ قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إِذَا مَضَى نِصْفُ اللَّيْلِ - أَوْ قَالَ: ثُلُثُ اللَّيْلِ - يَنْزِلُ اللهُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَقُولُ: لَا أَسْأَلُ عَنْ عِبَادِي غَيْرِي، مَنْ ذَا الَّذِي يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟ مَنْ ذَا الَّذِي يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ ذَا الَّذِي يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ حَتَّى يَنْفَجِرَ الصُّبْحُ»** [رواه مسلم].

لبستُ ثوب الرَّجا والناس قد رقدوا وبــتُّ أشـكـوا إلى مــولاي مـا أجـدُ
وقُـلــتُ يــا أَمَـــلِي في كل نائبة ومَــن عليه لكشف الـضُرِّ أعتمد
أشكو إليـك أمـــوراً أنـت تعلمها مــا لي على حملها صــبرٌ ولا جلدُ
وقـد مـــدَدْتُ يـدِي بـــالذُّلِّ مبتهلاً إليــك يـا خـير مـن مُــدَّتْ إليـه يدُ
فـــلا تـــرُدَّهـــا يــا ربِّ خــائـبــةً فبَحْرُ جـــودِكَ يــروي كل مــنْ يَـرِدِ

٣- **أن تشغل نفسك بالطاعات**: كما قال العلماء: نفسك إن لم تشغلها بالطاعة شغلتك بالمعصية.

٤- **أن تنظر إلى عظمة من عصيتَ**:

قال أحد السلف: لا تنظر إلى صغر المعصية ولكن انظر إلى عظمة من عصيتَ.

قال عبد الله بن مسعود: إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مر على أنفه فقال به هكذا - أي بيده - فذبه عنه.

٥- **أن يخاف على معصية الله**، فتكون سوء خاتمة، ويلقى ربَّه على غير ما يرضى.

٦- **أ ن تبتعد عن المكان الذي تفعل فيه المعاصي**: لأن النفس ضعيفة، ولكي ينسى العبدُ فعل الذنب، ولا تراوده نفسه إلى فعل الذنب بعد أن تاب منه.

دعَ عنك ما قد فات في زمن الصبا واذكــر ذنوبك وابكِها يا مذنبُ
لم ينسهُ الملائكة حين نسيته بــل أثبــتــوه وأنـــت لاه تلعب
والـــروح مـنـك وديـعـة أودعـتـهـا سـتـردهـا بـالـرغـم منك وتسلب
وغـــرور دنـيـاك الـتى تـسـعى لها دار حقيقة متاعها سيذهب
والـلـيـل فعلم والنـهـار كلاهما أنـفـاسـنـا فـيـهـا تـعـد وتحسب

٧- **أن تبتعد عن أصحاب السوء وترافق الصالحين**، لأن الصالحين يعينوك على طاعة الله، فقاتل المائة نفس عندما سأل العالم عن توبته قال له العالم: «**نَعَمْ، وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ، انْطَلِقْ إِلَى أَرْضِ كَذَا وَكَذَا فَإِنَّ بِهَا نَاسًا يَعْبُدُونَ اللهَ تَعَالَى فَاعْبُدْ مَعَهُمْ وَلَا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أَرْضُ سُوءٍ**» [رواه مسلم]، والصاحب ساحب إما أن يسحبك إلى طاعة الله أو يسحبك إلى معصية الله، وقد قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ**» [رواه أبو داود، وحسنه الألباني].

٨- **أن تتنفس أجواء إيمانية**: مثل مجالس العلم التي تنزل فيه السكينة ـ وتغشاهم الرحمة، وتحفهم الملائكة، ويذكرهم الله فيمن عنده، ويباهي بهم الملائكة، ومثل العمرة خاصة عمرة رمضان، والحج، وغير ذلك.

٩- **أن يتذكر العقوبة المعجلة**: فقد تأتيه في أي وقت، قال الله تعالى: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [الزمر:٥٤].

١٠- **أن يداوم على ذكر الله تعالىٰ في جميع الأوقات**: فذكر الله أعظم الأسباب المعينة على طرد الشيطان، ويحافظ على أذكار الصباح والمساء، وأذكار النوم، وغير ذلك مما هو مأثور عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

١١- **أن يتذكر الثواب**: والأجر العظيم الذي أعده الله للتائبين.

١٢- **أن يتذكر العقاب الأليم**: والعذاب المهين، والخزي في الدنيا لمن لم يتب إلى الله.

إذا وقعتَ في معصية ماذا تفعل؟

تُبادر إلى التوبة، ثم تعمل أعمالاً صالحة، قال تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾ [هود:١١٤].

وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا**» [رواه الترمذي، وحسنه الألباني].

وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا، فَقَالَ: اللهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: **أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: **عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: **أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، اعْمَلْ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ**» [رواه مسلم].

ومعنى الحديث: إذا كان على هذه الحالة يتوب ويندم ويستغفر الله فإن الله يغفر له، وهذا يدعو العبد كلما وقع في ذنب يبادر بالتوبة والاستغفار والرجوع إلى علام الغيوب.

وقد قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا مِنْ رَجُلٍ يُذْنِبُ ذَنْبًا فَيَتَوَضَّأُ فَيُحْسِنُ الْوُضُوءَ ثُمَّ يُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ - وَقَالَ مِسْعَرٌ ثُمَّ يُصَلِّي - وَيَسْتَغْفِرُ اللَّهَ إِلَّا غَفَرَ اللَّهُ لَهُ».

[رواه ابن ماجة، وحسنه الألباني]

وقيل للحسن البصري: ألا يستحي أحدُنا من ربه؛ يستغفر من ذنوبه ثم يعود؟ فقال: وَدَّ الشيطان لو ظفر منكم بهذه، فلا تملُّوا من الاستغفار.

عتاب من الله

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد:١٦].

أما آنَ أن يخشع القلب إلى ذكر الله؟

أما آنَ للعين أن تدمع من خشية الله؟

أما آنَ أن تنضم إلى قوافل العائدين إلى أرحم الراحمين؟

أما آنَ أن تسلك طريق التائبين؟

نصيحة غالية لكل مسلم

أخي المسلم، بادر بالتوبة؛ فإن الموت يأتي بغتة: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنين:٩٩-١٠٠].

أخي المسلم ... لعلها تكون آخر ساعة في عمرك، فلْتَلْقى اللهَ تعالىٰ على توبةٍ تَسعَدُ بها سعادةً لا تشقى بعدها أبدًا.

تــزود من التقوى فإنك لا تدري إذا جنَّ ليلٌ هل تعيش إلى الفجر
فكم من فتى أمسى وأصبح ضاحكا وقد نُسِجَتْ أكفانه وهو لا يدري
وكم من صغارٍ يُرتجى طول عمرهم وقد قبضت أرواحُــهــم ليلة القدرِ
وكــم مــن عــروس زينوها لزوجها وقد أُدخلت أجسادُهم ظلمة القبرِ
وكم من صحيح مات من غير علةٍ وكم من سقيم عاش حينًا من الدهر

❊ ❊ ❊

التوبة مشروع العمر

التوبة هي مشروع العمر؛ يبدأ المكلف بها وتظل معه طيلة حياته، وينتقل بالتوبة إلى غيرها من العبادات والمنازل، ويُنْهِي عُمُرَه بالتوبة فقد قال سيد التوابين صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «وَاللهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً» [رواه البخاري].

وآخر ما نزل من القرآن: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [النصر:١-٣].

وفي الصحيح عن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا قالت: مَا رَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ مُنْذُ نَزَلَ عَلَيْهِ ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ يُصَلِّي صَلاَةً إِلاَّ دَعَا أَوْ قَالَ فِيهَا: «سُبْحَانَكَ رَبِّي وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي».

وتأمل قول الله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [النور:٣١]، فلم يقل: أيها العاصون أو الفاسقون؛ لأن العبد لا ينفك عن التوبة؛ لأنه مهما وصل في العبادة فهو مقصر في حق الله تعالى؛ لذلك شُرِع الأستغفار عقب الطاعات كما في المأثور بعد الوضوء: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ»، وبعد قيام الليل في وقت السحر، وبعد الانتهاء من مناسك الحج: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [البقرة:١٩٩].

فما بالك إذا كانت العبادات مختلطة بالرياء والعجب والكبر التي هي أسباب حبوط العمل.

فضائل التوبة

١- حب الله للتائبين:

قال الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة:٢٢٢].

٢- دخول الجنة:

قال تعالى: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ﴾ [مريم:٦٠].

٣-الخروج من الظلم:

قال تعالى: ﴿ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [الحجرات:١١].

٤- كأنه لم يذنب:

قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ، كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ».

[رواه ابن ماجة، وحسنه الألباني]

٥- سبب الفلاح في الدنيا والآخرة:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [النور:٣١].

٦- تبديل السيئات حسنات:

قال تعالى: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾ [الفرقان:٧٠].

٧- فرح الله بعبده التائب:

قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ رَجُلٍ حَمَلَ زَادَهُ وَمَزَادَهُ عَلَى بَعِيرٍ"، ثُمَّ سَارَ حَتَّى كَانَ بِفَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ، فَأَدْرَكَتْهُ الْقَائِلَةُ، فَنَزَلَ، فَقَالَ: تَحْتَ شَجَرَةٍ، فَغَلَبَتْهُ عَيْنُهُ، وَانْسَلَّ بَعِيرُهُ، فَاسْتَيْقَظَ فَسَعَى شَرَفًا فَلَمْ يَرَ شَيْئًا، ثُمَّ سَعَى شَرَفًا ثَانِيًا فَلَمْ يَرَ شَيْئًا، ثُمَّ سَعَى شَرَفًا ثَالِثًا فَلَمْ يَرَ شَيْئًا، فَأَقْبَلَ حَتَّى أَتَى مَكَانَهُ الَّذِي قَالَ فِيهِ، فَبَيْنَمَا هُوَ قَاعِدٌ إِذْ جَاءَهُ بَعِيرُهُ يَمْشِي، حَتَّى وَضَعَ خِطَامَهُ فِي يَدِهِ، فَاللهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ، مِنْ هَذَا حِينَ وَجَدَ بَعِيرَهُ عَلَى حَالِهِ» [رواه مسلم].

* * *

المحتويات

الفصل الأول

سؤلات الصحابة للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن القلب

الفصل الثاني

أسباب صلاح القلوب

الفصل الثالث

الإكثار من أعمال القلوب

الفصل الرابع

البعد عن أسباب قسوة القلب

تم بحمد الله